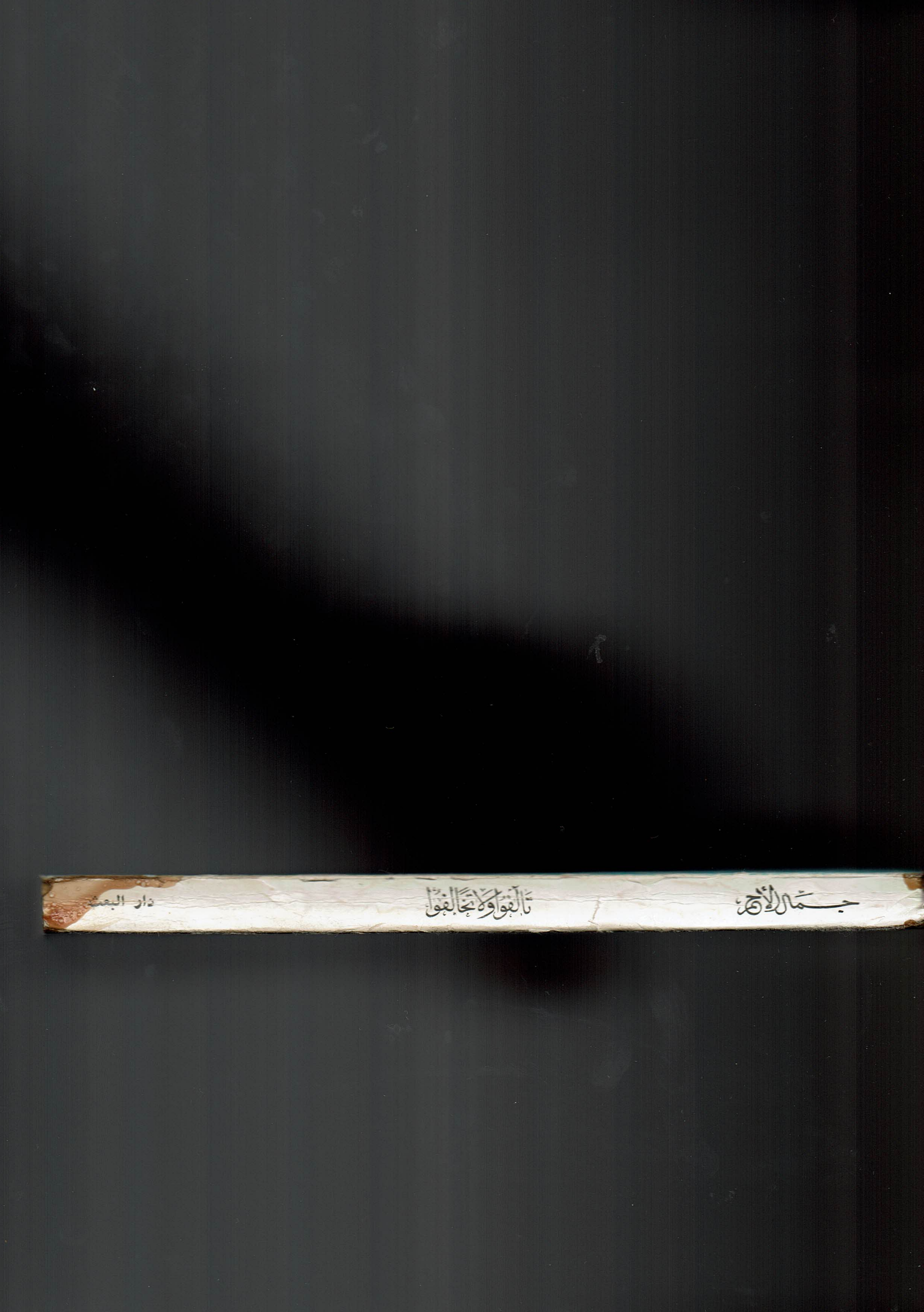
حسن الأمين

تآلفوا ولا تخالفوا

الطبعة الأولى
1403 هـ - 1983 م

نشر




جمال الأحمر
تآلفوا ولا تخالفوا
دار البعث

جمال الأحمر

تآلفوا ولا تخالفوا

الطبعة الأولى

1403 هـ – 1983 م

نشر



رقم الايداع القانونى
39260
و. قسنطينـة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمـــة

ان أكبر مصائبنا اليوم هي أن المسلمين يعيشون طوائف متناكرة ، تفصل بينها المسافة نفسها التي تفصل بين أتباع دين ودين آخر !!

ولا عجب ، فقد اتخذوا كتاب ربهم وراءهم ظهريا ، وطال عليهم الأمد فنسوا حظا مما ذكروا به . لقد نسوا أهم عنصر يحافظ على كيانهم ويوحد صفوفهم ضد أعدائهم ألا وهي الأخوة الاسلامية الشاملة . وان الفرقة وبال جسيم ، وعندما يقع بأس الأمة بينها وتفشو الخصومات في كيانها ، فهي أمة تنتحر قبل أن ينال منها عدوها ..

وفي هذه الأوضاع البائسة ، التي تتردى فيها أمتنا ، تفتش عن عارف بأخوة الاسلام أو واع لها فلا تجد الا فئة قليلة كحفنة در رميت في فلاة .

وساعد على هذه الأوضاع حثالة من الخفافيش التي لا تعيش الا في الظلام أو عصابة من الطفيليات التي لا تتكاثر الا في المستنقعات الآسنة .

فقد دعوا الأمة الى التجمع في فئات تقسمها الى مليون فرقة ، وأرادوها تحت ألوية جاهلية تقاتل بعضها بعضا .

وتقسم افراد امتنا امرهم بينهم ، وصحت فيهم نبوءات المصطفى صلى الله عليه وسلم الى حد بعيد . ولولا ان الله قيض لهم في العصر الأخير من كره فرقتهم ، ونظر الى عللها فوجدها تافهة ، لما انتهى هذا الخلاف دون فنائهم جميعا وضياع دينهم .

ونحن نقول بدورنا : هذه أخوتنا لا يشوبها لبس ولا يكتنفها غموض ، ولا يمكن لهذه الأمة أن تستعيد مجدها وتبني حضارتها الا اذا رجعت اليها من جديد .

واني أسال رب العرش أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم وأن يجعله لي ذخرا ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون .

مالي سوى قرعي لبابك حيلة ... يا من لسدته الحوائج ترفع
اني لجات لباب أرحم راحم ... فلئن رددت فاي باب أقرع
ومن الذي أدعو واهتف باسمه ... ان كان فضلك عن فقيرك يمنع

الفقير الى رحمة ربه
جمال الأحمر

الأخوة بين صفحتين

هناك في الصفحة المطوية من تاريخ البشرية قبل اشراق النور الالهي المتمثل بمحمد الخاتم صلوات الله وسلامه عليه مجتمع مضطرب لم يذق للاستقرار طعما ولم يعرف الى التعاون على البر سبيلا ، يهيمن على أبنائه انحلال الأخلاق وحب الذات والرغبة في الانتقام والثأر ، ليس للضعيف والعاجز والفقير فيه غير تسلط القوي ، وبغي القادر ، واستهتار الغني .

نعم هناك في تلك الصفحة لا نكاد نرى غير التخاصم والتلاحم والتنافر والتناحر ، وهي صفحة في الحقيقة لا يمثلها ظاهر الأفراد آنذاك وما هم عليه بقدر ما يمثلها باطنهم وما فيه من ظلام قاتم واضطراب مريع بفعل بعدهم عن النور وكرههم له ، وانصهارهم بالظلام وتعاملهم المستمر معه ... صفحة ما الأخ فيها الا من ضمتك واياه بطن واحدة وربطتك به علاقة متينة ومصلحة متبادلة وعدو مشترك والا فلا ؛ ذلك لأن القلوب غير متآلفة والأرواح غير متناجيه ، وتآلف القلوب والأرواح لا يكون الا بما يداخلها من النور الذي يقودها الى الاطمئنان بعقيدة واحدة حقة تجمع المؤمنين بها على ما تضمه بين جوانبها .

لذا فلم نر في تلك الصفحة المطوية بذرة لأخوة حقيقية قامت على أسس ثابتة أتت أكلها ولو بعد حين (1) ، حتى اذا ما لاح في

(1) عدا ما كان من أخوة المؤمنين برسالات السماء التي نزلت على أنبياء بعثوا قبل محمد صلى الله عليهم أجمعين وسلم .

الأفق النور الذي بهر الأبصار والعقول ، ودمغ الظلام وأبان عن الصراط المستقيم طويت تلك الصفحة بما فيها ، وبدأت البشرية صفحة جديدة مشرقة رأت أول ما رأت فيها : « **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** ... » (2)، « **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً** ... » (3) ، « **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** » (4) . فرفرفت القلوب وحلقت الأرواح حول هذا النور وتلك الاشراقة ، ولكن النفوس منها ما تابعت قلوبها وأرواحها ففازت ، ومنها ما خالفت فخسرت .

وما فازت التي فازت الا بخروجها من ظلمات الجهل والشرك الى نور المعرفة والعلم والتوحيد في العبادة ، ونزعها ثياب الشر والقسوة وحب الانتقام وارتدائها ثياب الخير والرحمة والمودة والايثار والأخوة ؛ فطوبى للفائزين بهذا النور الذي جاءهم ليلم شعثهم ويوحد كلمتهم ويجعلهم أمة واحدة تلتف حول مبدأ واحد وتلتقي عند عقيدة واحدة يؤمنون بها تذكرهم بما كانوا عليه بدونها من عداء وبما آلوا اليه بها من اخاء ، وتلك منة كبرى ونعمة عظمى من نعم الله تعالى على من تابعوا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم : « **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها** ...»(5). كانوا أعداء في صفحة الجاهلية وها هم اخوة في صفحة الاسلام .. وتتوالى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تحث المؤمنين على أخوتهم الجديدة القائمة على أساس العقيدة الاسلامية الحقة التي جاءهم بها من عند الله خير خلق الله وخاتم أنبيائه محمد صلى

---

(2) الحجرات : 13 .
(3) الأعراف : 158 .
(4) المائدة : 15 .
(5) آل عمران : 103 ، 104 .

الله عليه وسلم ليشعروا بفضل الله عليهم ويكونوا على مستوى المسئولية حيال ما يتطلبه معناها من تمكن في القلوب واستقرار في النفوس ينسحب على أعمالهم وتصرفاتهم حفاظا عليها وتنمية لها : « **إنما المؤمنون إخوة** ... » (6) ، « **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله** » (7) ، « **ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا** ... » (8) . ويقول صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله ولا يحقره » (9) ، « الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه » (10) ، « المؤمن للمؤمن كاليد تغسل احداهما الأخرى » (11) ، « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » . (12)

وكانت الهجرة النبوية المباركة ، فشاءت ارادة الله أن تؤكد هذه الأخوة بشكلها التطبيقي ، وتجلى ذلك بمؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم بين مسلمي مكة ، وهم المهاجرون الى يثرب وبين مسلمي يثرب « المدينة المنورة » الذين سبق أن آخى صلى الله عليه وسلم بينهم بعد قتال وتناحر ونزاع طويل بين قبيلتي الأوس والخزرج ؛ فدعا صلى الله عليه وسلم المهاجرين والأنصار الى التآخي في الله اثنين اثنين ليحقق بذلك الشكل التطبيقي للدعوة الاسلامية . فكان

---

(6) الحجرات : 10 .
(7) التوبة : 71 .
(8) الحشر : 10 .
(9) روى نحوه مسلم من حديث أبي هريرة .
(10) « الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد .
(11) السلمي في آداب الصحبة وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس .
(12) رواه أحمد بن حنبل والنسائي ، في باب القسامة وأبو داود في بابي الجهاد والديات ورواه ابن ماجه .

صلى الله عليه وسلم وابن عمه علي رضي الله عنه أخوين، وأبو بكر الصديق وخارجة بن زيد الأنصاري أخوين ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين ، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين ، وأبو الدرداء وسلمان الفارسي أخوين ، وحمزة وزيد بن حارثة أخوين ٠٠ رضوان الله عليهم أجمعين ٠

وقد أشاد القرآن الكريم بهذه المؤاخاة العامة بين المسلمين فقال: « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ٠٠٠ » (13) يرتفع المتآخون الى المستوى الذي أراد الله تبارك وتعالى لهم فيضربون أروع الأمثلة في التآخي والايثار والحب بينهم ٠ فهذا سعد بن الربيع الأنصاري يقول لأخيه عبد الرحمن بن عوف المهاجر : « أي أخي أنا أكثر أهل المدينة مالا ، وعندي بستانان ، ولي امرأتان ، فانظر أي بستاني أحب اليك حتى أخرج لك عنه ، وأي امرأتي أرضى عندك حتى أطلقها لك ٠٠٠ » فقال عبد الرحمن لأخيه الأنصاري : « بارك الله لك في أهلك ومالك ٠٠ ولكن دلني على السوق » فدله عليه ، فاخذ يتجر ويبيع ويشتري حتى بارك الله في ماله وكان أكثر المسلمين انفاقا ٠

هكذا ضرب المتآخون أروع الأمثلة في الايثار ٠ ومما جاء في أسباب نزول : « وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » ان رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أصابني الجهد» فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم الى نسائه فلم يجد عندهن شيئا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « الا رجل يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله ؟ » فقال أبو طلحة : « أنا يا رسول الله ٠ فذهب الى أهله فقال لامرأته : « أكرمي ضيف رسول الله » قالت : « والله ما عندي الا قوت الصبية » ، قال : « اذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فأطفئي السراج ونطوي الليلة لضيف رسول الله »

(13) الحشر : 9 ٠

ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لقد عجب الله من فلان وفلانة وأنزل فيهما « وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » ٠

وبعد : فشتان بين صفحتي (الأخوة) في الجاهلية والاسلام ، ففي تلك لا نجد فعلا ولا عملا ، ولا عبادة ولا قولا يحض على الاخاء والأخوة ويدعو اليها ، بينما في الاسلام نجد أن كل ركن من أركانه يدعو الى الاخاء ، وينادي بالأخوة ، وكل عمل كذلك ، فالصلاة مثلا وما فيها من آداب وأخلاق كرص الصفوف والمحاذاة بين المناكب ووقوف المسلمين جميعا جنبا الى جنب يقومون قياما واحدا ، ويركعون ركوعا واحدا ، ويسجدون سجودا واحدا خلف الامام لمن أعظم مظاهر الأخوة ، ومثل ذلك يقال في الصيام والزكاة والحج ٠٠٠ ولقد أدرك المسلمون الأولون قيمة هذه الأخوة ، وذاقوا طعم ثمارها اليانعة في الدنيا والآخرة ، فحافظوا عليها ما استطاعوا ، فكانوا بذلك خير أمة أخرجت للناس ، وأعز أمة بين الأمم ٠ (14)

مفهوم الأخوة في الله

الأخوة في نظر الاسلام هي الآصرة العقدية التي تشد المسلمين بعضهم لبعض ٠ وهي الرباط الرباني الذي يربط بين قلوبهم ، بل هي وشيجة القربى في الله ٠ وهي من أوثق عرى الايمان كما يقرر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « أوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله » ٠ (15)

والأخوة احدى المقومات الأساسية التي يعتمد عليها الاسلام في بناء المجتمع الاسلامي ، واحكام الربط بين أفراده وأبنائه ٠

(14) عبد الرحمن مطلك الجبوري (مجلة التربية الاسلامية : 1402هـ)
(15) رواه أحمد ٠

ويوم أقام الرسول صلى الله عليه وسلم المجتمع الاسلامي الأول في المدينة كانت الأخوة هي الدعامة الثانية في صرح الدولة الاسلامية الفتية بعد العقيدة التي تمثلت في بناء المسجد النبوي الشريف ٠ (16)

ليست الأخوة مما يشترى بمال أو يورث عن أب ، فالمحبة سر ينقدح في قلوب المؤمنين اذا شاء الله له أن ينقدح ، والأخوة روح يبعثها الله في الأفئدة اذا أراد لها أن تأتلف وتقترب : « **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ، وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي** » ٠ (17)

فالأخوة اذا نعمة قدسية تشرق بها القلوب التي رضي عنها مقلب القلوب ، وهي منحة من الرحمن الرحيم يغدقها على المؤمنين من عباده الذين علم منهم صدق ايمانهم ، وعميق اخلاصهم ٠

ولذا كانت الأخوة في الله صفة مرافقة للايمان ، فلا أخوة بدون ايمان ؛ ولا ايمان بدون أخوة ٠ وان وجدت أخوة ولم تجد من ورائها ايمانا فهو التقاء مصالح وتبادل منافع ، وان وجدت ايمانا ولم تجد بجانبه أخوة فهو ايمان ناقص يحتاج الى معالجة لأن الله عز وجل يقول « **انما المؤمنون اخوة** » (18) ٠ وهي سر من أسرار الله القدسية لا يخضع لمقاييس الناس ولا تجري عليه موازينهم ، تمتلىء به النفس دون مقدمات وتروى به القلوب في لحظات ٠ وتحيط شباكه بالفؤاد في ثوان معدودات ٠ يجتمع المؤمنان ولم يسبق لهما تعارف ، ولم يكن بينهما من قبل لقاء ، فاذا هما أخوان لا يطيق أحدهما فراق أخيه ، ولا يستطيع على بعده صبرا ٠

انها امتزاج روح بروح ، وتصافح قلب مع قلب ٠ انها الشراب الطهور الذي يسقيه الله لعباده المؤمنين ، فاذا بالمحبة تنبض في عروقهم وتسري مع دمائهم ، وتتألق في وجوههم فيمسك الأخ بيد أخيه في رفق واشفاق وحنو ويأخذ بهذه اليد الحبيبة الى قلبه ليسير بصاحبها في ظلال المحبة ٠ وليستروح واياه نسمات للوفاء والاخاء ٠

---

(16) مشكلات الدعوة والداعية : فتحي يكن (ص : 206) ٠
(17) طـه : 39 ٠
(18) الحجرات : 10 ٠

فسبحانك اللهم يا مؤلف القلوب ، وباعث المحبة في الأفئدة ، سبحانك يا من اذا رأيت صدق الايمان من عبادك أوجبت عليهم أن يكونوا عبادا لله اخوانا ، فاذا هم روح واحد يسري في أجسام متعددة ٠

فينظر المنافقون اليهم نظرات الاستغراب والدهشة ، لأن موازينهم الصفيقة لا تحتمل أخوة كهذه ، ولأن نفوسهم الحقيرة لا تستشرف لمنزلة كهذه ، ولأن عيونهم الكليلة أضعف من أن تحتمل نورا كهذا ٠٠ فهي عاجزة عن رؤيته ، ساعية في تبديده أو تضليله ٠٠ ولكن هيهات لأيدي اللحم والعروق أن تنال من عالم النور الذي رضي عنه رب النور وبسط جناح رعايته عليه ٠

الأخوة سر من أسرار الله يعقده بيده ولا يحل عقدته الا هو تبارك اسمه وجلت قدرته ٠

انها عجيبة من عجائب الروح لا يدركها الا رب الروح ، والروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا ٠ فليستمع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « الأرواح جنود مجنده، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » (19) ولنقف عند هذا الحد فما كان لنا أن نتخطاه ، وما كان لنا أن نفكر في تخطيه لأننا لن نعود الا بقبضات من الوهم والظن (20) « **إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** » ٠ (21)

الأخوة في الله ، تلك التي تجعل الجماعة المسلمة بنية حية قوية صامدة ، قادرة على أداء دورها العظيم في الحياة البشرية وفي التاريخ الانساني ، دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٠

---

(19) رواه البخاري عن عائشة ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ٠
(20) عن « رسالة الأخوة في الله » ٠ الناشر : مكتبة الرسالة الحديثة (عمان) ٠
(21) النجم : 28 ٠

واقامة الحياة على أساس المعروف وتطهيرها من لوثة المنكر (٠٠) أخوة في الله ، على منهج الله ، لتحقيق منهج الله (٠٠) فهي أخوة اذن تنبثق من التقوى والاسلام ٠٠ أساسها الاعتصام بحبل الله ـ أي عهده ونهجه ودينه ـ وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر ، ولا على أي هدف آخر ، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة !

« هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة امتن الله بها على الجماعة المسلمة الأولى ٠ وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائما ٠ وهو هنا (22) يذكرهم بهذه النعمة ٠ يذكرهم كيف كانوا في الجاهلية « أعداء » ٠٠ وما كان أعدى من الأوس والخزرج في المدينة أحد ٠ وهما الحيان العربيان في يثرب . يجاورهما اليهود الذين كانوا يوقدون حول هذه العداوة وينفخون في نارها حتى تأكل روابط الحيين جميعا ٠ ومن ثم تجد يهود مجالها الصالح الذي لا تعمل الا فيه ، ولا تعيش الا معه ٠ فألف الله بين قلوب الحيين من العرب بالاسلام ٠ وما كان الا الاسلام وحده يجمع هذه القلوب المتنافرة ٠ وما كان الا حبل الله الذي يعتصم به الجميع فيصبحون بنعمة الله اخوانا ٠ وما يمكن أن يجمع القلوب الا أخوة في الله ، تصغر الى جانبها الأحقاد التاريخية ،والثارات القبلية ، والأطماع الشخصية والرايات العنصرية ٠ ويتجمع الصف تحت لواء الله الكبير المتعال ٠٠

تذكر السيرة أن هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج ٠ وذلك أن رجلا من اليهود مر بملإ من الأوس والخزرج ، فساءهم ما هم عليه من الاتفاق والألفة ، فبعث رجلا معه ، وأمره أن يجلس بينهم ، ويذكر لهم ما كان من حروبهم يوم « بُعاث » ! وتلك الحروب ٠ ففعل ٠ فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم ، وغضب بعضهم على بعض ، وتشاوروا ، ونادوا بشعارهم ٠ وطلبوا أسلحتهم ٠

(22) المقصود به : قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ٠ واذكروا نعمة الله عليكم » ٠

وتوعدوا الى « الحرة » ٠٠ فبلغ ذلك النبّي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأتاهم ، فجعل يسكنهم ، ويقول : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم » وتلا عليهم هذه الآية ، فندموا على ما كان منهم ، واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح رضي الله عنهم ٠ وكذلك بين الله لهم فاهتدوا ، وحق فيهم قول الله سبحانه في التعقيب على الآية : « كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » ٠

فهذه صورة من جهد يهود لتقطيع حبل الله بين المتحابين فيه ، القائمين على منهجه ، لقيادة البشرية في طريقه ٠٠ هذه صورة من ذلك الكيد الذي تكيده يهود دائما للجماعة المسلمة ، كلما تجمعت على منهج الله واعتصمت بحبله ٠ وهذه ثمرة من ثمار طاعة أهل الكتاب ٠ كادت ترد المسلمين الأولين كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض ٠ وتقطع بينهم حبل الله المتين ، الذي يتآخون فيه مجتمعين ٠ وهذه صلة هذه الآية بالآيات قبلها في هذا السياق ٠٠ وهو دأب يهود في كل زمان ٠ وهو عملها اليوم وغدا في الصف المسلم ، في كل مكان !

« (٠٠) وقصة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قصة من عالم الحقيقة ، ولكنها في طبيعتها أقرب الى الرؤى الحالمة ! وهي قصة وقعت في هذه الأرض ٠ ولكنها في طبيعتها من عالم الخلد والجنان »! (23)

ولقد جاءت لفظة الأخ في القرآن الكريم على سبعة أوجه :

فوجه منها : الأخ يعني من أبيه وأمه ٠ فذلك قوله تعالى في سورة المائدة : «فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ» يعني به أخاه من أبيه وأمه ٠ وقال تعالى فيها : « فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي » وقال تعالى في سورة النساء : « فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ » كقوله تعالى فيها « وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ » ونحوه ٠

(23) في ظلال القرآن » : سيد قطب (المجلد الأول) ٠

الثاني : الأخ من القبيلة وليس من أبيه وأمه ولا على دينه ، فذلك قوله تعالى في سورة هود : « وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا » وليس بأخيهم في الدين ولكن أخوهم في القبيلة لا من أبيهم ولا من أمهم مثلها في سورة الشعراء ·

الثالث : الأخ في الدين والولاية في الشرك · قوله تعالى في سورة الأعراف : « وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ » يعني الشياطين من الكفار ، وكقوله تعالى في سورة الاسراء : « إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ » في الدين والولاية ·

الرابع : الأخ في دين الاسلام والولاية · فذلك كقوله تعالى في سورة الحجرات «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » يعني في الدين والولاية·

الخامس : الأخ في الحب والمودة · فذلك قوله تعالى في سورة الحجر : « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ » ·

السادس : الأخ الصاحب وذلك قوله تعالى في سورة ص : « إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً » وقال تعالى في سورة الحجرات : « أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ » أي يأكل لحم صاحبه ·

السابع : الأخ الشبه قوله تعالى في سورة الأعراف : « كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا » يعني شبهها ·

أما كلمة الصاحب فقد وردت على ثمانية أوجه :

فوجه منها : الأصحاب السكان · قوله تعالى في سورة البقرة : « أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ » يعني سكان النار · ومثله في سورة الأعراف « وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ » يعني سكان الجنة « أَصْحَابَ النَّارِ » يعني سكان النار · ونحوه · وكقوله تعالى في سورة الأعراف : « وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا » ·

الثاني : الأصحاب القوم · قوله تعالى في سورة الشعراء : « قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ » يعني قومه وأمته · ونحوه كثير ·

الثالث : الصاحب الرفيق · قوله تعالى في سورة النساء : « وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ » يعني الرفيق في السفر · وقوله تعالى في سورة الكهف « فَلَا تُصَاحِبْنِي » يعني فلا ترافقني · كقوله تعالى في سورة براءة : « إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ » أي رفيقه ·

الرابع : الصاحب يعني النبي صلى الله عليه وسلم · قوله تعالى في سورة التكوير : « وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ » يعني وما نبيكم بمجنون · مثلها في سورة النجم : « مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى » يعني نبيكم ·

الخامس : الصاحب الأخ · قوله تعالى في سورة الكهف : « قَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ » يعني لأخيه · مثلها فيها : « قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ » يعني أخاه ·

السادس : الصاحبة الزوجة · قوله تعالى في سورة عبس « وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ » يعني زوجته · كقوله تعالى في سورة الأنعام « وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ » يعني زوجة ·

السابع : الأصحاب الخزان · قوله تعالى في سورة المدثر «وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً » يعني خزنة النار · ولا نظير له · (24)

الثامن : الأصحاب الأبوان · قوله تعالى في سورة الأنعام : « لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى » يعني الأبوين · (25)

وحتى نعرف معني الحبيب وجب علينا أن نعرف الوجوه التي أتت بها كلمة « حب » في كتاب الله ؛

---

(24) « اصلاح الوجوه والنظائر » : للعلامة الحسين بن محمد الدامغاني · ص : 24 · ط : 1 ·

(25) نفس المصدر · ص : 274 ·

فهي علـى ثلاثة أوجـه :

فوجه منها : الحب والاستحباب الايثار · قوله تعاله في سورة ص : « إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ » يعني آثرت · كقوله تعالى في سورة الحشر : « يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ » يعني يؤثرون من هاجر اليهم · كقوله تعالى في سورة ابراهيم : « الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ » أي يؤثرون ويختارون · وقوله تعالى في سور ةالتوبـة : « إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ » أي آثروه عليـه · ومثلهـا في سورة النحل قوله تعالى : « ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ » · وفي سورة فصلت قوله تعالى : « فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ » ·

الثـاني : الحب المودة · قوله تعـالى في سـورة المائـدة : « يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » · كقوله تعالى في سورة آل عمران : « فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ » · ونحوه كثير ·

الثالـث : الحب القلة · قوله تعالى في سـورة الانسـان : « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ » يعني قلته · كقوله تعالى في سـورة البقرة : « وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ » أي على قلته · (26)

وقال الراغب وجها رابعا وهو ربما فسرت المحبة بالارادة في نحو قوله تعالى في سورة التوبة : « فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا » ·

ووجه خامس وهو تفسير الحب بالثواب قوله تعالى في سورة البقرة : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » أي يثيبهم وينعم عليهم · ومثله كثير · (27)

فمن هنا تدرك أن مفهوم الأخوة يمكن أن يحتوي على جميـع هذه المفاهيم وغيرها ·

---

(26) نفس المصدر · ص : 114 ·
(27) معجم مفردات ألفاظ القرآن : الراغب الأصفهاني ·

فضل الأخـوة في اللـه

لما كانت الأخوة في الله سرا قدسيا ، وصفة ملازمة للايمـان فقد جعل الله عز وجل لها من الفضل وعلو المنزلة والأجر ما يدفع أبناء القرآن الى استشرافها والحرص عليها · وقد رغب فيها جمع من السلف ورأوا أن الله تعالى من على أهل الايمان حيث جعلهـم اخوانا · واليك طائفة من الأحاديث النبوية في هذا الغرض نذكرهـا على سبيل المثال لا على سبيل الحصر · ولن نتناول هذه الأحاديث بشرح أو تعليق فنورها يغنينـا عن ظـلال الشـرح واجتهـادات التفسير ···

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم أنه قال : « سبعة يظلهم الله يوم القيامة يوم لا ظل الا ظلـه : امام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال اني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر اللـه خاليا ففاضت عيناه » · (1)

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلـم : أن رجلا زار أخا له في قريـة أخرى فأرصد الله تعالى على

---

(1) متفق عليـه ·

مدرجته ملكا ، فلما أتى عليه قال : من تريد ؟ قال : أريد اخا لي في هذه القرية · قال : هل لك عليه من نعمة تربها عليه ؟ قال : لا ، غير أني أحببته في الله تعالى · قال : اني رسول الله اليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه · (2)

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شيء اذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » · (3)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي ؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل الا ظلي » · (4)

وعنه صلى الله عليه وسلم : « ألمؤمن الف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » · (5)

وقال أبو ادريس الخولاني لمعاذ : « اني أحبك في الله » · فقال له : « أبشر ثم أبشر ، فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ينصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة وجوههم كالقمر ليلة البدر ، يفزع الناس وهم لا يفزعون ، ويخاف الناس وهم لا يخافون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فقيل : من هؤلاء يا رسول الله ؟ فقال : « هم المتحابون في الله تعالى » · (6)

---

(2) مسلم من حديث أبي هريرة ·
(3) مسلم من حديث أبي هريرة ·
(4) رواه مسلم ·
(5) أحمد والطبراني من حديث سهل بن سعد والحاكم من حديث أبي هريرة وصححه ·
(6) أحمد والحاكم ، وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ، وقال فيه الترمذي : حديث حسن صحيح ·

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن الله تبارك وتعالى يقول : « حقت محبتي للمتحابين في ، وحقت محبتي للمتواصلين في ، وحقت محبتي للمتباذلين في » · (7)

« المتحابون في على منابر من نور ، يغبطهم النبيون والصديقون والشهداء » · (8)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : « أفضل الأعمال : الحب في الله ، والبغض في الله » · (9)

وعن معاذ بن أنس رضي الله عنه : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الايمان فقال : « أن تحب لله وتبغض في الله، وتعمل لسانك في ذكر الله » ، ثم قيل : ماذا يا رسول الله ؟ فقال : «وأن تحب للناس ما تحب لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك» · (10)

وعن عمرو بن الجموح رضي الله عنه : « لا يجد العبد صريح الايمان حتى يحب لله ويبغض لله ، فاذا أحب لله وأبغض لله استحق الولاية لله » ·

وعن عمر رضي الله عنه : « ان من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله » · قالوا : يا رسول الله ، لا تخبرنا من هم ؟ قال : « قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها ، فو الله ان وجوههم لنور ، وانهم لعلى نور لا يخافون اذا خاف

---

(7) روى نحوه أحمد من حديث عمرو بن عبسة وحديث عبادة بن الصامت ورواه الحاكم وصححه ·
(8) « المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء » رواه الترمذي عن معاذ ·
(9) « أوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله » أحمد والخرائطي في مكارم الأخلاق ·
(10) رواه الستة الا أبا داود ورواه أحمد والدارمي ·

الناس ، ولا يحزنون اذا حزنوا » (11) ، ثم قرأ : « **أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** » · (12)

وعن أبي أيوب رضي الله عنه : « المتحابون في الله على كراسي من ياقوت حول العرش » ·

وقال علي رضي الله عنه : « عليكم بالاخوان فانهم عدة في الدنيا والآخرة · ألا تسمع الى قول أهل النار : « **فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ** » · (13)

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « والله ، لو صمت النهار لا أفطره ، وقمت الليل لا أنامه ، وانفقت مالي غلقا غلقا في سبيل الله ، أموت يوم أموت وليس في قلبي حب لأهل طاعة الله وبغض لأهل معصية الله ما نفعني ذلك شيئا » ·

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « لو أن رجلا قام بين الركن والمقام يعبد الله سبعين سنة لبعثه الله يوم القيامة مع من يحب » ·

وقال عمر رضي الله عنه : « اذا رأى أحدكم ودا من أخيه فليتمسك به ، فقلما يصيب ذلك » ·

وأوحى الله تعالى الى داوود عليه السلام قال : « يا داوود ، مالي أراك منتبذا وحدك ؟ » قال : « الهي ، قليت الخلق من أجلك » ، فأوحى الله اليه : « يا داوود ، كن يقظانا ، مرتادا لنفسك اخوانا ، وكل خدن لا يوافق على مسرتي فلا تصحبه فانه عدو يقسي قلبك ويباعدك مني » ·

وقد ورد في الخبر : « ان أحبكم الى الله الذين يألفون ولا يؤلفون ، فالمؤمن آلف مألوف » ·

وقال محمد بن الحنفية رحمه الله : « ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد في معاشرته بدا حتى يجعل الله له منه فرجا » ·

---

(11) رواه الترمذي ·
(12) يونس : 62 ·
(13) الشعراء : 101 ·

وكان أحد الصالحين يقول : « اذا قصر العبد في طاعة الله سلبه الله تعالى من يؤنسه ، فالأنيس يهيئه الله للصادقين رفقا منه وثوابا للعبد معجلا » ·

وقد اختار الصحبة والأخوة في الله تعالى كل العارفين بالله من التابعين ومنهم سعيد بن المسيب وعبد الله بن المبارك وغيرهما ·

وروي عن أنس رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان لله تعالى عبادا يوضع لهم يوم القيامة المنابر يقعدون عليها ، هم قوم لباسهم نور ووجوههم نور ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء » · فقالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : « المتحابون في الله ، والمتزائرون في الله ، والمتجالسون في الله » · (14)

جاء في الخبر أنه يؤتى برجل مؤمن في القيامة فتوزن أعماله ، فترجح سيئاته على حسناته ، فيؤمر به الى النار · فيقول : « يا أماه ، بالذي ربيتني في الدنيا وبلغتني الى كل احسان هبي لي حسنة من حسناتك كي أنجو من النار » ، فتقول : « يا بني ، اني عاجزة في شأني ومتحيرة في أمري ، فكيف يمكنني أن أخلصك اليوم » ، فييأس منها ، وهكذا يأتي الى جميع أقربائه فييأس منهم جميعا ، فيأمر الله تعالى به الى النار ، فيراه خليله يساق الى النار ، فيقول له الخليل : « وهبت لك جميع حسناتي لينجو أحدنا من النار ، وذلك أهون من أن يكون كلانا في النار » ، فيؤمر به الى الجنة ، فيسرع اليها ، فينادي في الطريق : « ليس من الفتوة أن تنسى خليلك في النار ، فتدخل الجنة » ، فيخر ساجدا ويشفع له ، فيأمر الله تعالى بهما الى الجنة ·

« أوحى الله الى موسى عليه السلام قال : « يا موسى هل عملت لي عملا قط ؟ » قال : الهي ، صليت لك ، وصمت لك ، وتصدقت لك ، وذكرت لك » ، فقال الله : « يا موسى ، ان الصلاة لك برهان،

---

(14) رواه الطبراني في الأوسط ·

والصوم لك جنة ، والصدقة لك ظل ، والذكر لك نور . فأي عمل عملت لي ؟ » فقال : « دلني على عمل هو لك : » قال : « يا موسى، هل واليت لي وليا ، وهل عاديت لي عدوا » . فعلم أن أحب الأعمال الى الله الحب في الله والبغض في الله .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعالى : المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء » . (15)

الجلال : هو التناهي في عظم القدر . وخص بوصف الله سبحانه وتعالى (ذو الجلال والاكرام) ولم يستعمل في غيره . أما المقصود بقوله « يغبطهم » : يقال غبطت الرجل أغبطه غبطا . اذا اشتهيت أن يكون لي مثل ما له . وأن يدوم عليه ما هو فيه . فالغبطة هي عكس الحسد .

وورد في الحديث القدسي عن العرباض بن سارية : « المتحابون لجلالي في ظل عرشي يوم لا ظل الا ظلي » (16) وهو قريب من الحديث الذي سقناه من قبل .

وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعالى : حقت محبتي للمتحابين في ، وحقت محبتي للمتواصلين في ، وحقت محبتي للمتناصحين في ، وحقت محبتي للمتزاورين في ، وحقت محبتي للمتباذلين في . المتحابون في على منابر من نور يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء » (17) . وحقت : أي وجبت .

ومن الأحاديث القدسية أيضا : عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه : « حقت محبتي للمتحابين في ، أظلهم في ظل العرش يوم القيامة يوم لا ظل الا ظلي » . (18)

---

(15) رواه الترمذي .
(16) رواه أحمد والطبراني .
(17) رواه أحمد وابن حبان والحاكم والقضاعي .
(18) رواه ابن أبي الدنيا .

وعن عمرو بن عنبسة : « حقت محبتي للذين يتصادقون من أجلي ، وحقت محبتي للذين يتناصرون من أجلي ، ولا من مؤمن ولا مؤمنة يقدم لله ثلاثة أولاد من صلبه لم يبلغوا الحنث الا أدخله الله الجنة بفضل رحمته اياهم » (19) . والحنث : هو الاثم والذنب .

وتأمل في قوله تعالى : « **ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ . يَا عِبَادِي ، لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ . ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ** » (20) . فالأخلاء هم الأحباء ، « يومئذ بعضهم لبعض عدو » أي يتعادون يومئذ لانقطاع العلق بظهور ما كانوا يتخالون له سببا للعذاب ، « الا المتقين » فان خلتهم لما كانت في الله تبقى نافعة أبد الآبدين . « يا عبداي ، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون .» حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون في الله يومئذ ، « الذين آمنوا بآياتنا » صفة للمنادى ، « وكانوا مسلمين » حال من الواو ، الذين آمنوا مخلصين ، غير أن هذه العبارة آكد ، « ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم » نساؤكم المؤمنات ، « تحبرون » أى تسرون سرورا يظهر حباره أي أثره على وجوهكم ، أو تزينون من الحبر وهو حسن الوجه والهيئة ، أو تكرمون اكراما يبالغ فيه . والحبرة : المبالغة فيما وصف بالجميل . (21)

فأنت ترى في هذه الدنيا ملوكا كثيرا ـ قد لا تعد ولا تحصى ـ منها ملوك للمال ، وملوك للعلم ، وملوك للصحة ، وملوك للجمال، وملوك للشعور ، وملوك للايمان ، وملوك للأخلاق ، وملك للعقل ، وملوك للحرب ، وملوك للعرش ، وملوك للخير .. وملوك وملوك .. وكلهم على درجات ،، أما خير الملوك جميعا ، وأعلاهم جميعا على الاطلاق ؛ فهم ملوك « الأخوة ، والحب في الله » ، لأنهم وحدهم من دون الناس على منابر من نور !!

---

(19) رواه الطبراني في الأوسط والصغير .
(20) الزخرف : 69 ، 70 .
(21) درة الناصحين : الخوبوي .

روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : « عليكم باخوان الصدق فانهم زينة في الرخاء وعصمة في البلاء ».

وروى أبو الزبير عن سهل بن سعد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « المرء على دين خليله ولا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له » . (22)

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لقاء الاخوان جلاء الأحزان » . وقال خالد بن صفوان : « ان أعجز الناس من قصر في طلب الأخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم » . وقال علي كرم الله وجهه لابنه الحسن : « يا بني ، الغريب من ليس له حبيب » . وقال ابن المعتز : « من اتخذ اخوانا كانوا له أعوانا » . وقال بعض الأدباء : « أفضل الذخائر : أخ وفي » . وقال بعض البلغاء : « صديق مساعد : عضد وساعد » .

وقال بعض الشعراء :

هموم رجال في أمور كثيرة ... وهمي من الدنيا صديق مساعد
نكون كروح بين جسمين قسمت ... فجسماهما جسمان والروح واحد

وقيل : « انما سمي الصديق صديقا لصدقه ، والعدو عدوا لعدوه عليك » . وقال ثعلب : « انما سمي الخليل خليلا لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللا الا ملأته » .

(22) الشطر الأول رواه أبو داود والترمذي وحسنه والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح ان شاء الله ، وأما الشطر الثاني فرواه ابن عدى في الكامل من حديث أنس بسند ضعيف (العراقي) .

منزلة الأخوة من الدعوة الى الله

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد أن يتحدث عن أحد من رسل الله أو انبيائه قال « أخي » قبل أن يذكره باسمه ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوحى الله الى أخي العزير : يا عزير ، ان أصابتك مصيبة فلا تشكني الى خلقي ، فقد أصابني منك مصائب كثيرة فلم أشكك الى ملائكتي . يا عزير ، آعصني بقدر طاعتك على عذابي ، وسلني حوائجك على مقدار عملك لي ، ولا تأمن مكري حتى تدخل جنتي . فاهتز عزير يبكي ، فأوحى الله اليه : لا تبك يا عزير ، فان عصيتني بجهلك غفرت لك بحلمي ، لأني كريم لا أعجل بالعقوبة على عبادي وأنا أرحم الراحمين » . (I)

وكان اذا تكلم عن رعيل من المؤمنين قال : « اخوانكم » قبل أن يسميهم . فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لما أصيب اخوانكم بأُحُد جعل الله أرواحهم في طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها ، وتأوي الى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش . فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ اخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق ، لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب . فقال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم » (2) . وقوله ينكلوا : أي يجنبوا .

(I) رواه الديلمي .

(2) أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم والبيهقي وابن جرير .

فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ليبين لكل مسلم أن الدعوة الى الله على مر العصور ، وفي كل حين وآن مفتقرة الى رابطة الأخوة في الله ، وأن كل فرد في هذه الدعوة مضطر الى اتخاذ اخوان يساعدونه على قطع الطريق ٠

ورحم الله أحد الأئمة الصالحين ، السائرين على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رحم الله الرجل الصالح الذي تحدث عن أساس هذه الدعوة فقال : « أساس الدعوة الى الله ، الحب والتعارف » ٠ فاذا أقام المسلمون على أساس المحبة والاخاء ضربوا للناس مثلا عمليا على أن المجتمع الذي يدعون اليه أمر ممكن التطبيق ، وأنه ليس مجرد تصورات وأوهام ، لا سيما وأن الناس قد فطروا على الايمان بما يشاهدونه امام أعينهم أكثر من الايمان بما يصور لهم في أذهانهم ٠٠ وبذا يكونون قد ربحوا للدعوة انصارا جددا يشتد بهم ساعدها وتزداد بهم قوتها ٠ وان أقام المسلمون مجتمعهم على أساس المحبة والاخاء ازدادت قوتهم قوة ، فما أشبه المسلمين بحبات السبحة التي يجمعها خيط واحد هو خيط المحبة ٠

صحيح أن كل حبة من حباتها جميلة المنظر في ذاتها الا أن فائدتها لا تتبين الا عند ارتباطها مع أختها ٠

فالمسلمون اذا اقاموا مجتمعهم المسلم على أسس المحبة والاخاء ملأ الله قلوبهم ايمانا ، لأن المحبة سبيل الايمان ، « ولا تؤمنوا حتى تحابوا » (3) ، واذا امتلأت القلوب بالايمان أوتينا النصر من عند الله عز وجل : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » (4) ٠ وزيادة على ذلك فان من اعتاد أن يحيا مع اخوة تربطه بهم أقدس روابط المحبة ، أصبحت المحبة ملكة لا يستطيع الانفكاك عنها أو الانخلاع منها ، وجرى على لسانه أعذب الكلام وأحلاه ٠٠ مما يساعده على تحسين علاقته بالناس وجذبهم الى دعوته ٠ ومن فشل في بناء اخوة صحيحة

(3) مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم ٠
(4) الروم : 47 ٠

بينه وبين اخوانه في دعوته فهو في بناء صداقة بينه وبين من لم يضمهم اطار الدعوة أفشل ٠

فلو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بيننا لما كان له الا أن يقول : « لا أكتمكم أني مزهو بهذه الوحدة الاسلامية الصادقة ، فخور بهذا الارتباط الرباني القوي المتين ، عظيم الأمل في المستقبل ما دمتم كذلك اخوة في الله متحابين متعاونين ، فاحرصوا على هذه الوحدة فانها سلاحكم وعدتكم لأنكم تبغون وجه الله وتحصيل مثوبته ورضوانه ، وذلك مكفول لكم ما دمتم مخلصين » ٠

وتنافسوا في هذه المحبة فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما تحاب اثنان في الله الا كان أحبهما الى الله أشدهما حبا لصاحبه » ٠ (5)

(5) ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح الاسناد ٠

الطريق الى الأخـــوة

تباركت ربنا ما أكرمك ، وما أرحمك بعبادك · خلقتهم مـن ضعف ، وحملتهم من الأمانات ما ناءت به السماوات والأرض ولكنك اللطيف الخبير · علمت انهم لن يحصلوا على ذلك ، فيسرت لهم من السبل ما لو سلكوها لكان فيه غنيمة ، ولضعفهم قوة ولذنوبهـــم مغفــــرة ·

يسرت يا رب للناس هذه الأخوة ، لتكون لذنوبهم كفارة ، وعند ربهم شفاعة ، وفي جنة الخلد منزلة ، ومن النار حجابا ·

يسرتها لهم وبينت لهم سبل الوصول اليها في دقة ووضوح في كتابك الكريم وعلى لسان نبيك الطاهر الأمين ، فاستحق كرمـــك شكرنا وعبوديتنا وتسبيحنا وصلاتنا ، واستحق رسولك الكريـــم صلاتنا وسلامنا ، ووجب علينا أن نسعى الى هذه الأخوة القدسيـة ونسلك اليها سبلها والا كنا لشرعك جاحدين ولأنفسنا ظالمين ·

من المتعارف عليه أن الناس قد فطروا على محبة أشباههم الذين تقترب ميولهم من ميولهم ، وطباعهم من طباعهم · فكل انسان يأنس الى شكله ، كما ان كل طير يطير مع جنسه ·

وقد تبين بالاختبار والتجربة أن الناس لا تقوم بينهـم الصحبة ولا تنمو الألفة الا لوجود شبه في الطباع والعادات · فان وجدت صحبة ولم يوجد الى جانبها تشابه ، لم تلبث عرى هذه الأخـــوة والمحبة أن تنفك ، ولم يلبث الصاحبان أن ينفصلا · وما أحكم قول الشاعـــر :

وقائـل كيـف تفارقتمـا   فقلت قـولا فيـه انصـاف
لم يك مـن شكـلي ففارقتـه   والنـاس أشكـال وآلاف

واذا كان العرج يجمع بين الطائرين على اختلاف في الفصيلة – وان ذلك في عالم الطير لكثير – فكيف لا تجمع وحدة الفكر والشعور والغاية والوسيلة والمقياس بين المؤمنين ؟ !

ألسنا نفكر تفكيرا واحدا ، ونشعر شعورا واحدا ، ونعمل لغاية واحدة ؛ ونسلك لها سبلا واحدة ، ونقيس أمورنا بمقياس واحد ؟ !

ألسنا الذين نقول نفس الكلام اذا التقينا ، أو تصافحنا ، أو أكلنا ، أو شربنا ، أو نمنا ، أو استيقظنا ؟ !

ألسنا الذين جمعتنا بيعة واحدة لنبي واحد ، لرب واحد ، على كتاب واحد ، وعلى سنة واحدة ؟!

ألسنا الذين تنادي امرأة واحدة منا في حصن من حصون الروم : « وا معتصماه » فنسعى جيوشا لانقاذها ، ونسخر الممالك لاستخلاصها ؟ ! ألسنا الذين نتألم جميعا لأي مكروه يصيب أي مسلم فنسعى اليه ، ولم يسبق أن جمعنا به مجلس أو لم نشاركه من قبل في حياة ؟ !

ألسنا الذين يقول ديننا : اذا أسرت امرأة في الغرب كان على أهل المشرق أن ينفذوا اليها الجيوش لانقاذها ؟ !

بلى والله ! ان كل هذا قائم وموجود ، فمن أولى بالأخوة منا وأجدر بها ؟ !

للمؤمنين صفات واحدة ؛ وميول واحدة ، وعقيدة واحدة ، ولذا كانت الأخوة نتيجة طبيعية لايمانهم ، وسمة بارزة في دعوتهم ·

فاذا طمعتم في هذه المنزلة المقدسة – منزلة الأخوة في الله – فحكموا القرآن الكريم في كل أمر من أموركم · واتخذوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم دستورا لحياتكم ، وارجعوا الى هدي الكتاب المبين في كل قضية من قضاياكم ، وستجدون قلوبكم بعد

ذلك – ان شاء الله – عامرة بالأخوة ، مطمئنة بها ·· ولا يجد العبد صريح الايمان حتى يحب لله ويبغض لله ·

هذه هي الوسيلة الأولى · ليكن كل واحد منكم قرآنا يمشي على الأرض ؛ صفحاته الأعمال ، وكلماته نبضات الفؤاد ، وعندها ستجدون أنفسكم أجساما كثيرة تعيش بروح واحدة فتكون عملاقا تهابه الأقزام ·

وأما الوسيلة الثانية فقد بينها نبينا الحبيب في حديثه الشريف: «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا · ألا أدلكم على شيء اذا فعلتموه تحاببتم ؟ افشوا السلام بينكم » (I) ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يطالبكم بافشاء السلام وهو النطق بلفظه فقط · فليس السلام تميمة ولا عصا سحرية تمس بها القلوب المظلمة بدخان البغضاء ، فاذا هي بيضاء مشرقة بنور المحبة والاخاء · وانما المقصود منه تحقيق ثلاثة معان جليلة :

– فانت اذا اقبلت على أخيك مسلما تعلوك البشاشة ويفيض وجهك بالغبطة ، وصافحته بحرارة وقوة ، وغمرته بجو من الحنان والعطف ، ازلت كل عقبة يضعها الشيطان الأثيم بينكما ، وربطت على قلبيكما برباط من الود والألفة ·

أي جو أجمل من هذا وأعبق عطرا ! وأي قوة من التأثير تملك مثل ما تملك هذه القوة ! انه فيض من فيض القلوب ، وذوب من ذوب النفوس · وانه الماء الطهور الذي كلما ازددت منه شربا ازددت له طلبا ·

(السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) هي رسول المحبة بين المسلمين فلا تلفظوها ميتة لا حياة فيها ، ولا تطلقوها باردة لا دفء في أصولها · ولكن قولوها بشوق وحرارة فأنتم تسلمون على ملائكة الله ، وتستنزلون بها الرحمة البركة من رب السماء ·· انه لقول

(I) مسلم من حديث أبي هريرة – وقد تقدم – ·

عظيم فلا تستهينوا به ولا تحقروه ‥ هذا هو المعنى الأول في سلامك على أخيك ٠ وأما المعنى الثاني فهو القاؤك السلم اليه عند أول لقاء ٠ فقد طمأنته الى أن بقاءك معه وبقاءه معك لن يكون فيهما الا ما يرضي الله ، وقد أفهمته أنك ، لن تجلب له أذى ، ولن تسبب له ضررا ٠ فقد ألقيت اليه السلم أول ما ألقيت ، فلا غش ، ولا كذب ، ولا فسوق ، ولا عدوان ، ولا لمز ، ولا همز ، ولا ظن سوء ، ولا سخرية، ولا أي شيء مما يؤذيه لأنك قلت : « السلام عليكم » ٠ ولو أتيت شيئا مما سبق أو مما يدور في فلكه لكنت كاذبا في قولك و « **إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ** » ٠ (2)

هذا هو المعنى الثاني ٠ أما المعنى الثالث فهو أنك لا تمنع عنه اذاك فحسب وانما ستجلب له خيرا كثيرا ، وبركات كريمات من عند رب السماء ، ألست تقول له : « ورحمة الله وبركاته ، أي تكون قد ضمنت له الا تحدثه الا في خير ، وألا تحدث عن الناس الا بخير ، ولا تفعل أثناء وجودك معه الا ما يتسم بسمات الخير ٠

لقد أتيته برحمة من عند الله وبركات من بركات السماء ، ومحمد العظيم نبي الله يقول عن نفسه : « انما أنا رحمة مهداة » (3) ٠ والقرآن الكريم هو مصدر كل رحمة وبركة ٠ ولن تفي بوعدك الذي وعدت الا اذا اهتديت بهدي الرسول الكريم وتأدبت بآداب القرآن الحكيم و « **إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** » (4) ٠ ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عظيما في قوله « افشوا السلام بينكم » ؟ بلى والله ، وصدق الله عز وجل اذ يقول : « **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** » ٠ (5)

---

(2) النحل : 105 ٠
(3) « أنا محمد ٠٠٠ ونبي الرحمة » مسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد بن حنبل ٠
(4) الاسراء : 9 ٠
(5) النجم : 4 ٠

هذان الأمران العظيمان ، الايمان ، وافشاء السلام ، هما الخطان الموصلان الى الأخوة في الله ٠ فاحذروا أن يفوتكم القطار، فان رحلته الى الجنة ، الى نعيم الأبد ،، مع الأنبياء والصديقين والشهداء ٠ فلا تحرمنا يا ربنا من مجلسهم ، ومتعنا بهم ، وأكرمنا بالحشر في زمرتهم ، انك كريم واسع المغفرة ٠

☆ ☆ ☆

مقياس الأخوة في الله

أظنك قد ادركت ان الاخوة فى الله نعمة قدسية تلازم الايمان الصادق ، وأن للاخوة المتحابين في الله منزلة يغبطهم عليها الأنبياء والشهداء ‥

فلا يفوتك أنك مقدم على أمر خطير جدا لا تلتزم به في دنياك فحسب وانما ستحاسب عنه يوم القيامة ، فان الله يسأل عن صحبة ساعة ، ومن أحب قوما حشره الله في زمرتهم ، ولو أن عبدين تحابا في الله واحد في الشرق وآخر في الغرب لجمع الله بينهما يوم القيامة ٠

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» ٠ (6)

وما دام الأمر على هذه الخطورة والدقة فما هو المقياس الذي ينبغي علينا أن نقيس به حبنا لله ولرسوله وللمؤمنين ٠ وما هو الميزان الذي تليق دقته بخطر هذا الانتقاء ؟

1 ــ لا تصحب الفاسق فانه سيسقيك معه مرارة البعد عن الله : ان من لا يخاف الله لا تؤمن غائلته ، ولا يوثق بصداقته ، بل يتغير بتغير الأغراض ، فالله سبحانه وتعالى يقول : « **وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ** » (7) ، « **فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا** »

---

(6) رواه الحاكم وقال صحيح ان شاء الله ٠
(7) الكهف : 28 ٠

مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ » (8) ، « فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » ٠ (9)

2 – عليك باخوان الصدق فان الصادق مع الله لا يكذب :

قال الله تعالى : « وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ » (10) ولهذا كثرت توصية السلف باتقان انتقاء الأخ الصاحب ، لتصاب الذخيرة الحقة ، والروح الحقة ، فكان من وصايا الحسن البصري سيد التابعين : « ان لك من خليلك نصيبا ، وأن لك نصيبا من ذكر من أحببت ، فتنقوا الاخوان والأصحاب والمجالس » ثم زادوا وذهبوا أبعد ، فعددوا صفات اخوان الصدق ٠ فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : « لولا أن أسير في سبيل الله ، أو أضع جبيني لله في التراب ، أو أجالس قوما يلتقطون طيب القول كما يلتقط طيب الثمر ، لأحببت أن أكون لحقت بالله » ٠

3 – فر من الأحمق وسيء الخلق فرارك من المجذوم :

فالأحمق قد يضرك وهو يريد نفعك ؛ روي أن رجلا صاحب دبا ثم خرج معه في سفر ، وبينما هما في بعض الطريق أراد الرجل أن يقيل في ظل شجرة فقال لصاحبه : « أحرسني ، حتى لا يمسني مكروه » ، وبينما هو نائم اذ حطت ذبابة على جبينه ٠ وأراد الدب أن يتقن فن حراسة صاحبه فرفع حجرا وهوى بها على رأسه فقتله٠

ونعني بالعاقل الذي يفهم الأمور على ما هي عليه ٠ وقد ورد في الأثر : « البَذَاء لؤم ، وصحبة الأحمق شؤم » ٠ وقال المنصور للمسيب بن زهير : « ما مادة العقل ؟ » فقال : « مجالسة العقلاء» ٠

هذا الأحمق ، أما سيء الخلق فصحبته معدية لأن العقل وحده غير كاف ما لم يزينه خلق كريم ٠ قال صاحب الاحياء : « رب عاقل يدرك الأشياء على ما هي عليه ، ولكن اذا غلبه غضب أو شهوة ،

(8) طـه : 16 ٠
(9) النجم : 19 ٠
(10) لقمان : 15 ٠

أو بخل أو جبن ، أطاع هواه ، وخالف ما هو المعلوم عنده لعجزه عن قهر صفاته ، وتقويم أخلاقه ٠ فلا خير في صحبته » ٠

فمحمود الأخلاق هو الذي يكون مرضي الفعال ، مؤاثرا للخير آمرا به ، كارها للشر ناهيا عنه ٠ ومودة الشرير تكسب العداء وتفسد الأخلاق ٠ ولا خير في مودة تجلب عداوة وتورث مذمة وملامة ٠ قال بعض البلغاء : « من خير الاختيار صحبة الأخيار ومن شر الاختيار صحبة الأشرار » ٠

قال عبد الله بن المعتز : « اخوان الشر كشجر النارنج يحرق بعضه بعضا » ٠

4 – عليك بصاحب الدين العارف بالشرع فانه حصن لك من كل بدعة :

ان في صحبة المبتدع خطر سراية البدعة وتعدي شؤمها اليه٠ فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة ، فكيف تؤثر صحبته ! وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الحث على طلب التدين في الصديق ، فيما رواه سعيد بن المسيب (11) قال : « عليك باخوان الصدق تعش في أكنافهم ، فانهم زينة في الرخاء ، وعدة في البلاء ٠ وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك ما يغلبك منه ٠ واعتزل عدوك ، واحذر صديقك الا الأمين من القوم ، ولا أمين الا من خشي الله ، فلا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ٠ ولا تطلعه على سرك ، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى » ٠

قال الامام علي رضي الله عنه : « من سعادة الرجل خمس : أن تكون زوجته موافقة ، وأولاده أبرارا ، واخوانه أتقياء ، وجيرانه صالحين ، ورزقه في بلده » ٠

آخ ذا الدين الواقف بصاحبه على الخيرات ، فان تارك الدين عدو لنفسه فكيف يرجى منه مودة غيره ٠ قال بعض الحكماء :

(11) ينبغي قراءة ابن المسيب – بكسر الياء – اتقاء دعائه ، اذ قال لما فتحها أهل العراق : « سيبوني سيبهم الله » ٠

« اصطف من الاخوان ذا الدين والحسب والرأي والأدب فانه ردء (أي عون وناصر) لك عند حاجتك ، ويد عند نائبتك ، وأنس عند وحشتك ، وزين عند عافيتك » .

وقال حسان بن ثابت – رضي الله عنه – شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أخلاء الرخاء هم كثير ... ولكن في البلاء هم قليل
فلا يغررك خلة من تؤاخي ... فما لك عند نائبة خليل
وكل أخ يقول انا وفيّ ... ولكن ليس يفعل ما يقول
سوى خل له حسب ودين ... فذاك لما يقول هو الفعول

لقد قالها حسان بن ثابت رضي الله عنه وهو يعيش في مجتمع أحسن ما يكون فيه الالتزام بشرع الله ، فكيف بنا اليوم وقد صار الاسلام – بشموله وتكامله وتوازنه – غائب عن الساحة ، غريب في أوطانه ، منكور بين أهله ، معزول عن توجيه الحياة العامة .. وفرض على الاسلام أن يتقوقع في العلاقة بين المرء وربه . ولقد كانت عائشة رضي الله عنها تنشد بيت لبيد بن ربيعة :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت في خلف كجلد الأجرب !

وتقول : « رحم الله لبيدا ، كيف لو عاش الى زماننا هذا ؟ » وكان ابن أختها عروة بن الزبير، وقد عاش بعدها زمنا ، ينشد البيت ويقول : « رحم الله لبيدا وعائشة ، كيف لو عاشا الى زماننا هذا ؟ ! » .

5 – لا تمانع اذا ما دعيت الى صحبة ترضاها فان ذلك أوكد لحال المؤاخاة :

اذا كان هناك تجاوب وتقارب بين روح المؤمن وأخيه ولم تكن من طرف واحد فقط فلا بد من مصاحبة بينهما تمد أسباب المصافات وتوثق عرى المؤاخاة وهذا لا يكون الا بعد مراعاة الشروط السابقة. وأما اذا كان الميل من طرف واحد فحسب فانها مودة ممتنعة متعبة .

وصفات المسلم الصالح الأمين لا توجد في المرء دفعة واحدة ، وانما تتكامل على مر الأيام ، فلا تكلف الناس فوق طاقتهم ، وان كلفتهم فاعنهم . هذه الصفات هي المثل الأعلى الذي ينشده الاخوة في الله ، فلا تنشدها كثيرا ، وادخل فيها برفق والا غلبتك وخلفتك وراءها لا تجد أخا ولا معينا . وحسبك أن موسى عليه السلام جعل هذه الشروط ثلاثة فقط اذ يقول الله سبحانه وتعالى على لسانه : **« وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا »** . (12)

لقد حدد موسى عليه السلام الغاية من الأخوة التي نشدها ، فهو يريد من أخيه هارون أن يكون سندا له يشد عضده ويعينه على نوائب الحياة ، وهو يريد شريكا في أمره يقاسمه بؤسه ونعيه ويتبادل واياه الرأي حياله . ثم هو يريده أخا لا يقتصر في علاقته به على التعاون على الحياة فحسب ، وانما يريده أخا يعينه على ذكر الله وتسبيحه حتى لا يقول يوم القيامة : **« يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا »** . (13)

هذه الصفات الثلاث : التعاون على الحياة ، والشركة في الأمر، والاعانة على ذكر الله هي المقياس الذي ينبغي أن نعرض عليه من نزمع مؤاخاتهم في الله .

وقد يضطر المسلم – حسب ما يمليه عليه فقه الدعوة – أن يتغافل عن كثير من الشروط وهنا لا بد من ضابط حتى لا تسيب الأمور وتفلت من زمامها . وأقل شرط في هذه الحالة هو أن يكون عدلا . قال الشافعي رحمه الله : « ما من أحد من المسلمين يطيع الله ولا يعصيه ، ولا يعصيه ولا يطيعه (أي ولا يوجد من لا يعصيه ولا يطيعه في آن واحد) ؛ فمن كانت طاعته أغلب من معاصيه فهو

---

(12) طه : 29 .
(13) الفرقان : 29 .

عدل » واذا جعل مثل هذا عدلا في حق الله ، فبأن تراه عدلا في حق نفسك ومقتضى أخوتك أولى ٠

فاذا وجدت هذه الخصال مستكملة في انسان واحد وجب عليك اخاؤه ، وتعين اصطفاؤه ويجب الميل اليه والثقة به بقدر ما هي متوفرة فيه ٠ فاذا لم تجدها مستكملة في شخص واحد فعليك باستكمالها من خلال توفرها في أكثر من خل ، لأن كل واحد سيسد عنك ثغرة في مؤازرتك وأنت في طريقك المعبد بالأشواك الى الله ٠

قال بعض الحكماء : « الرجال كالشجر شرابه واحد وثمره مختلف » ٠

وقال بعض الحكماء : « طلب الانصاف من قلة الانصاف » ٠ وليس ينقض هذا القول ما وصفناه من اختباره واختبار الخصال الخمس فيه لأن ما نقص معفو عنه ٠ ولا ينبغي أن تنفرك من أخيك فترة عابرة ، ولا أن تسيء الظن في كبوة تكون منه ما لم تتحقق من تغيره وانحرافه ٠ واصرف ذلك الى فترات النفوس واستراحات الخواطر فان الانسان قد يتغير عن مراعاة نفسه التي هي أخص النفوس به ولا يكون ذلك من عداوة لها ولا ملل منها ٠ وقيل في منثور الحكم : « لا يفسدنك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له » ٠

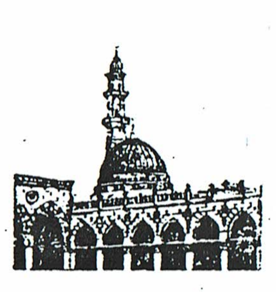
وقال الحسن بن وهب : « من حقوق المودة أخذ عفو الاخوان ، والاغضاء عن تقصير ـ ان كان ـ » ٠ وقد روي عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى : « فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ » (14) ٠ قال : « الرضا بغير عتاب » ٠

ولا تنس كذلك أن هذا الأخ الذي تبحث عنه ليعينك انما يبحث عنك لتعينه والا فما حاجته اليك ٠ فمثل الأخوين اذا التقيا كمثل اليدين تغسل احداهما الأخرى ٠ فلو كانت احداهما نظيفة تماما لما كان للاخرى فضل عليها ، ففي كل منهما شوائب تزول بالدلك

(14) الحجر : 85 ٠

المشترك ٠٠ كذلك الأخوان في الله ، في كل منهما عيوب تزول بالتذكير والتنبيه والتناصح والتواصي بالحق ، فلا تشتط في مطلبك، ولتكن محبتك لأخيك بقدر ما فيه من الخصال التي يحبها الله ويحبها رسوله ٠

وباختصار فان : « حد الصداقة الذي يدور على طرفي محدوده هو أن يكون المرء يسوءه ما ساء الآخر ، ويسره ما سره ٠ فما سفل عن هذا فليس صديقا ٠ ومن حمل هذه الصفة فهو صديق فيما نصح فيه ٠ وكل ناصح صديق ، وليس كل صديق ناصحا » ٠



مراتب الأخـــوة وأنواعهـا

هناك نوعان للأخوة أولهما مكتسب بالميل العفوي وثانيهمـا مكتسب بالاختيار القصدي ، وفي ائتلاف القلوب أمور غامضـة لا يحصرها تقدير ، ولذلك قال الله تعالى : « لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ » ٠ (I)

I ـ الأخوة المكتسبة بالميل العفوي :

قد تستحكم المودة بين شخصين من غير ملاحـة في صـورة ، ولا حسن في خلق أو خلق ، ولكن لمناسبة باطنـة توجـب الألفـة والموافقة ، فان شبه الشيء ينجذب اليه بالطبع ، والأشباه الباطنة خفية ٠ ولها أسباب دقيقة ليس في قوة البشر الاطلاع عليها عـلى عكس ما يدعي المنجمون ، ويكفينا في التصديق بذلك التجربـة والمشاهدة . ويمكن أن نجمل هذه الأسباب فيما يلي مقرونة بدرجات الأخـوة في اللـه :

أ ـ التجانس الذي يحدث الائتلاف : والمقصود بالتجانس هـو أن يكون الجنس واحدا ، ولا يكون التجـانس الا بالتشاكـل أي أن يكون العنصر المشترك بين المتآلفين هو الشكل ، فاذا قوي التجانس قوي الائتلاف به ، وان ضعف كان ضعيفا ٠ وقد روى يحيى بـن سعيد عن عمر عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه

(I) الأنفال : 63 ٠

وسلم أنه قال : « الأرواح (2) جنود مجندة (3) فما تعارف (4) منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » فالتناكر نتيجة التباين ، والائتلاف نتيجة التجانس الذي عبر عنه بالتعارف ·

قيل في منثور الحكم : « الأضداد لا تتفق والأشكال لا تفترق» ·
وقال بعض الحكماء : « بحسن تشاكل الاخوان يلبث (5) التواصل» ·
وقال صلى الله عليه وسلم : « ان أرواح المؤمنين ليلتقيان على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط » · (6)

روي أن امرأة بمكة كانت تضحك النساء ، وكانت بالمدينة أخرى، فنزلت المكية على المدنية ، فدخلت على عائشة رضي الله عنها فأضحكتها · فقالت : أين نزلت ؟ فذكرت لها صاحبتها · فقالت صدق الله ورسوله ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الأرواح جنود مجندة » الحديث ·

وورد في الخبر أيضا أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن مؤمنا دخل الى مجلس فيه مائة منافق ومؤمن واحد لجاء حتى يجلس اليه ، ولو أن منافقا دخل الى مجلس فيه مائة مؤمن ومنافق واحد لجاء حتى يجلس اليه » · (7)

وفي هذا المعنى أنشد الشاعر :

فقلت : أخي ، قالوا : أخ من قرابة
فقلت لهم : ان الشكول أقارب
نسيبي في رأيي وعزمي وهمتي
وان فرقتنا في الأصول المناسب

(2) الأرواح جنود ··· « رواه البخاري بهذا السند ، ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ·
(3) جنود مجندة : جموع مجمعة ، وأنواع مختلفة ·
(4) فما تعارف منها : أي توافق في الصفات ، وتناسب في الأخلاق ·
(5) يلبث : يبقى ·
(6) في تخريج الحافظ العراقي : أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ تلتقي · وقال أحدهم : وفيه ابن لهيعة عن دراج ·
(7) رواه البيهقي في شعب الايمان موقوفا على ابن مسعود ·

ولبعضهم :

فلا تحتقر نفسي وأنت خليلها
فكل امرىء يصبو الى من يشاكل

ب – الاتفاق الذي يحدث المواصلة : فالمواصلة هي المرتبة الثانية من مراتب الاخاء · أما الاتفاق فهو ناتج عن التجانس الذي تطور قليلا وصار واسطة الى التقارب الذي سميناه اتفاقا ·

قال الشاعر في هذا المعنى :

الناس ان وافقتهم عَذَبوا — أولاً فان جناهم مُرّ
كم من رياض لا أنيس بها — تركتْ لأن طريقها وعرُ

ت – الانبساط الذي يحدث المؤانسة : فالمؤانسة هي المرتبة الثالثة من مراتب الأخوة ومعناها الأنس بمن شعر بانبساط نحوه ، والانبساط هو ترك الانزعاج تماما ·

ث – خلوص النية الذي يحدث المصافاة : فالمصافاة هي المرتبة الرابعة من مراتب الاخاء ومعناها ترك كل مكدر ومعكر صفو هذه المؤاخاة مع من تأكد نقاؤه وخلصت النية تجاهه ·

ج – الثقة التي تحدث المودة : فالمودة هي المرتبة الخامسة من مراتب الاخاء ، وهي أدنى مراتب الكمال في أحوال الاخاء ، وما قبلها أسباب تعود اليها · فاذا اقترنت بها المناصرة فهي صداقة تعدت كل حدود المشاعر المصاحبة للرؤية من بعيد ، ثم يحدث عن هذه المودة رتبة سادسة ·

ح – الاستحسان الذي يحدث المحبة : والاستحسان هنا على ضربين ؛ ضرب يسلكه أهل طاعة الله فتكون محبتهم في الله ، وضرب يسلكه أهل الدنيا فتكون محبتهم دنيوية تنقضي بانقضاء المصالح ما لم تكن دنيوية صخروها في طاعة الله ·

خ – استحسان فضائل النفس الذي يحدث الاعظام : فالضرب الأول من ضربي الاستحسان هو استحسان فضائل النفس ، وهذا

هو المعتمد عند أهل الطاعة حتى تكون محبتهم في الله وعلى شريعة الله . وهذا النوع هو الذي تتولد عنه المرتبة السابعة من مراتب الاخاء وهي مرتبة الاعظام . وأما الضرب الثاني فهو الاستحسان للصورة والحركات وهو الذي يعتمده أهل المعاصي وطلاب الدنيا . وهذا النوع هو الذي تتولد عنه المرتبة السابعة الموازية وهي العشق وسببها الطمع . والعشق لغة لا يقال الا للمنكوح وهو يندرج في المحبة في الله بشرط أن يكون بين الزوج وزوجته فقط اذا أخلصا نيتهما لله . ومن الخطأ الفادح أن يستعمل مصطلح العشق في مراتب محبة الله جريا وراء جماعة من الضلال ابتعدت عن منهج الله وتاهت في سبل متداخلة وسمتها طرقا صوفية وادعت أن « من لم يتبع طريقه لن يصل الى حقيقة» . فاحذروا أيها المسلمون أن تقولوا على الله ما لا تعلمون ، فتنقلبوا بعد هداية خاسرين . فالعشق استحسان للصور يثيرد طمع في القرب البدني وهذا ليس من الأخوة ولا من المحبة في الله في شيء .

☆ ☆ ☆

2 — الأخوة المكتسبة بالاختيار القصدي :

والفرق بين هذه الأخوة والأولى هو أن هذه مقيدة بالقصد ويمكن أن تكون منك وحدك دون الذي تريد مؤاخاته . والشرح العملي لها هو أن تعيش مع شخص معين فترة من الزمن دون أن يكون لديك ميل أخوي نحوه ، ثم تتنبه الى انه مسلم ملتزم شرع الله وحدوده حائز على شروط الأخوة فتشعر عند ذاك برغبة في التحدث اليه ومؤاخاته والاستعانة به وأنت في طريقك الى الله . والداعي اليها من وجهين :

أ — الرغبة : وهي — كما ذكرنا — أن يظهر من الانسان فضائل تبعث على اخائه . وهذه الحالة أقوى من التي بعدها لظهور الصفات المطلوبة من غير تكلف لطلبها وانما يمكن أن يسقط طالبها في شراك المتصنعين ، فليس كل من أظهر الخير كان من أهله ولا كل من تخلق بالحسنى كانت من طبعه .

ومن هذا الباب قال بعض الدعاة المشاهير : « تعرف الى من تلقاه من اخوانك ولو لم يطلب اليك ذلك » .

وتأمل في هذا المثال ؛ كيف أن الصحابة رضوان الله عليهم فهموا الأخوة فهما شاملا وطبقوها تطبيقا دقيقا . فهذا ابن مسعود رضي الله عنه يتمنى أنه صاحب المقداد لأنه رأى منه من الدين قوة ومتانة . روى أبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لقد شهدت من المقداد مشهدا لأن أكون أنا صاحبه أحب الي مما في الأرض من شيء ، وكان رجلا فارسا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غضب احمرت وجنتاه، فأتاه المقداد على تلك الحال فقال : أبشر يا رسول الله ، فو الله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى عليه السلام « فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ » (11)،ولكن والذي بعثك بالحق لنكونن من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك أو يفتح الله عز وجل لك .

ب — الحاجة : ومثالها هو أن يكون الانسان في سفر وليس له أحد من الخلق يؤانسه فانه يشعر بالوحشة عند ذلك فيحتاج الى اصطفاء من يأنس بمؤاخاته ويثق بنصرته وموالاته .

قالت الحكماء : « من لم يرغب في ثلاث بلي بست : من لم يرغب في الاخوان بلي بالعداوة والخذلان . ومن لم يرغب في السلامة بلي بالشدائد والامتهان . ومن لم يرغب في المعروف بلي بالندامة والخسران » . وقالوا : « رب صديق أود من شقيق » .

---

(11) المائدة : 24 .

قيل لمعاوية : أيما أحب اليك ؟ قال : « صديق يحببني الى الناس » . وقال ابن المعتز : « القريب بعداوته بعيد ، والبعيد بمودته قريب » ، ولهذا قال الشاعر :

لمودة ممن يحبك مخلصا   خير من الرحم القريب الكاشح

وقال آخر :

يخونك ذو القربى مرارا وربما   وفّى لك عند العهد من لا تناسبه

لقد نظرت يا أخي وتأملت فوجدت أن الخائض في موضوع الأخوة والمحبة في الله يحتاج الى الغوص العميق ، والنفس الطويل ، ورجعت الى نفسي فوجدتني قاصر الباع مهيض الجناح لا أطيق الابحار في هذا الخضم المريع ، لكن لطف الله بي كان عظيما اذ أنار عقلي بفكرة أسعفتني وزال عني كل غم ، فرأيت أن أستعين بأرباب القلوب الشفافة ، ممن سبروا غور بحور المحبة وعثروا على ألوان كثيرة من أنواع اللؤلؤ والمرجان من الاخوان ، عسى أن يكونوا بالنسبة لي قوارب للنجاة .

فهذا أبو علي محمد بن حزم الظاهري (12) في الجانب الآخر من شخصيته الفقهية والعلمية نجد جانب النفس المحبة التي تربط بين العاطفة والعفاف على نحو رائع . فهو رجل كامل الرجولة مؤمن بالله لا يطلق هوى النفس ، ولا يجيب رغبة الحس الا في حدود الحلال ، مستعليا على الحرام ، ومتساميا بالنفس الانسانية الى طلبة ما أحل الله . قال وهو الجريء الحر : « يعلم الله اني بريء الساحة سليم الأديم صحيح البشرة نقي الحجزة . واني اقسم بالله أجل الأقسام اني ما حللت مئزري على حرام قط ، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزاني منذ عقلت الى يومي هذا » ، وهو يفرق بين

(12) هو صاحب المذهب الفقهي المعروف بالمذهب « الظاهري » ، عاش في الأندلس وشن حملة قوية ضد العلماء الذين حاولوا ايجاد فتاوى تبرر كل انحراف وقع في المجتمع الأندلسي ولو بلي أعناق الآيات .

الحب والاشتهاء ، والحب عنده تجانس نفسي يجعل المحب يأنس بحبيبه ويسكن اليه . يقول : « صح عندي أن الحب استحسان روحي وامتزاج نفسي » ، ويقول : « انك لا تجد اثنين يتحابان الا وبينهما مشاكلة واتفاق في الصفات الطبيعية ، وكلما كثرت الأشباه زادت المجانسة وتأكدت المودة » .

ويقول : « الحسن هو شيء ليس له في اللغة اسم يعبر عنه ولكنه محسوس في النفوس باتفاق كل من رآه ، وهو برد مكسى به الوجه واشراق يستميل القلب نحوه ، فتجتمع الآراء على استحسانه وان لم تكن هناك صفات جميلة » . (13)

وقال في كتابه « مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق » ما يلي : « درج (14) المحبة خمسة : أولها الاستحسان : وهو أن يتمثل الناظر صورة المنظور اليه حسنة ، أو يستحسن أخلاقه وهذا يدخل في باب التصادق . ثم الاعجاب : وهو رغبة الناظر في المنظور اليه في قربه . ثم الألفة : وهي الوحشة اليه اذا غاب . ثم الكلف: وهو غلبة شغل البال به . ثم الشغف : وهو امتناع النوم والأكل والشرب الا اليسير من ذلك . وربما أدى ذلك الى المرض أو الى التوسوس أو الى الموت . وليس وراء هذا منزلة في تناهي المحبة أصلا » ، وهو هنا يتكلم عن المحبة عموما وليس عن المحبة في الله فحسب .

ويضرب أمثلة عملية على ذلك فيقول في موضع آخر : « وقد رأينا من مات أسفا على ولده . (..) وبلغنا عمن شهق من خوف الله تعالى ومحبته فمات » .

(13) نوابغ الفكر الاسلامي : أنور الجندي .
(14) درج : درجات .

أنـــواع الاخـــوان

اختلفت مذاهب الناس في اتخاذ الاخوان ·

فمنهم من يرى أن الاستكثار منهم أولى ليكونوا أقوى منعة ويدا وأوفر تحببا وتوددا وأكثر تعاونا وتفقدا · قيل لبعض الحكماء : ما العيش ؟ قال : « اقبال الزمان وعز السلطان وكثرة الاخوان » · وقيل : « حيلة المرء كثرة اخوانه » ·

ومنهم من يرى أن الاقلال منهم أولى لأنه أخف أثقالا وكلفا وأقل تنازعا وخلفا ، ويقصدون بهذا أن الاستكثار من الاخوان يجلب المشاكل ويتسبب في التنازع ويكلف المرء تحمل المسئوليات · قال الاسكندر : « المستكثر من الاخوان من غير اختيار كالمستوقر من الحجارة ، والمقل من الاخوان المتخير لهم كالذي يتخير الجوهر » · وقال عمرو بن العاص : « من كثر اخوانه كثر غرماؤه» · وقال ابراهيم بن العباس : « مثل الاخوان كالنار ، قليلها متاع ، وكثيرها بوار » · ولقد أحسن ابن الرومي في هذا المعنى ونبه على العلة حيث يقول :

عدوك من صديقك مستفاد	فلا تستكثرنَّ من الصحاب
فان الداء أكثر ما تراه	يكون من الطعام أو الشراب
ودع عنك الكثير فكم كثير	يعاف وكم قليل مستطاب
فما اللُّجج المِلاحُ بمُرويات	وتلقى الريَّ في النطف العِذاب

وأحسن من أصاب في هذا الباب العلامة ابن حزم حيث يقول :

« ليس من الفضائل أشبه بالرذائل ، من الاستكثار من الاخوان والأصدقاء ، فان ذلك فضيلة تامة متركبة ، لأنهم لا يكتسبون الا بالحلم والجود ، والصبر والوفاء ، والاستضلاع والمشاركة ، والعفة وحسن الدفاع وتعلم العلم ، وبكل حالة محمودة ولسنا نعني الأتباع أيام الخدمة ، لانحرافهم عند انحراف الدنيا ، والمصادقين لبعض الأطماع . ولا المتنادمين على الخمر ، والمجتمعين على المعاصي والقبائح ونيل أعراض الناس والفضول ، وما لا فائدة فيه ، فليس هؤلاء أصدقاء ، لنيل بعضهم من بعض ، وانحرافهم عند فقد تلك الرذائل التي جمعتهم . وانما نعني اخوان الصفاء لغير معنى الا لله عز وجل . واذا حصلت عيوب الاستكثار ، منهم وما يلزمك من الحق لهم ، عند نكبة تعرض ، اما بموت أو بغرة أو فراق ، أو غدر من يغدر منهم كان السرور بهم ، لا يفي بالحزن الممض (1) من أجلهم » .

والى هذا المعنى ذهب بعض البلغاء في قوله : « ليكن غرضك في اتخاذ الاخوان واصطناع النصحاء : تكثير العدة (2) لا تكثير العدة (3) ، وتحصيل النفع لا تحصيل الجمع ، فواحد يحصل به المراد خير من الف تكثّر الأعداد » .

وقبل أن ندخل في تبيان أنواع الاخوان وجب علينا أن نضع بعض الأمور في نصابها :

1 — مراتب الناس مع الأعمال :

كما أن الأعمال — مأموراتها ومنهياتها — مراتب ، فالناس كذلك مراتب ، وأقصد بالناس هنا : أهل الاسلام ، ولهذا يخطىء بعض المتدينين أشد الخطأ حين يعامل الناس كل الناس على أنهم

(1) الممض : المؤلم .
(2) العدة — بضم العين — : الأهبة .
(3) العدة — بكسر العين — : المعدود .

في مرتبة واحدة ، دون تمييز بين العموم والخصوص ، وخصوص الخصوص ، ولا تفريق بين المبتدىء والمنتهي ، ولا بين الضعيف والقوي ، مع أن في الدين متسعا للجميع ، حسب مراتبهم واستعداداتهم ، ولهذا كان في العزيمة والرخصة ، وفيه العدل والفضل ، وفيه الفرض والنفل ، والالتزام والتطوع ، وقديما قالوا حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقال الله تعالى : « **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا : فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** » . (4)

وقد فسر الظالم لنفسه بأنه : المقصر في بعض الواجبات ، والمرتكب لبعض المحظورات .

وقد فسر المقتصد بأنه : المقتصر على فعل الواجبات وترك المحرمات .

وفسر السابق بالخيرات بأنه : الذي لا يكتفي بفعل الواجبات، بل يزيد عليها السنن والمستحبات ، ولا يقف عند ترك المحرمات ، بل يضيف اليها اتقاء الشبهات والمكروهات ، بل يدع بعض ما لا بأس به حذرا مما به بأس .

وهذه الأصناف الثلاثة جميعا — بما فيها الظالم لنفسه — داخلة في الأمة المصطفاة التي أورثها الله الكاتب بنص الآية الكريمة : « **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا** » .

ولهذا كان من الخطأ والخطل اخراج بعض الناس من الملة والأمة لمجرد أنهم عصاة ظلموا أنفسهم .

وكان من الخطل أيضا اسقاط هذه المراتب ، ومعاملة الناس على أنهم كلهم يجب أن يكونوا سابقين بالخيرات باذن الله .

ومن المتدينين المخلصين من يدفعه الحماس الدافق ، والحس المرهف ، فيسارع الى رمي بعض المسلمين بالفسوق عن الدين ،

(4) فاطر : 32 .

ويتخذ منه موقف الجفاء أو العداء لمجرد ارتكابهم لبعض صغائر الذنوب ، وربما بعض المشتبهات التي يختلف العلماء في حكمها ، وتتعارض فيها الأدلة ، ولا ترقى الى الحرام المقطوع به بحال .

لقد نسي هؤلاء المخلصون الطيبون أنه لا يجوز أن نسقط اعتبار الآخرين بمجرد المامهم ببعض صغائر الذنوب ، فان القرآن الكريم استثنى « اللمم » فلم يعده مسقطا لاحسان المحسنين ، كما أعلن أن اجتناب الكبائر مكفر للصغائر .

يقول تعالى : « وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ، الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ » . (5)

وفي معنى « اللمم » المستثنى في الآية الكريمة وجهان ذكرهما المفسرون ، ينبغي ألا نغفل عنهما ، لما فيهما من بيان سعة مغفرة الله تعالى ، المذكورة في الآية .

قال الحافظ ابن كثير فيتفسير الآية (6) :

« فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش، أي لا يتعاطون المحرمات الكبائر ، وان وقع منهم بعض الصغائر ، فانه يغفر لهم ، ويستر عليهم ، كما قال في الآية الأخرى : « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا » (7) وقال هاهنا : « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ » وهذا استثناء منقطع ، لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال .

ثم ذكر ابن كثير الحديث الذي رواه أحمد والشيخان عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن

(5) النجم : 31 — 32 .
(6) تفسير ابن كثير : 4/255 — 256 .
(7) النساء : 31 .

النبي صلى الله عليه وسلم : « ان الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا ، أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين : النظر ، وزنا اللسان : النطق ، والنفس تتمنى وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » .

وهكذا جاء عن ابن مسعود وأبي هريرة تفسير اللمم بنحو : النظرة ، والغمزة ، والقبلة ، والمباشرة ، ما لم يمس الختان الختان ، وهو الزنا .

والتفسير الآخر للمم مروي عن ابن عباس أيضا ، قال : هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب ، وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ان تغفر اللهم تغفر جما   وأي عبد لك ما ألما ؟ !

(نسبه ابن كثير الى ابن جرير والترمذي ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب ، وقال ابن كثير : في صحته مرفوعا نظر) . وعن أبي هريرة والحسن ونحوه .

ووجه هذا القول : أن اللمم والالمام ما يعمله الانسان بعض الأحيان ولا يتعمق فيه ، ولا يقيم عليه ، يقال : ألممت به اذا زرته وانصرفت عنه ، ويقال : ما فعلته الا لماما والماما ، أي الحين بعد الحين .

وهذا يدل على أن في دين الله متسعا لكل من لم تصبح الكبائر حظا ثابتا في حياته ، وأن مغفرة الله تسع كل الذنوب لمن تاب منها . (8)

2 ـ تقدير ظروف الناس وأعذارهم :

ومن الفقه المطلوب والمتمم لما ذكرناها : تقدير مستويات الناس وظروفهم وأعذارهم وضعف احتمالهم في مواجهة القوى الضاغطة عليهم .

(8) عن كتاب : « الصحوة الاسلامية بين الجحود والتطرف » للدكتور يوسف القرضاوي (بتصرف) .

فمن الخطأ أن نطالب عموم الناس أن يلحقوا بجوار سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، فيقوموا الى أئمة الجور ، وطواغيت الحكم ، فيأمروهم وينهوهم ويأخذوا على أيديهم ، ليظفروا بالشهادة في سبيل الله ، وهي أعلى وأغلى ما يتمناه مسلم لنفسه .

فهذه المنزلة فضيلة لا يقدر عليها الا أولو العزم وقليل ما هم ، وليست فريضة يطالب الناس بها ويحاسبون عليها .

وقد يكتفي بعض الناس بأن يقول كلمة الحق من بعيد ، وقد يلتزم الصمت لأنه لا يرى فائدة من الانكار باللسان بعد أن رأى شحا مطاعا وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة ، واعجاب كل ذي رأي برأيه ، ورأى أمرا لا يدان له به — كما جاء في حديث أبي ثعلبة الخشني — فعكف على خويصة نفسه ، وترك عنه العوام ، وقد يرى فائدة الانكار ، ولكنه يعجز عن تحمل نتائجه ، فيقتصر على التغيير بقلبه ، وذلك أضعف الايمان .

وقد يرى البعض أن التغيير انما يبدأ من القاعدة لا من القمة، وأن الاصلاح يجب أن يتجه الى الأفراد أولا ، فاذا صلحوا صلحت بهم ومعهم الجماعة ، وقد يرى آخر عكس ذلك .

ويدخل في هذه المعاني : أن من الجائز — بل من المطلوب — شرعا ، السكوت على المنكر ، مخافة وقوع منكر أكبر منه ، احتمالا لأهون الشرين ، وارتكابا لأخف الضررين ، كما تقرر ذلك القواعد الشرعية .

ومن الأدلة الخاصة لذلك ما ذكره القرآن الكريم عن نبي الله هارون ، أخي موسى وشريكه في الرسالة الى فرعون وقومه ، فقد ترك موسى أخاه هارون عليهما السلام ، خليفة في قومه ، وذهب لمناجاة ربه ، وكان ما كان من أمر السامري وعجله الذهبي الذي فتن به بني اسرائيل حتى عبدوه : « **وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ، قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ** » . (9)

(9) طه : 90 — 91 .

وسكت هارون عن هذا الانحراف الخطير ،وأي انحراف أكبر من الشرك وعبادة عجل لا يرجع اليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ، ولا يهديهم سبيلا ؟

ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا لما أحدثه قومه من بعده ، قائلا : بئسما خلفتموني من بعدي ، وألقى ألواح التوراة ، وأخذ برأس أخيه يجره اليه في حدة وغضب « **قَالَ : يَا هَارُونُ ، مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي** » (10) ، فماذا كان جواب هارون « **قَالَ : يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي** » . (11)

فهنا يعتبر هارون عليه السلام الحفاظ على وحدة الجماعة حتى يعود زعيمها الأول ، حجة له في السكوت على ضلال القوم ، حتى لا يقول قائل : انه تعجل القرار ، وفرق الجماعة ، ولم ينتظر عودة موسى .

ومن ذلك حديث عائشة في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال لها : « لولا أن قومك حديثو عهد بشرك ، لبنيت الكعبة على قواعد ابراهيم » أي : انه عليه الصلاة والسلام ترك فعل ما يرى أنه مطلوب خشية أن يثير فتنة — عند قوم لم يتمكن الاسلام من أنفسهم بعد — بسبب هدم الكعبة وبنائها من جديد .

ومن ذلك أمره صلى الله عليه وسلم بالصبر على جور الأئمة اذا لم تكن هناك قدرة على خلعهم واستبدال آخرين صالحين بهم، مخافة فتنة أكبر ، ومفسدة أعظم ، تراق فيها الدماء ، وتنتهك الحرمات ، وتذهب الأموال ، وينتزع الأمن والاستقرار ، دون أن يتحقق تغيير .

(10) طه : 93 .
(11) طه : 94 .

وهذا ما لم يصل الامر الى الكفر الصريح ، والخروج السافر عن الاسلام ، كما في حديث عبادة بن الصامت في الصحيحين « الا أن تروا كفرا بواحا اعندكم فيه من الله برهان » .

وكذلك الكفار : من بلغه دعوة النبي صلى الله عليه وسلم في دار الكفر ، وعلم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فآمن بما أنزل عليه ، ، واتقى الله ما استطاع ، كما فعل النجاشي وغيره ، ولم تمكنه الهجرة الى دار الاسلام ، ولا التزام جميع شرائع الاسلام ، لكونه ممنوعا من الهجرة وممنوعا من اظهار دينه ، وليس عنده من يعلمه جميع شرائع الاسلام : فهذا مؤمن من أهل الجنة ، كما كان مؤمن آل فرعون مع قوم فرعون ، وكما كانت امرأة فرعون ، بل وكما كان يوسف الصديق عليه السلام مع أهل مصر ، فانهم كانوا كفارا ، ولم يمكنه أن يفعل معهم كل ما يعرفه من دين الاسلام ، فانه دعاهم الى التوحيد والايمان فلم يجيبوه ، قال تعالى عن مؤمن آل فرعون : « **وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ : لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً** » (35) .

وكذلك النجاشي هو وان كان ملك النصارى ، فلم يطعه قومه في الدخول في الاسلام ، بل انما دخل معه نفر منهم ، ولهذا لما مات لم يكن هناك أحد يصلي عليه ، فصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، خرج بالمسلمين الى المصلى فصفهم صفوفا وصلى عليه ، وأخبرهم بموته يوم مات ، وقال : « ان أخا لكم صالحا من أهل الحبشة مات » .

وكثير من شرائع الاسلام أو أكثرها لم يكن دخل فيها لعجزه عن ذلك ، فلم يهاجر ، ولم يجاهد ، ولا حج البيت ، بل قد روي أنه لم يصل الصلوات الخمس ، ولا كان يصوم رمضان ، ولا يؤدي الزكاة الشرعية ، لأن ذلك كان يظهر عند قومه فينكرونه عليه وهو

(12) غافر : 34 .

لا يمكنه مخالفتهم ، ونحن نعلم قطعا أنه لم يكن يمكنه أن يحكم بينهم بحكم القرآن ، والله قد فرض على نبيه بالمدينة أنه اذا جاءه أهل الكتاب لم يحكم بينهم الا بما أنزل الله اليه ، وحذره أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله اليه .

وهذا مثل الحكم في الزنا للمحصن بحد الرجم ، وفي الديات بالعدل ، والتسوية في الدماء بين الشريف والوضيع ، النفس بالنفس والعين بالعين ، وغير ذلك ، والنجاشي ما كان يمكنه أن يحكم بحكم القرآن ، فان قومه لا يقرونه على ذلك ، وكثيرا ما يتولى الرجل بين المسلمين والتتار قاضيا بل واماما ، وفي نفسه أمور من العدل ولا يكلف الله نفسا الا وسعها .

وعمر بن عبد العزيز عودي وأوذي على بعض ما أقامه من العدل ، وقيل : انه سم على ذلك . فالنجاشي وأمثاله سعداء في الجنة ، وان كانوا لم يلتزموا من شرائع الاسلام ما لا يقدرون على التزامه ، بل كانوا يحكمون بالأحكام التي يمكنهم الحكم بها . (13)

3 – مفاهيم اسلامية وأنواع من البشر :

هناك مفاهيم مهمة يلزم تحديدها وتوضيحها لما يترتب عليها من آثار بالغة الخطورة في الحكم على الآخرين وتقويمهم ، وتكييف العلاقة بهم ، وذلك مثل : مفاهيم الايمان والاسلام ، والكفر والشرك ، والنفاق والجاهلية ونحوها ، لأن هناك فرقا بين الايمان المطلق ومطلق الايمان ، وبين الاسلام الكامل ومجرد الاسلام . ويوجد تمييز بين الكفر الأكبر وكفر المعصية . وبين الشرك الأكبر والشرك الأصغر ، وبين نفاق العقيدة ونفاق العمل ، وليس سواء جاهلية الخلق والسلوك وجاهلية العقيدة .

1 – فالايمان اذا أطلق ينصرف الى الكامل ، وهو ما يجمع بين تصديق الجنان ، واقرار اللسان ، وعمل الجوارح والأبدان ، وهذا هو الايمان المذكور في قوله تعالى : « **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا**

(13) نفس المرجع (بتصرف) .

ذكر الله وجلت قلوبهم » (14) وقوله : « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » . (15)

وقوله : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » . (16)

وفي مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه .. فليقل خيرا أو ليصمت » .

وهو المنفي في مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وقوله : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » .

فالنفي هنا ينصب على كمال الايمان لا على أصل الايمان ، كما تقول ، ليس برجل من لا يغار على أهله ، وليس بعالم من لا يعمل بعلمه ، فالنفي هنا لكمال الرجولة لا لأصلها ، ولكمال العلم لا لأصله ، وهذا الايمان الكامل هو الذي أخبر عنه الحديث : أنه « بضع وسبعون شعبة ، والحياء شعبة من الايمان » .

وهو الذي ألف فيه الامام أبو بكر البيهقي كتابه « الجامع لشعب الايمان » وهي شعب تشمل أصل الشجرة ، وهي العقائد ، وتشمل الفروع والثمار من العبادات والمعاملات والأخلاق والآداب . فمن ضيع الأصل بالكلية ، فقد انتفى عنه مطلق الايمان ، ومن ضيع بعض الفروع وأصل الايمان باق ، فقد انتفى عنه من كمال الايمان بقدر ما ضيع منها ، ولكن لا نحكم عليه بالكفر . وأصل الايمان – وهو ما جاء في حديث جبريل : « الايمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر » .

---

(14) الأنفال : 2 .
(15) المؤمنون : 1 .
(16) الحجرات : 15 .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في « الفتح » أن السلف قالوا : الايمان هو اعتقاد بالقلب ، ونطق باللسان ، وعمل بالأركان ، وأرادوا بذلك أن الأعمال شرط في كماله . ومن هنا نشأ لهم القول بأنه يزيد وينقص . اهـ .

2 – والاسلام قد يطلق على مجرد اعلان الشهادتين ، وهما باب الدخول في الاسلام ، فالكافر انما يدخل الاسلام ، ويصبح في عداد المسلمين بمجرد نطقهما قبل أن يؤدي الصلاة أو الزكاة أو غيرهما ، اذ هذه العبادات لا تقبل الا من مسلم ، وانما يكفي أن يقر بهذه الفرائض ويلتزم بها ، وان لم يؤدها بالفعل ، وهذه الشهادة هي التي تعصم دم الانسان وماله ، كما في الحديث : « فاذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها ، وحسابهم على الله» .

وقد يطلق الاسلام على الأركان الأساسية فيه ، وهي التي جاء فيها حديث ابن عمر المشهور « بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت » .

وهي التي فسر بها رسول الله « الاسلام » في حديث جبريل المعروف حين قال : اخبرني عن الاسلام ، فقال : « الاسلام : أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤتي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان » .

وهنا نجد في حديث جبريل الفرق بين مفهومي الايمان والاسلام، أما اذا اقترنا في الذكر ، فكل واحد منهما يتضمن الآخر ، وهما متلازمان في الواقع ، فلا يوجد ايمان بلا اسلام ، ولا اسلام بلا ايمان . فالايمان يتعلق بالقلب ، والاسلام يتعلق بالجوارح والظواهر ، وهذا ما جاء في الحديث : « الاسلام علانية والايمان في القلب » (17) وهو ما تدل عليه آية سورة الحجرات : « قالت

---

(17) رواه أحمد والبزار ، ورجاله رجال الصحيح .

الْأَعْرَابُ آمَنَّا ، قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا : أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ » . (18)

وقد يطلق الاسلام في موضع آخر ، ويراد به أيضا الاسلام الكامل ، كما في حديث : « الاسلام أن يسلم قلبك لله ، ويسلم المسلمون من لسانك ويدك » وحديث « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » وحديث « وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما » وغيرها من الأحاديث ..

3 - أما الكفر فقد يرد في لسان الشرع بمعنى الجحود والتكذيب لله ولرسالاته ، كما في قوله تعالى : « وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا » (19) .
وقد يطلق بمعنى الردة عن الاسلام ، والخروج من حظيرة الايمان، كما في قوله تعالى : « وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » (20) . وقوله : « وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » . (21)

وقد تطلق كلمة الكفر على بعض المعاصي العملية التي لا تحمل انكارا ولا جحودا ولا تكذيبا لله ورسوله .

يقول العلامة ابن القيم في كتابه « مدارج السالكين » : الكفر نوعان : أكبر وأصغر . فالكفر الأكبر : هو الموجب للخلود في النار . والأصغر : موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود . كما في الحديث : « اثنتان في أمتي هما بهم كفر : الطعن في النسب والنياحة » وقوله في السنن : « من أتى امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد » وفي الحديث الآخر : « من أتى كاهنا أو

(18) الحجرات : 14 .
(19) النساء : 136 .
(20) المائدة : 5 .
(21) البقرة : 217 .

عرافا فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد » وقوله : « لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » . وهذا تأويل ابن عباس وعامة الصحابة في قوله تعالى : « وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ » (22) قال ابن عباس : « ليس بكفر ينقل عن الملة ، بل اذا فعله فهو به كفر ، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر » وكذلك قال طاووس ، وقال عطاء : « هو كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق » .

ومنهم : من تأول الآية على ترك الحكم بما أنزل الله جاحدا له ، وهو قول عكرمة وهو تأويل مرجوح ، فان نفس جحوده كفر، سواء حكم أو لم يحكم .

ومنهم : من تأولها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله ، قال : ويدخل في ذلك الحكم بالتوحيد والاسلام ، وهذا تأويل عبد العزيز الكناني ، وهو أيضا بعيد ، اذ الوعيد على نفي الحكم بالمنزل ، وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعه وببعضه .

ومنهم : من تأولها على الحكم بمخالفة النص ، تعمدا من غير جهل به ولا خطأ في التأويل ، حكاه البغوي عن العلماء عموما .

ومنهم : من تأولها على أهل الكتاب ، وهو قول قتادة والضحاك وغيرهما ، وهو بعيد ، وهو خلاف ظاهر اللفظ ، فلا يصار اليه .

ومنهم : من جعله كفرا ينقل عن الملة .

قال ابن القيم : « والصحيح : أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين ، الأصغر والأكبر ، بحسب حال الحاكم ؛ فانه ان اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة ، وعدل عنه عصيانا ، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة ، فهذا كفر أصغر . وان اعتقد أنه غير واجب وأنه مخير فيه مع تيقنه أنه حكم الله . فهذا كفر اكبر وان جهله وأخطأه : فهذا مخطىء ، له حكم المخطئين» .

(22) المائدة : 44 .

والقصد : أن المعاصي كلها من نوع الكفر الأصغر ، فانهـا ضد الشكر ، الذي هو العمل بالطاعة ، فالسعي : اما شكر ، واما كفر ، واما ثالث ، لا من هذا ولا من هذا ، والله أعلم .

4 — والشرك كذلك منه ما هو أكبر ، وهو دعاء اله أو آلهة مع الله أو من دون الله ، وهو الذي جاء فيه قوله تعالى : « **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** » . (23)

ومنه ما هو أصغر ، مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « من حلف بغير الله فقد أشرك » (24) وقوله : « من علق — أي : تميمة — فقد أشرك » (25) .

وقوله : « ان الرقى والتمائم والتولة شرك » (26) .

5 — وكذلك النفاق ، منه النفاق الأكبر ، نفاق العقيدة ، وهو أن يبطن الكفر ، ويظهر الايمان خداعا وكذبا ، وهو المذكور في أوائل سورة البقرة : « **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا** » (27) « **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا : آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** » . (28)

وهو المذكور أيضا في أول سورة « المنافقون » وفي غيرها .

وهذا النفاق هو المتوعد عليه في قوله تعالى : « **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا** » . (29)

---

(23) النسـاء : 48 .
(24) أبو داود والترمذي والحاكم .
(25) رواه أحمد والحاكم .
(26) رواه ابن حبان والحاكم وقال صحيح الاسناد .
(27) البقـرة : 8 — 9 .
(28) البقـرة : 14 .
(29) النسـاء : 145 .

وهناك النفاق الأصغر ، وهو نفاق العمل ، بمعنى أن يتصف المرء المسلم بصفات المنافقين وأخلاقهم ، ولكن قلبه مؤمن بالله ورسوله وباليوم الآخر .

وهذا ما جاءت به الأحاديث مثل : « آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا ائتمن خان » . (30)

وهذا النفاق هو الذي كان يخافه الصحابة والسلف على أنفسهم ، وقالوا ما أمنه الا منافق ، ولا خافه الا مؤمن ! (31)

☆ ☆ ☆

لقد أتينا بالمقدمة الأولى والتي عنوانها « مراتب الناس مع الأعمال » حتى نبين أن في المؤمنين ثلاثة أنماط بل ثلاثة مراتب مقسمة حسب التزامها بشرع الله . وأوضحنا في المقدمة الثانية أن الناس معذورون اذا ما نقصت التزاماتهم بهذا الدين — ضمن هذه المراتب — . أما في الثانية فقد أوضحنا عموما عدة مفاهيم اسلامية أجلينا الغطاء فيها عمن هو المؤمن ، من هو المسلم ، من هو الكافر ، من هو المشرك ومن هو المنافق .

وعمدنا الى هذا الأسلوب من المقدمات حتى لا يقع خلط بين المفاهيم ، وحتى لا يساء فهم الكتاب فتسدد أصابع الاتهام الى النفوس البريئة .

من طلب اخوانا تتفق أحوالهم جميعا طلب شيئا متعذرا ، بل لو اتفقوا في جميع خصالهم وطباعهم لكان ربما وقع به خلل في نظامه، اذ ليس الواحد من الاخوان يمكن الاستعانة به في كل حال، ولا

---

(30) متفق عليه من حديث أبي هريرة .
(31) نفس المرجع (بتصرف) .

المجبولون على الخلق الواحد يمكن أن يتصرفوا في جميع الأعمال وانما بالاختلاف يكون الائتلاف · وعلى هذا فهم ثلاث طبقات : طبقة كالغذاء ، طبقة كالدواء ، وطبقة كالداء ·

1 – **طبقة الداء** : عدت هذه الطبقة من الاخوان باعتبار ظاهرها الذي تجعله ستارا لما تبطنه من نوايا خبيثة · قال بعض الحكماء : « مثل العدو الضاحك اليك كالحنظلة الخضراء أوراقها ، القاتل مذاقها » · وقد قيل في منثور الحكم : « لا تغترر بمقاربة العدو فانه كالماء الذي ان أطيل اسخانه بالنار لم يمنع من اطفائها » ·

وقال زيد بن الحكم الثقفي :

تكاشرني ضحكا كأنك ناصح
وعينك تبدي أن صدرك لي دوي (32)
لسانك معسول ونفسك علقم
وشرُّك مبسوط وخيرك ملتوي
فليت كفافا كان خيرك كله
وشرك عني ما ارتوى الماء مرتوي

ولقد بدأنا بهذه الطبقة لأن الخيار في كل جنس هو الأقل ولأن اخوان ذوي النقص والجهل كثر في هذا الزمان ، ولذلك قل وفور العقل والفضل · وقد قال الله تعالى : « **إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** » (33) فقل بهذا التعليل اخوان أهل الفضل لقلتهم وكثر اخوان ذوي النقص لكثرتهم · وقد قال في ذلك الشاعر :

(32) دوى : أى مريض وعدو ·
(33) الحجرات : 4 ·

لكل امرىء شكل من الناس مثله ... فأكثرهم شكلا أقلهم عقلا
وكل أناس آلفون لشكلهم ... فأكثرهم عقلا أقلهم شكلا
لأن كثير العقل لستَ بواجد ... له في طريق حين يسلكه مثلا
وكل سفيه طائش ان فقدته ... وجدته في كل ناحية عدلا (34)

ففي هذه الطبقة ثلاثة أصناف : المتصنع ، الدخيل واللئيم ·

أ – المتصنع : لا يدفعنَّك حسن الظن الى الاغترار بالتصنع · فالمتصنع يظهر لك من نفسه دائما ما ليس فيه ، ويتزين لك بكل لون وقعت عليه يداه ، ولا يتخلف أبدا عن المداهنة والمداراة وفي كثير من الأحيان المخادعة ·

والمتصنع اما أن يكون ملقا أو يكون منافقا :

★ الملِق : وهو الذي يتودد اليك ويتذلل لك ويبدي بلسانه من الاكرام ما ليس في قلبه ·

قالت الحكماء : « اعرف الرجل من فعله لا من كلامه ، واعرف محبته من عينه لا من لسانه » · وقال أحد الشعراء :

كم من أخ لك ليس تنكره ... ما دمت في دنياك في يسر
متصنع لك في مودته ... يلقاك بالترحيب والبشر
فاذا عدا والدهر ذو غِيَرٍ ... دهر عليك عدا مع الدهر
فارفض باجمال مودة من ... يقلي المُقِلَّ ويعشق المثري
وعليك من حالاه واحدة ... في العسر اما كنت واليسر

فاذا كنت من ذوي الجاه أو المال أو السلطان فاحذر من بطانة السوء هذه ، التي تتقلب مع النعمة أنى تقلبت · فعباد الدنيا من هذا الصنف يتناحرون من أجل التقرب اليك لا حبا فيك وانما طمعا في الدينار والدرهم ، أو السمعة والذكر أو المنصب والزعامة فاذا ما تغيرت الأيام كانوا للشدائد عونا عليك ·

(34) العدل – بكسر العين وسكون الدال – : المثل والنظير ·

ودونك هذا المثال عسى أن يكون لك ذخرا . روى أبو نعيم في الحلية أنه قدم على عمر بن عبد العزيز ـ لما ولي الخلافة ـ فيمن قدم اليه من شعراء الحجاز والعراق الأحوص وكثير والفرزدق ونصيب والحجاج القضاعي وجرير ، فمكثوا شهرا لا يؤذن لهم ، ولم يكن لعمر فيهم رأي ولا أرب ، وانما كان رأيه وبطانته ووزراؤه وأهل أربه القراء والفقهاء ومن وسم عنده بورع ، فكان يبعث اليهم حيث كانوا من بلدانهم . فوافق جرير قدوم عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي ـ وكان ورعا فقيها مفوها في المنطق نظير الحسن بن أبي الحسن في منطقه ـ فرآه جرير على باب عمر مشمر الثياب، معتما على لمة لاصقة براسه قد أرخى صنفيها بين يديه ، فقال جرير :

يأيها القارىء المرخي عمامته
هذا زمانك اني قد مضى زمني

أبلغ خليفتنا ان كنت لاقيه
أني لدى الباب كالمشدود في قرني

فقال له عون : من أنت ؟ فقال : جرير . فقال : انه لا يحل لك عرضي . قال : فاذكرني للخليفة . قال : ان رأيت لك موضعا فعلت. فدخل عون على عمر فسلم عليه ثم حمد الله وذكر بعض كلامه ومواعظه ، ثم قال: هذا جرير بالباب فاحرز لي عرضي منه . فاذن لجرير فدخل عليه ، فقال : يا أمير المؤمنين اني أخبرت أنك تحب أن توعظ ولا تطرب فاذن لي في الكلام ؟ . فاذن له . فقال :

لجت أمامة في لومي وما علمت
عرض اليمامة روحاتي ولا بكري

ما هوم القوم مذ شدوا رحالهم
الا غشاشا اغضارها اليسر

يصرخن صرخ خصى المعزاء اذا وقدت
شمس النهار وعاد الظل للقمر

زرت الخليفة من أرض على قدر
كما أتى ربه موسى على قدر

انا لنرجو اذا ما الغيث أخلفنا
من الخليفة ما نرجو من المطر

أأذكر الضر والبلوى التي نزلت
أم تكتفي بالذي نبئت من خبر

ما زلت بعدك في دار تقحمني
وضاق بالحي اصعادي ومنحدري

لا ينفع الحاضر المجهود بادينا
ولا يعود لنا باد على حضر

كم بالمواسم من شعثاء أرملة
ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر

أذهبت خلقته حتى دعا ودعت
يا رب بارك لطر الناس في عمر

ممن يعدك تكفي فقد والده
كالفرخ في الوكر لم ينهض ولم يطر

هذي الأرامل قد قضيت حاجتها
فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر

فترقرقت عينا عمر وقال : انك لتصف جهدك . فقال : ما غاب عني وعنك أشد . فجهز الى الحجاز عيرا تحمل الطعام والكسى والعطايا يبث في فقرائهم ، ثم قال : أخبرني أمن المهاجرين أنت يا جرير ؟ قال : لا . قال : فشبك بينك وبين الأنصار رحم أو قرابة أو صهر ؟ قال : لا . قال : فلا أرى لك في شيء من هذا الفيء حقا . قال : بلى والله لقد فرض الله لي فيه حقا ان لم تدفعني عنه . قال : ويحك وما حقك ؟ قال : ابن سبيل أتاك من شقة بعيدة فهو منقطع به على بابك . قال : اذن أعطيتك . فدعا بعشرين دينارا فضلت

من عطائه ، فقال : هذه فضلت من عطائي ، وانما يعطى ابن السبيل من مال الرجل ، ولو فضل أكثر من هذا أعطيتك فخذها فان شئت فاحمد ، وان شئت فذم · قال : بل أحمد يا أمير المؤمنين · فخرج فجهشت اليه الشعراء ، وقالوا : ما وراءك يا أبا حزرة ؟ قال : يلحق الرجل منكم بمطيته ، فاني خرجت من عند رجل يعطي الفقراء ولا يعطي الشعراء · وقال :

وجدت رُقى الشيطان (35) لا تستفزُّه
وقد كان شيطاني من الجن راقيا

لفظ الغلابي ·

وذكر صاحب الحلية أيضا أنه دخل على عمر بن عبد العزيز (36) رجل ، فقال : يا أمير المؤمنين ان من كان قبلك كانت الخلافة لهم زينا ، وأنت زين الخلافة ، وانما مثلك كما قال الشاعر:

واذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا

فأعرض عنه ·

★ المنافق : وأقصد به النفاق الأصغر وهو نفاق العمل والأخلاق لأنه ليس للأخوة صلة باختلاف العقيدة · وعلاماته وضحها رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل فقال : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : اذا حدث كذب ، واذا ائتمن خان ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر » (متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو) ·

ان المنافقين في أية جماعة كالسرطان الذي يصيب الجسم ، ينفثون سمهم حين المحن والبلاء ، ويظهرون كيدهم وقت الكرب والضيق ، فهم في السراء عالة ، وفي الضراء سوس ينخر في العظام ، يدعون الايمان ، ويحسنون القول ، ويمنطقون الضعف ،

(35) ورقى الشيطان : يقصد بها الشعر ·

(36) لقب بخامس الخلفاء الراشدين لأنه حكم بالعدل وخاصة في سياسة الحكم وسياسة المال التي انحرف بها بنو أمية ·

ويخرجون من كل موقف بعذر ، ولهم بين المؤمنين سماعون ، تخدعهم أقوالهم وأيمانهم ، فتمكنوا من الكيد للرسول صلى الله عليه وسلم وللمسلمين مرات ، فعادوا بثلث الجيش من أحد دون قتال ، وأثاروا الفتنة ، وسعوا الى افساد ذات بَيْنِ المؤمنين ، وأذاعوا حديث الافك في المدينة ، وتراهم في محنة الأحزاب يخذلون المؤمنين ، ويعملون على التشكيك في الدعوة وفي وعد الله ، ويحرضون على ترك مراكز الدفاع عن المدينة ·

انهم لا يضمرون في أنفسهم للمؤمنين الا الشر ، ولا يريدون بهم الا الهزيمة ، ولا يتمنون للدعوة غلبة ولا ظهورا ، فكان لا بد من كشف هذه النفوس وعرضها عارية على المؤمنين حتى لا يخدع فيهم مسلم ولا يهلك بسببهم مؤمن :

« وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ، وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا » · (سورة الأحزاب : الآيتان 12 ، 13) ·

لا ترى منهم الجماعة في الشدة الا الجبن والهلع ، وفي الرخاء الا سوء الخلق والشح وسلاطة اللسان · (37)

« أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ، فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ، أُولَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا » · (سورة الأحزاب · الآية : 19) ·

ب ـ المنحرف : وأقصد به كل منحرف السلوك من المسلمين وهو ضربان :

(37) منهج القرآن في التربية : محمد شديد ·

★ **الفاســـق** : وهو كل من خرج عن طريق الصلاح وسار على درب الفجور فاقترب من الموبقات وارتكب المحرمات ٠ وهو بدرجته هذه أقل خطرا من الملق والمنافق وتوبته في أي لحظة ممكن جدا ٠ قال بعض الصالحين : « رب معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت عجبا واستكبارا » ٠

وقد أمر الله تعالى بالاعراض عن من لم يطع أوامره وتولى عن ذكره بقوله : « **فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** » (38) ٠ وهو تكثير لسوادهم واعانة لهم على ظلمهم ، وان كان ذلك لسبب طلب مالهم فهو سعي الى حرام وقد قال النبي عليه السلام : « من تواضع لغني لغناه ذهب ثلثا دينه » هذا في غني صالح فما ظنك بالغني الفاسق، فانما قل ذلك لأن المرء بقلبه ولسانه ونفسه ، فاذا تواضع لغني بنفسه ولسانه ذهب ثلثا دينه ٠ فلو اعتقد فضله بقلبه كما تواضع له بلسانه ونفسه ذهب دينه كله ٠ وعلى الجملة فحركاتك وسكناتك بأعضائك محسوبة عليك فلا تحرك شيئا منها في معصية الله أصلا واستعملها في طاعة الله ٠ واعلم أنك ان قصرت في المراقبة فعليك يرجع وباله ـ أي عقابه ـ ٠ واياك أن تقول : « ان الله كريم رحيم يغفر ذنوب العصاة » فان هذه كلمة حق لا يجوز أن يراد بها باطل ٠ وصاحب هذا القول اذا لم يقل هذا من حقيقة حاله ملقب بالحماقة بتلقيب رسول الله حيث قال : « الكيس » أي العاقل الحاذق « من دان نفسه » أي ذل « وعمل لما بعد الموت ٠ والأحمق من أتبع نفسه هواها » شهواتها « وتمنى على الله الأماني » أي الرجاء بلا عمل ٠ واعلم أن قوله هذا يشبه قول من يريد أن يصير فقيها عالما في علوم الدين فاشتغل بالباطل ٠ وكقول : « من يرد مالا فليترك الحراثة والتجارة والكسب » ٠ (39)

---

(38) النجم : 29 ٠
(39) بداية الهداية : الامام الغزالي ٠

روي أن فاسقا من الفسقة قصد أن يزور عالما زاهدا ٠ فلما قرب الفاسق ستر الزاهد وجهه ، فاستعذر ابنه وقال : « ان والدي مرض مرضا شديدا فستر وجهه لذلك » ٠ فقال الشيخ الزاهد له : « ليس بي مرض ولا وجع ولكن أردت أن لا أنظر الى وجهك » ورجع الظالم تائبا ومستغفرا لله ، فغفر الله تعالى لهما ٠ أما الشيخ فلعدم نظره الى وجه الظالم ، وأما الظالم فلتوبته من ظلمه ٠

وقيل : انه كان للامام أبي حنيفة النعمان رحمه الله ، جار اسكافي بالكوفة ، يسكر كل ليلة وينشد :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ولا يزال يشرب ويردد البيت ، الى أن يغلبه السكر وينام ٠٠

وكان الامام يصلي الليل ، ويسمع حديثه وانشاده ، ففقد صوته بعض الليالي ، فسأل عنه ، فقيل : أخذه العسس منذ يومين ، وهو في السجن ٠ فصلى الامام الفجر ، وركب دابته ، ومشى واستأذن على الأمير ، فأذن له ، فلما دخل عليه أجلسه مكانه ، وقال : ما حاجة الامام ؟ قال : لي جار اسكافي ، أخذه العسس ، فتأمر بتخليته ٠ قال الأمير : نعم ، وكل من أخذ تلك الليلة ، ثم أمر بتخليته وتخليتهم أجمعين ، فركب الامام وتبعه جاره الاسكافي ، فلما وصل الى داره ، قال له الامام : أترانا أضعناك ؟ قال : لا ، بل حفظت ورعيت ، جزاك الله خيرا ، ولله علي أن لا أشرب خمرا بعد اليوم ٠٠٠ فتاب من يومه ، ولم يعد الى ما كان عليه ٠

★ **المشكوك في سلوكه** : ونقصد به ذلك الذي يوقع نفسه في مواقع التهم لأنه في هذه الحالة يكون قد عرض نفسه لظنون الناس السيئة فاذا ما صاحبته ظن بك الناس ما ظنوا به ٠

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : « الصاحب مناسب » ٠
وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « ما من شيء أدل على شيء ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب » ٠

وقال بعض الحكماء : « أعرف أخاك بأخيه قبلك » · وقال بعض الأدباء : « يظن بالمرء ما يظن بقرينه » · وقال عدي بن زيد :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدي
اذا كنت في قوم فصاحب خيارهم
ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وما أدراك من يكون ـ ومع ذلك يوضح مواقفه التي يمكن أن تستثير حفيظة المسلمين ·

روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلم احدى نسائه، فمر به رجل فدعاه فقال: «يا فلان، هذه زوجتي صفية » · فقال : يا رسول الله ، من كنت أظن فيه فاني لم أكن أظن فيك ، فقال : « ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » (رواه مسلم) ·

وزاد في رواية : « اني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا » ، وكان رجلين ، فقال : « على رسلكما انها صفية » الحديث ، وكانت قد زارته في العشر الأواخر من رمضان · (40)

وقال عمر رضي الله عنه : « من اقام نفسه مقام التهم فلا يلومن من أساء به الظن » ·

ومر برجل يكلم امرأة على ظهر الطريق ، فعلاه بالدرة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، انها امرأتي · فقال : هلا حيث لا يراك أحد من الناس ·

فتحرز من دخلاء أهل السوء ، وجانب أهل الريب لتكون موفور العرض ، سليم الغيب ، فلا تلام بملامة غيرك ·

---

(40) متفق عليه من حديث صفية ·

وقد ضرب ذو الرمة مثلا بالماء فيمن حسن ظاهره وخبث باطنه فقال :

ألم تر أن الماء يخبث طعمه … وان كان لون الماء أبيض صافيا

ونظر بعض الحكماء الى رجل سوء حسن الوجه فقال : « أما البيت فحسن وأما الساكن فرديء » ·

وأخذ الشاعر « جحظة » هذا المعنى فقال :

رب ما أبين التباين فيه … منزل عامر وعقل خراب

وأنشد بعض أهل العلم :

لا تركنن الى ذي منظر حسن … فرب رائعة قد ساء مخبرها
ما كل أصفر دينار لصفرته … صفر العقارب أرداها وأنكرها

وقال بعض الحكماء : « من لم يقدم الامتحان قبل الثقة ، والثقة قبل الأنس ، أثمرت مودته ندما » ·

وقال بعض البلغاء : « مصارمة قبل اختبار أفضل من مؤاخاة على اغترار » ·

وقال بعض الأدباء : « لا تثق بالصديق قبل الخبرة ، ولا تقع بالعدو قبل القدرة » ·

وقال بعض الشعراء :

لا تحمدن أمرأ حتى تجربه … ولا تذمنه من غير تجريب
فحمدك المرء ما لم تبله خطأ … وذمك المرء بعد الحمد تكذيب

وقال آخر :

أصونك أن أدل عليك ظنا … لأن الظن مفتاح اليقين

وقال بعض الحكماء : « من حسن ظنه بمن لا يخاف الله تعالى فهو مخدوع » ·

وأنشد بعض أهل الأدب لأبي بكر الصولي رحمه الله قوله :

أحسنت ظني بأهل دهري … فحسن ظني بهم دهاني
لا آمن الناس بعد هذا … ما الخوف الا من الأمان

جـ ـ **المنقلب** : وأطلقنا عليه هذه الصفة لأنه يصاحبك فترة من الزمان ثم لا يلبث أن ينقلب على عقبيه فيصير من ألد أعدائك وهو صنفان :

★ **اللئيم** : وهو خلاف الكريم أي البخيل ، الدنيء الأصل ، الشحيح النفس ، المهان ・ فبقدر ما تحسن لهذا النوع من الناس بقدر ما يزداد بغضهم لك وحقدهم عليك ・

قال ابن حزم : « من امتحن بأن يخالط الناس فلا يلق توهمه كله الى من صحب ・ ولا يبْن منه الا على أنه عدو مناصب ، ولا يصبح كل غداة الا وهو مترقب من غدر اخوانه ، وسوء معاملتهم ، مثل ما يترقب من العدو المكاشف ・ فان سلم من ذلك فلله الحمد ، وان كانت الأخرى ألفي متأهبا ولم يمت هما ولا يستعمل مع ذلك سوء المعاملة فيلحق بذوي الشرارة ـ أي الشر والغدر ـ من الناس وأهل الخبث منهم ・ ولكن ها هنا طريق وعرة المسلك ، شاقة التكلف ، يحتاج سالكها الى أن يكون أهدى من القطا ، وأحذر من العقعق ، حتى يفارق الناس راحلا الى ربه تعالى ・ وهي طريق الفوز في الدنيا والآخرة » ・

روت كتب السيرة أن الحسن بن علي رضي الله عنهما وجد شاة له قد كسرت رجلها فقال لغلام له : من فعل هذا ؟ قال الغلام : أنا ・ قال : لم ذاك ؟ قال : لأجلب لك الهم والغم・ فتبسم السبط رضى الله عنه ، وقال له : لأسرَّك ・ فأعتقه وأجزل له العطاء ・

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « ما أضمر أحد شيئا الا وظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه » ・

ان من أهم صفات اللئيم كونه يستعين ولا يعين فهو كَلٌّ ، ومهين مستذل ، قد قطع عنه الرغبة وبسط فيه الرهبة ، فلا خيره يرجى ولا شره يؤمن ・ فليس لمثله في الاخاء حظ ولا في الوداد نصيب ・

قال بعض الحكماء : « شر ما في الكريم أن يمنعك خيره ، وخير ما في اللئيم أن يكف عنك شره » ・ وقال ابن الرومي :

عذرنا النخل في ابداء شوك   يرد به الأنامل عن جناه
فما للعوسج (41) الملعون أبدى   لنا شوكا بلا ثمر نراه ؟

قال بعضهم : « مثل جملة الناس كمثل الشجر والنبات ؛ فمنها ما له ظل وليس له ثمر ، وهو مثل الذي ينتفع به في الدنيا دون الآخرة ، فان نفع الدنيا كالظل السريع الزوال ・ ومنه ما له ثمر وليس له ظل ، وهو مثل الذي يصلح للآخرة دون الدنيا ・ ومنها ما له ثمر وظل جميعا ・ ومنها ما ليس له واحد منها ، كأم غيلان ، تمزق الثياب ولا طعم فيها ولا شراب ・ ومثله من الحيوانات : الفأرة والعقرب ، كما قال الله تعالى : « **يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ** » (42) ・ وقال الشاعر :

الناس شتى اذا ما أنت ذقتهم   لا يستوون كما لا يستوي الشجر
هذا له ثمر حلو مذاقته   وذاك ليس له طعم ولا ثمر

روى الطبراني في الأوسط أن رجلا أثنى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كان من الغد ذمه ، فقال عليه السلام : « أنت بالأمس تثني عليه واليوم تذمه ! » ، فقال : والله لقد صدقت عليه بالأمس ، وما كذبت عليه اليوم ・ انه أرضاني بالأمس فقلت أحسن ما علمت فيه ・ وأغضبني اليوم فقلت أقبح ما علمت فيه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ان من البيان لسحرا » وكأنه كره ذلك فشبهه بالسحر ・ (43)

ومن علامات اللئيم أنه يفشي سر أخيه عند الغضب ، وفي هذا قال الشاعر :

وترى الكريم اذا تصرم وصله   يخفي القبيح ويظهر الاحسانا
وترى اللئيم اذا تقضى وصله   يخفي الجميل ويظهر البهتانا

---

(41) العوسج : على وزن جوهر : شجر ذو شوك يعبر عنه بشجر موسى ・
(42) سورة : الحج ・ الآية : 13 ・
(43) رواه الحاكم أيضا في مستدركه من حديث أبي بكرة ・

وإذا ماريته فاجأك · قال عبد الله بن الحسن : « اياك ومماراة الرجال ؛ فانك لن تعدم مكر حليم أو مفاجأة لئيم » ، فاحذر من مماراة اللئيم ، واياك أن تشتمه · قال أحدهم : « ما شتمت أحدا قط ، لأنه ان شتمني كريم فأنا أحق من غفرها له ، أو لئيم فلا أجعل عرضي له غرضا » ، وقال الشاعر :

وأغفر عوراء الكريم ادخاره ... وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

واللئيم أبعد الناس عن الوفاء ، فاذا ما اتسعت ولايته وعظم جاهه ترفع عنك :

ان الكرام اذا ما أيسروا ذكروا ... من كان يألفهم في المنزل الخشن

وحكى الربيع أن الشافعي رحمه الله آخى رجلا ببغداد ، ثم ان أخاه ولي السيبين ، فتغير له عما كان عليه · فكتب اليه الشافعي بهذه الأبيات :

اذهب فوُدّك من فؤادي طالق ... أبدا وليس طلاق ذات البين
فان ارعويت فانها تطليقة ... ويدوم ودك لي على ثنتين
وان امتنعت شفعتها بمثالها ... فتكون تطليقين في حيضين
واذا الثلاث أتتك مني بتة ... لم يغن عنك ولاية السيبين

وجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا من صفاته في حديث جامع فقال : « والفاجر خَبٌّ لئيم » · (44)

★ الملول المتارك : الملول هو السريع التغير ، الوشيك التنكر ، فوداده خطر واخاؤه غرر لأنه لا يبقى على حاله ولا يخلو عن استحالة · وقد قال ابن الرومي :

اذا أنت عاتبت الملول فانما ... تخط على صحف من الماء أحرفا
وهبه ارعوى بعد العتاب ألم تكن ... مودته طبعا فصارت تكلفا

وهم نوعان : منهم من كون ملله استراحة ، وسنتكلم عنه فيما بعد باذن الله ، ومنهم من يكون ملله تركا واطراحا ، ولا يراجع اخاء ولا ودا ولا يتذكر حفاظا ولا عهدا كما قال أحد الشعراء :

(44) رواه أبو داود والترمذي وأحمد بن حنبل ·

اني رأيت لها مواصلة ... كالسم تفرغه على الشهد
فاذا أخذت بعهد ذمتها ... لعب الصدود بذلك العهد

وهذا أذم الرجلين حالا ؛ لأن مودته من وساوس الخطرات وعوارض الشهوات ، فأقلع عنه قبل أن تخالطه ، وأحسن متاركته اذا تورطت معه ، قال العباس بن الأحنف :

تداركت نفسي فعزيتها ... وبغضتها فيك آمالها
وما طابت النفس عن سلوة ... ولكن حملت عليها لها

وقال ابراهيم بن هرمة :

فانك واطراحك وصل سلمى ... لأخرى في مودتها نكوب
كثاقبة لحلي مستعار ... لأذنيها فشانهما الثقوب
فأدت حلي جارتها اليها ... وقد بقيت بأذنيها ندوب

واعلم ان الملول المتارك لا يمكن أن يعلن بملله ويفارقك في بعض الحالات نظرا لأن لديه مصلحة دنيوية فيك ، فاذا ما خابت أمانيه قلاك بكل عنف ·

آخى الشافعي رضي الله عنه محمد بن عبد الحكم ، وكان يقربه ويقبل عليه ، ويقول : ما يقيمني بمصر غيره · فاعتل محمد ، فعاده الشافعي رحمه الله وأشفق عليه حتى قال :

مرض الحبيب فعدته ... فمرضت من حذري عليه
وأتى الحبيب يعودني ... فبرئت من نظري اليه

فلما كان الشافعي في علته التي مات فيها رضي الله عنه قيل له : الى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله ؟ وظنوا أنه سيجيبهم بتعيين محمد بن عبد الحكم وتفويضه أمر حلقته العلمية اليه بعد وفاته · وفي تلك اللحظة بالذات استشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليومىء اليه · فلما رأى الشافعي منه ذلك وعرف مقصده ، لم يداهنه ولم يؤثر رضا الخلق على رضا الله تعالى ونصح لله وللمسلمين فقال : « سبحان الله ! أيشك في هذا ؟ أبو يعقوب البويطي» · فانكسر لها محمد، ومال أصحاب الشافعي الى البويطي،

مع أن محمدا كان قد حمل عنه مذهبه كله ، لكن البويطي كان أفضل وأقرب الى الزهد والورع . فلما توفى انقلب محمد بن عبد الحكم عن مذهبه ، ورجع الى مذهب أبيه ، ودرس كتب مالك رحمه الله ، وصار من كبار أصحابه .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « خير اخوانك من واساك وخير منه من كفاك » . وكان أبو هريرة رضي الله عنه يدعو فيقول : « اللهم اني أعوذ بك ممن لا يلتمس خالص مودتي الا بموافقة شهوتي ، وممن ساعدني على سرور ساعتي ولا يفكر في حوادث غدي » .

وقال بعض البلغاء : « عقود الغادر محلولة وعهوده مدخولة »
وقال آخر : « ما ودك من أهمل ودك ولا أحبك من أبغض حبك » ،
وقال بعض الشعراء :

وكل أخ عند الهوينا ملاطف ... ولكنما الاخوان عند الشدائد

وقال صالح بن عبد القدوس : شر الاخوان من كانت مودته مع الزمان اذا أقبل فاذا أدبر الزمان أدبر عنك . فأخذ هذا المعنى الشاعر فقال :

شر الأخلاء من كانت مودته ... مع الزمان اذا ما خاف أو رغبا
اذا وترت امرءا فاحذر عداوته ... من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا
ان العدو وان أبدى مسالمة ... اذا رأى منك يوما فرصة وثبا

2 — **طبقة الدواء** : فاذا خرج من كان كالداء من عداد الاخوان فالاخوان هم الصنفان الآخران أي من كان منهم كالغذاء أو كالدواء لأن الغذاء قوام للنفس وحياتها ، والدواء علاجها وصلاحها . وفي هذه الطبقة صنفان :

أ — المتروك : وهو الذي لا يعين ولا يستعين فهو متروك قد منع خيره وقمع شره ، فهو لا صديق يرجى ولا عدو يخشى .

قال المغيرة بن شعبة رضي الله عنه : التارك للاخوان متروك ، واذا كان كذلك فهو كالصورة الممثلة يروقك حسنها ويخونك نفعها ،

فلا هو مذموم لقمع شره ولا هو مشكور لمنع خيره وان كان باللوم أجدر .

وقال الشاعر :

أسوأ أيام الفتى يوم لا يرى ... له أحد يزري عليه وينكر

غير أن فساد الوقت وتغير أهله يوجب شكر من كان شره مقطوعا وان كان خيره ممنوعا كما قال المتنبي :

انا لفي زمن ترك القبيح به * من أكثر الناس احسان واجمال

وقال الله تعالى : « **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ . إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** » . (45)

ب — الملول المستريح : وهو الذي يكون مله استراحة ثم يعود الى المعهود من اخائه . فهذا أسلم من ملل الترك وصاحبه أقرب من الملول المتارك ؛ يسامح فى وقت استراحته وحين فترته ليرجع الى الحسنى ويؤوب الى الاخاء وأن تقدم المثل بما نظمه الشاعر حيث قال :

وقالوا : يعود الماء في النهر بعدما ... عفت منه آثار وجفت مشارعه
فقلت : الى أن أين يرجع الماء عائدا ... ويعشب شطآه تموت ضفادعه

فاذا رأيت من أخيك مللا فلا تطرح حقه بالتوهم ولا تسقط حرمته بالظنون .

وقال الشاعر :

اذا ما حال عهد أخيك يوما ... وحاد عن الطريق المستقيم
فلا تعجل بلومك واستدمه ... فان أخا الحفاظ المستديم
فان تك زلة منه والا ... فلا تبعد عن الخلق الكريم

(45) الممتحنة : 8 .

ومن هنا قال عمرو بن مسعدة : « العبودية عبودية الاخاء لا عبودية الرق » .

وقال بعض الحكماء : « من جادلك بمودته فقد جعلك عديل نفسه ؛ فأول حقوقه : اعتقاد مودته ، ثم ايناسه بالانبساط اليه في غير محرم ، ثم نصحه في السر والعلانية ، ثم تخفيف الأثقال عنه ، ثم معاونته فيما ينوبه من حادثة أو يناله من نكبة ؛ فان مراقبته في الظاهر نفاق ، وتركه في الشدة لؤم » .

3 - **طبقة الغذاء** : وهذه الطبقة هي التي يلزمك أن تخالطها وتخطب ودها وتعيش في صفائها . ونقصد بهذه الطبقة تلك التي سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له : « يا رسول الله ، أي الأصحاب خير ؟ قال : « الذي اذا ذكرت أعانك وواساك ، وخير منه من اذا نسيت ذكرك » (46) . وهذه الطبقة صنفان :

أ - المنصف : وهو الذي يعينك ويستعينك فهو معاوض منصف يؤدي ما عليه ويستوفي ما له ، فهو كالمقرض يسعف عند الحاجة ويسترد عند الاستغناء ، وهو مشكور في معونته ومعذور في استعانته فهذا أعدل الاخوان .

وكفاك في هذا قول الله سبحانه وتعالى : « **إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** » . (47)

روي عن عثمان بن مظعون رضي الله عنه أنه قال : كان رسول الله صلى الله عله وسلم يدعوني الى الاسلام فأسلمت استحياء مخالفته ولم يتقرر الاسلام في قلبي فحضرت عنده صلى الله عليه وسلم ذات يوم فبينما هو يحدثني اذ رأيت بصره يشخص الى السماء ثم خفض رأسه عن يمينه ثم رفعه مرة أخرى ، ثم خفضه عن يساره ، ثم أقبل علي محمرا وجهه يرفض عرقا ،

(46) روى نحوه أبو عبد الرحمن السلمي في آداب الصحبة .
(47) النحل : 90 .

فسألته عن تلك الحالة النازلة عليه ، فقال عليه السلام : بينما أنا أحدثك اذ رفعت بصري الى السماء فرأيت جبرائيل ينزل عن يميني ، فقال يا محمد ، فقرأ « **إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ** ... الآية » . قال عثمان : فاستقر الايمان في قلبي يومئذ . فكان نزول هذه الآية سببا لاستقرار ايمان عثمان بن مظعون . (48)

ب - **الكريم** : الكريم الطبع هو الذي يعين ولا يستعين فهو مشكور الصنع وقد حاز فضيلتي الابتداء والاكتفاء ، فلا يرى ثقيلا عن نائبة ، ولا يقعد عن نهضة في معونة . فهذا أشرف الاخوان نفسا ، وأكرمهم طبعا ؛ فينبغي لمن أوجد له الزمان مثله (وقل أن يكون له مثل لأنه البر الكريم والدر اليتيم) أن يثني عليه خنصره، ويعض عليه بناجده ، ويكون به أشد ضنا منه بنفائس أمواله وسني ذخائره : لأن نفع الاخوان عام ونفع المال خاص ومن كان أعم نفعا فهو بالادخار أحق .

قال الفرزدق :

يمضي أخوك فلا تلقى له خلفا   والمال بعد ذهاب المال مكتسب

وقال آخر :

لكل شيء عدمته عوض   وما لفقد الصديق من عوض

واعلم أن من دلائل الكرم المروءة التي هي حلية النفوس وزينة الهمم . وقد ورد في الأثر : « من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته » .

قال الحصين بن المنذر الرقاشي :

ان المروءة ليس يدركها امرؤ   ورث المكارم عن أب فأضاعها
أمرته نفس بالدناءة والخنا   ونهته عن سبل العلا فأطاعها
فاذا أصاب من المكارم خلة   يبني الكريم بها المكارم باعها

(48) درة الناصحين : الخوبوي .

وقد روى أبو سلمة عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « المؤمن غر (49) كريم والفاجر خب (50) لئيم » . وروي عنه عليه السلام أنه قال : « شر الناس من أكرمه الناس اتقاء لسانه » . (51)

وروي أنه صلى الله عليه وسلم دخل بعض بيوته ، فدخل عليه أصحابه حتى غص المجلس وامتلأ ، فجاء جرير بن عبد الله البجلي ، فلم يجد مكانا ، فقعد على الباب . فلف رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه ، فألقاه اليه ، وقال له : « أجلس على هذا » ، فأخذه جرير ووضعه على وجهه ، وجعل يقلبه ويبكي ، ثم لفه ورمى به الى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ما كنت لأجلس على ثوبك ، أكرمك الله كما أكرمتني . فنظر النبي صلى الله عليه وسلم يمينا وشمالا ثم قال : « اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » . (52)

قيل لبعض العرب : ما المروءة فيكم ؟ قال : « طعام مأكول ونائل مبذول وبشر مقبول » . وقال الأحنف بن قيس :

فلو مد سروي بمال كثير — لجدت وكنت له باذلا

فان المروءة لا تستطاع — اذا لم يكن مالها فاضلا

لقد بينت لك هذه العينات حتى تستطيع انتقاء الاخوان . وما دامت الأخوة تقوم على تأثير متبادل فان هذه العينات ستعينك على معرفة الأشخاص الذين تدعوهم الى الله ويصيرون اخوانا لك في الدين ، لأن المنهج الصحيح للدعوة الاسلامية ـ في أي مكان من العالم ـ يقوم على المسلك الأصلي الذي سلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوة الناس وتبليغ الرسالة .. ومن مقتضيات هذا المنهج ـ اليوم ـ أن يتوفر الداعية على معرفة دقيقة بطبيعة التركيب

(49) غر : أي يغره كل أحد . ويغير كل شيء .
(50) رواه أبو داود والترمذي وأحمد بن حنبل .
(51) « ان من شرار الناس الذين يكرمون اتقاء ألسنتهم » رواه أبو داود في باب الأدب .
(52) الحاكم من حديث جابر وقال صحيح الاسناد .

السكاني والمناخ الفكري والعقلي الذي يسود المجتمع ـ حيث يريد أن يدعو الى الله سبحانه وتعالى ـ وأن يرسم خريطة عقائدية لهذا المجتمع تحدد تكوينه الفكري وتاريخه واهتماماته وذهنية أهله ؛ وذلك حتى تتوفر لديه امكانات معرفة المداخل الصحيحة التي يتعامل من خلالها وتتحدد هذه الوسائل الحقيقية المدروسة التي يسترشد بها لتبليغ الاسلام ، الذي هو للناس جميعا ..

وقد انتبه اعداؤنا ـ للأسف الشديد ـ الى هذه الحقيقة قبلنا ، ومن أبسط الأمثلة على ما نقول ما يقوم به معهد « زويمر » الموجود في مدينة لوس انجلوس بأمريكا حيث يوجد لديه جامعة ملحقة به تمنح درجات علمية ،، وعندها برامج في كيفية تنصير المسلمين في شمال افريقيا ووسطها ، ومنطقة الخليج العربي ، وكيفية التعامل معهم .. ويقوم مركز الأبحاث التابع للجامعة على أحدث نظم وأجهزة الكومبيوتر ، ويحلل كل مجموعة اسلامية مهما صغرت ـ (من بشرية ولغوية وعنصرية وحضارية) ـ وقد قسموا العالم الى حوالي 3600 مجموعة ، وتتوفر عن كل منها دراسات مستفيضة حول تقاليدها وعاداتها وأوضاعها الداخلية وعلاقتها بالحكومات وصلاتها بمن حولها ، كما توجد خطة مفصلة لابعادها عن الاسلام أو لتنصيرها ان أمكن ...

ويوجد هناك مركز للخدمات بنفس المدينة تتبعه مكتبة عن الاسلام والمسلمين ، تضم 25 ألف مرجع . (53)

فاذا ما علمت هذا ، يا أخي ، بدت لك عيناتي التي رسمتها باهتة ، ومحاولتي التي دونتها لعبة صبيانية . ومع هذا فلست أنصحك باستعمال الكمبيوتر في انتقاء الاخوان .

(53) مجلة « الأمة » الصادرة في قطر بتاريخ شهر ذي القعدة 1402هـ . (العدد : 23 ، السنة : 2) .

عقــد المؤاخــاة

قال ابن عبد البر : « كانت المؤاخاة مرتين : مرة بين المهاجرين خاصة ، وذلك بمكة ، ومرة بين المهاجرين والأنصار » . (1)

ان أول عمل قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لما هاجر الى المدينة ـ هو اقامة الأسس الهامة لانشاء أول دار اسلام اذ ذاك على وجه الأرض ، وكان ذلك ايذانـا بظهور الدولـة الاسلاميـة باشراف منشئها الأول محمد عليه الصلاة والسلام .

ولقد كانت هذه الأسس ممثلة في هذه الأعمال الثلاثة التالية :

أولا : بناء المسجـد .

ثانيـا : المؤاخاة بين المسلمين والمهاجرين والأنصار خاصة .

ثالثـا : كتابة وثيقة (دستور) حددت نظام حياة المسلمين فيما بينهم ، وأوضحت علاقتهم مع غيرهم بصورة عامة واليهـود بصورة خاصة .

والذي يهمنا في هذا المقام هو الأساس الثاني .

قال ابن اسحـاق :

« آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه مـن المهاجرين والأنصار ، فقال ـ فيما بلغنا ، ونعوذ بالله أن نقـول عليه ما لم يقل ـ :

---

(1) انظر : فتح الباري . ج : 7 ، 191 .

« تآخوا في الله أخوين أخوين » ، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال : هذا أخي . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين وامام المتقين ، ورسول رب العالمين ، الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أخوين . وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله صلى الله عليه وسلم وعم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين ، واليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضره القتال ان حدث حادث الموت . وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين الطيار ومعاذ بن جبل أخو بني سلمة أخوين (2) . وكان أبو بكر الصديق ابن أبي قحافة وخارجة بن زهير أخوين . وعمر بن الخطاب وعتبان ابن مالك أخوين . وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ أخوين . وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين . والزبير ابن العوام وسلمة بن سلامة بن وقش أخوين . وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر أخوين . وطلحة بن عبيد الله وكعب ابن مالك أخوين . وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأبي بن كعب أخوين . ومصعب بن عمير وأبو أيوب خالد بن زيد أخوين . وأبو حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر أخوين . وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أخوين . وأبو ذر الغفاري والمنذر بن عمرو أخوين . وكان حاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة أخوين . وسلمان الفارسي وأبو الدرداء أخوين . وبلال مولى أبي بكر وأبو رويحة أخوين .

« فهؤلاء من سمي لنا ممن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بينهم من أصحابه » . (3)

(2) وكان جعفر رضي الله عنه يومئذ غائبا بأرض الحبشة .
(3) انظر سيرة ابن هشام : I ، 504 ــ وطبقات ابن سعد : 3 ، 2 .

★ آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار على ثلاثة عقود :

الحق ،

المواساة ،

التوارث بينهم بعد الممات ، بحيث يكون أثر الأخوة الاسلامية في ذلك أقوى من أثر قرابة الرحم .

★ ثم ربط النبي صلى الله عليه وسلم هذا التآخي بين أفراد الصحابة بنطاق عام على عقدين :

الموالاة ،

والتناصر ، أو ما يسمى أيضا بالتعاون في كل نواحي الحياة في اطار العدل والمساواة بين المسلمين .

وهذا الرباط العام بين المسلمين ـ بعقديه ـ لا زال ملزما لهم الى يومنا هذا ، مهما اختلفت ديارهم وألسنتهم وأزمانهم .

أما المتأمل في العقد الخاص الذي أقامه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار يرى أنه كان قائما على أسس مادية أيضا ، وكان حكم التوارث فيما بينهم من بعض هذه الظواهر المادية . وظلت عقود هذا الاخاء مقدمة على حقوق القرابة الى موقعة بدر الكبرى ، حيث نزل في أعقابها قوله تعالى : « **وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** » (4) فنسخت هذه الآية ما كان قبلها وانقطع أثر المؤاخاة الاسلامية في الميراث ، ورجع كل انسان في ذلك الى نسبه وذوي رحمه ، وأصبح المؤمنون كلهم اخوة .

روى البخاري عن ابن عباس قال : كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمة للأخوة التي آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينهم ، فلما نزلت : « **وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا**

(4) الأنفال : 75 .

مَوَالِيَ » (5) نسخت . ثم قال : « وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ » (6) أي من النصر والرفادة والنصيحة . وقد ذهب الميراث . (7)

فاذا آخيت أحدا فابن مؤاخاتك معه على عقدين : الحق والمواساة . أما كونك مسلما فيتطلب منك موالاة المسلمين في جميع أنحاء العالم ومناصرتهم . فأين أنت من هذا يا أخي ؟

فهل تشعر بشيء من الحب للمسلمين ؟ وهل تعلم عنهم شيئا من أوحالهم ، وتوزعهم علك تؤدي شيئا من مسئوليتك تجاههم ؟ وها أنا ذا أساعدك بقليل من ذلك . (8)

المسلمون في الاتحاد السوفياتي : 36 مليون نسمة أي بنسبة 17ر5٪ .

المسلمون في ألبانيا	1 مليون نسمة أي بنسبة 65٪ .
المسلمون في يوغوسلافيا	4 ملايين أي بنسبة 20٪ .
المسلمون في أفغانستان	19ر800000 مليون أي بنسبة 99٪ .
المسلمون في كمبوديا	6000 ألف أي بنسبة 4ر8٪ .
المسلمون في أمريكا	3 ملايين أي بنسبة 1ر5٪ .
المسلمون في الحبشة	7ر4 ملايين أي بنسبة أكثر من 60٪ .
المسلمون في سريلانكا	1 مليون أي بنسبة 8٪ .
المسلمون في الهند	80 مليون أي بنسبة 12٪ .
المسلمون في بورما	5ر100000 مليون أي بنسبة 17٪ .
المسلمون في أوغندا	4ر7 مليون أي بنسبة 33٪ .
المسلمون في جزر فيجي	60 ألف أي بنسبة 11٪ .
المسلمون في اليابان	25ر000 ألف نسمة .
المسلمون في بريطانيا	يقتربون من 2 مليوني نسمة .

---

(5) النســاء : 33 .
(6) النســاء : 33 .
(7) رواه البخاري في كتاب التفسير (5 : 178) .
(8) للتوسع راجع : المسلمون في العالم : أضواء على مشكلاتهم وتوزيعهم ـ عادل طه .

المسلمون في فرنسا	أكثر من 2 مليوني نسمة .
المسلمون في ايطاليا	250 ألف نسمة .
المسلمون في قبرص	120 ألف نسمة .
المسلمون في الدانمارك	25 ألف نسمة .
المسلمون في هولندا	200 ألف نسمة (احصاء رسمي) .
المسلمون في ايران	35 مليون نسمة (احصائية 1979) .
المسلمون في ماليزيا	نسبتهم من مجموع السكان 48٪ .
المسلمون في أريتريا	نسبتهم من مجموع السكان 75 ٪
المسلمون في سيراليون	نسبتهم من مجموع السكان أكثر من 75٪ .
المسلمون في النيجر	نسبتهم تبلغ 99٪ .
المسلمون في غانا	نسبتهم تبلغ 40٪ .

فهذا ما استطعت أن أجمعه عبر سنتين أو أكثر عن احصائيات قديمة وأخرى حديثة ، وبعضها رسمي والآخر ارتجالي فمعذرة يا أخي عن هذه المعلومات الناقصة والمشوشة التي أرجو منك أن تصححها على هامش هذه الصفحات وأن تضيف اليها ما تقع عليه يدك من أخبار المسلمين وأحوالهم قدر مستطاعك .

فموالاتنا للمسلمين ـ يا أخي ـ ومناصرتهم تتطلب منا أن نعيش آمالهم وآلامهم ، فعندما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا من غزوة تبوك ، وأشرف على المدينة قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه : « ان بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا الا كانوا معكم » قالوا : يا رسول الله ، وهم بالمدينة ؟ قال : « وهم بالمدينة ، حبسهم العذر » . (9)

انهم رجال من المسلمين أطلق عليهم (البكاءون) اذ أقبلوا قبل غزوة تبوك يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهورا يركبونها للخروج الى الجهاد معه ، فقال لهم : لا أجد ما أحملكم

---

(9) متفق عليه ، البخاري : 5/136 ، ومسلم : ز/49 .

عليه . فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لا يجدوا لديهم ما ينفقونه في أسباب خروجهم للغزو ، وهم الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم : « **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ، تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ** » . (15)

عيب عليك يا أخي أن تعيش بعيدا عن المعركة في زمن أصبح المسلمون نهبا لكل طامع ، ومتاعا لكل مغامر ، وطعما لكل آكل ، ونهبت خيراتهم ، واحتقرت أعدادهم ، وأهمل حسابهم فلا هم في العير ولا هم في النفير ، فقتلوا في افريقيا ، وذبحوا في آسيا ، وشردوا في الشام . بل كان الأولى بك أن تناصرهم بقلبك وأن ترجع كما رجع البكاءون .

عيب عليك ، وها هم المسلمون ينشرون دعوة الله في كل مكان ، والمراكز الاسلامية تقام في الدانمارك والمانيا وكندا وأمريكا ، وها هي مدينة لندن وحدها تضم بين جنباتها اكثر من خمسين مسجدا . فكيف لا تعيش آمالهم ؟

يتحدث الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي عن حادث المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فيقول :

« هذا هو الأساس الثاني الذي اعتمده رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل بناء المجتمع الاسلامي والدولة الاسلامية . وان أهمية هذا الأساس تظهر في الجوانب التالية :

« أولا : ان أي دولة لا يمكن أن تنهض وتقوم الا على أساس من وحدة الأمة وتساندها ، ولا يمكن لكل من الوحدة والتساند أن يتم بغير عامل التآخي والمحبة المتبادلة . فكل جماعة لا تؤلف بينها

---

(15) سورة : التوبة . الآيتان : 92 ، 93 .

آصرة المودة والتآخي الحقيقية ، لا يمكن أن تتحد حول مبدأ ما ، وما لم يكن الاتحاد حقيقة قائمة في الأمة أو الجماعة فلا يمكن أن تتألف منها دولة .

« على أن التآخي أيضا لا بد أن يكون مسبوقا بعقيدة يتم اللقاء عليها والايمان بها ، فالتآخي بين شخصين يؤمن كل منهما بفكرة أو عقيدة مخالفة للأخرى ، خرافة ووهم ، خصوصا اذا كانت تلك الفكرة أو العقيدة مما يحمل صاحبهما على سلوك معين في الحياة العملية .

« ومن أجل ذلك ، فقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أساس الأخوة التي جمع عليها أفئدة أصحابه ، العقيدة الاسلامية التي جاءهم بها من عند الله تعالى والتي تضع الناس كلهم في مصاف العبودية الخالصة لله تعالى دون الاعتبار لأي فارق الا فارق التقوى والعمل الصالح ، اذ ليس من المتوقع أن يسود الاخاء والتعاون والايثار بين أناس شتتتهم العقائد والأفكار المختلفة فأصبح كل منهم ملكا لأنانيته وأثرته وأهوائه .

« ثانيا : ان المجتمع - أي مجتمع - انما يختلف عن مجموعة ما من الناس منتثرة متفككة ، بشيء واحد ، هو قيام مبدأ التعاون والتناصر فيما بين أشخاص هذا المجتمع ، وفي كل نواحي الحياة ومقوماتها ، فان كان هذا التعاون والتناصر قائما طبق ميزان العدل والمساواة فيما بينهم ، فذلك هو المجتمع العادل السليم ، وان كان ذلك قائما على الحيف والظلم ، فذلك هو المجتمع الظالم المنحرف .

« واذا كان المجتمع السليم انما يقوم على أساس من العدالة في الاستفادة من أسباب الحياة والرزق ، فما الذي يضمن سلامة هذه العدالة وتطبيقها على خير وجه ؟

« ان الضمانة الطبيعية والفطرية الأولى لذلك ، انما هي التآخي والتوادد يليها بعد ذلك ضمانة السلطة والقانون .

« فما أرادت السلطة أن تحقق مبادىء العدالة بين الأفراد ، فانها لا تتحقق ما لم تقم على أساس من التآخي والمحبة فيما بينهم، بل ان هذه المبادىء لا تعدو أن تكون حينئذ مصدر أحقاد وضغائن تشيع بين أفراد ذلك المجتمع ، ومن شأن الأحقاد والضغان أن تحمل في طيها بذور الظلم والطغيان في أشد الصور ، والأشكال ·

« من أجل هذا ، اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حقيقة التآخي الذي أقامه بين المهاجرين والأنصار أساسا لمبادىء العدالة الاجتماعية التي قام على تطبيقها أعظم وأروع نظام اجتماعي في العالم · ولقد تدرجت مبادىء هذه العدالة فيما بعد بشكل أحكام وقوانين شرعية ملزمة ، ولكنها كلها انما تأسست وقامت على تلك « الأرضية » الأولى ، ألا وهي الأخوة الاسلامية ولولا هذه الأخوة العظيمة ، التي تأسست بدورها على حقيقة العقيدة الاسلامية ، لما كان لتلك المبادىء أي أثر تطبيقي وايجابي في شد أزر المجتمع الاسلامي ودعم كيانه ·

« ثالثا : المعنى التفسيري الذي صاحب شعار التآخي :

« لم يكن ما أقامه الرسول صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من مبدأ التآخي مجرد شعار في كلمة أجراها على ألسنتهم ، وانما كان حقيقة عملية تتصل بواقع الحياة وبكل أوجه العلاقات القائمة بين الأنصار والمهاجرين ·

ولذلك جعل النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الأخوة مسئولية حقيقية تشيع بين هؤلاء الاخوة ، وكانت هذه المسئولية تؤدى فيما بينهم على خير وجه ، وحسبنا دليلا على ذلك ما قام به سعد بن الربيع الذي كان قد آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين عبد الرحمن بن عوف ، اذ عرض على عبد الرحمن ابن عوف أن يشركه في بيته وأهله وماله في قسمة متساوية ، ولكن عبد الرحمن شكره وطلب منه أن يرشده الى سوق المدينة ليشتغل فيها ، ولم يكن سعد بن الربيع منفردا عن غيره من الأنصار فيما عرضه على أخيه كما قد يظن ، بل كان هذا شأن عامة الصحابة

في علاقتهم وتعاونهم مع بعض ، خصوصا بعد الهجرة وبعد أن آخى النبي صلى الله عليه وسلم فيما بينهم ·

« ولذلك أيضا ، جعل الله سبحانه وتعالى حق الميراث منوطا بهذا التآخي ، دون حقوق القرابة والرحم · فقد كان من حكمة هذا التشريع أن تتجلى الأخوة الاسلامية حقيقة محسوسة في أذهان المسلمين ، وأن يعلموا أن ما بين المسلمين من التآخي والتحابب ليس شعارا وكلاما مجردين ، وانما هي حقيقة قائمة ذات نتائج اجتماعية محسوسة تكون أهم أسس نظام العدالة الاجتماعية ·

« أما حكمة نسخ التوارث على أساس هذه الأخوة ، فيما بعد، فهي أن نظام الميراث الذي استقر أخيرا ، انما هو نفسه قائم على أخوة الاسلام بين المتوارثين ، اذ لا توارث بين دينين مختلفين ، الا أن الفترة الأولى من الهجرة وضعت كلا من الأنصار والمهاجرين أمام مسئولية خاصة من التعاون والتناصر والمؤانسة ، بسبب مفارقة المهاجرين لأهلهم وتركهم ديارهم وأموالهم في مكة ونزولهم ضيوفا على اخوانهم الأنصار في المدينة ، فكان ما أقامه الرسول صلى الله عليه وسلم من التآخي بين أفراد المهاجرين والأنصار ضمانة لتحقيق هذه المسئولية · ولقد كان من مقتضى هذه المسئولية أن يكون هذا التآخي أقوى في حقيقته وأثره من أخوة الرحم المجردة ·

« فلما استقر أمر المهاجرين في المدينة وتمكن الاسلام فيها ، وغدت الروح الاسلامية هي وحدها العصب الطبيعي للمجتمع الجديد في المدينة ، أصبح من المناسب انتزاع القالب الذي كان قد صب فيه نظام العلاقة بين المهاجرين والأنصار اثر التقائهم في المدينة ، اذ لا يخشى على هذا النظام بعد اليوم من التفكك والتميع في ظل الأخوة الاسلامية العامة وما يترتب عليها من المسئوليات المختلفة ، ولا ضير حينئذ أن يعود تأثير قرابة الرحم بين المسلمين من حيث كونها مؤثرا زائدا على قرابة الاسلام وأخوته ·

« ثم ان هذا التآخي الذي عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار كان مسبوقا بمؤاخاة أخرى اقامها النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين في مكة (...) .

«وهذا يؤكد لنا أن مناط الأخوة وأساسها انما هو رابطة الاسلام . غير انها احتاجت الى تجديد وتأكيد بعد الهجرة بسبب ظروفها وبسبب اجتماع المهاجرين والأنصار في دار واحدة ، وهي ليست في الحقيقة شيئا آخر غير الأخوة القائمة على أساس جامعة الاسلام ووحدة العقيدة، وانما هي تأكيد لها عن طريق التطبيق» . (11)

فتعال معي لنرى هل كان المسلمون يعون معنى الأخوة ويحافظون على شروطها :

1 - الحق :

يساعد المسلمون بعضهم بعضا على التمسك بالحق فاذا ما انحرف أحدهم عنه وحاد حاولوا اعادته الى حظيرة الاسلام والا فقد استحب الكفر على الهدى . وهذا ما فعله المسلمون الأوائل تطبيقا لعقد الأخوة العام الذي يقضي بالمساعدة على التمسك بالحق ، ومن مظاهر ذلك النصيحة بينهم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ...

أما في العقد الخاص فها هو مثال طلحة بن عبيد الله وكعب ابن مالك دليل حي على ذلك ؛ فقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما بعقد خاص ، وكانا يتساعدان على اتباع طريق الحق، وحينما تخلف الأخير عن غزة تبوك وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بالانتهاء عن مكالمته مع من تخلف ، ما كان من الأول الا السمع والطاعة لرسول رب العالمين . وبمجرد أن آذن النبي صلى الله عليه وسلم بتوبته وأتى كعب الى المسجد ، قام اليه أخوه وهناه بحرارة لم يرها من غيره . قال كعب متكلما عن هذه الحادثة :

(11) فقه السيرة : محمد سعيد رمضان البوطي . ص : 155 .

« وانطلقت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلقاني الناس فوجا فوجا ، يهنئونني بالتوبة . ودخلت المسجد ، فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس فقام الي طلحة ابن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني . والله ما قام الي رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة » .

فانظر الى هذه الأخوة يا هداك الله .

2 - المواساة :

المواساة شرط من شروط العقد الخاص ، وهي في نفس الوقت موجودة ضمنيا في العقد العام . وبامكانك أن ترى المواساة بين جميع المسلمين في تعزية بعضهم البعض عندما يتوفى أحد منهم . وفي تصدقهم على فقرائهم ، وتراها في الكلام الطيب بينهم .

أما المواساة في العقد الخاص فقد عرفها المسلمون عمليا دون حاجة الى نظريات أو تعقيد فلسفات ، وما مثال عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع عنا ببعيد ، فضلا عن الأمثلة التي روتها كتب السيرة عن نزول كل واحد من المهاجرين على أخ له في الدين بالمدينة وتجزئة الدار والمال بينهما مناصفة ولم تقف المواساة عند هذا الحد بل تعدتها الى أن يطلق الأنصاري زوجته الثانية ليزوجها لأخيه المسلم .

فأين المواساة بين المسلمين اليوم ؟ !

3 - الموالاة :

وعى المسلمون الأولون الموالاة بينهم وطبقوها أحسن تطبيق وكانوا يثورون في وجه كل من تسول له نفسه موالاة أهل النار ؛

« لما أجمع النبي صلى الله عليه وسلم المسير (الى فتح مكة)، كتب حاطب بن أبي بلتعة الى قريش يحذرهم من غارة عليهم من المسلمين . قال علي رضي الله عنه : فبعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير ، والمقداد . فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فان بها ظعينة (امرأة) معها كتاب فخذوه منها . قال :

فانطلقنا تعادي بنا خيلنا ، حتى أتينا الروضة ، فاذا نحن بالظعينة، قلنا لها : أخرجي الكتاب ، قالت : ما معي كتاب · فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب · قال : فأخرجته من عقاصها · فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة الى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم · فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا حاطب ما هذا قال : يا رسول الله ، لا تعجل علي ، اني كنت امرءا ملصقا في قريش – أي كنت حليفا لهم ولست منهم – وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم ، فأحببت اذ فاتني ذلك من النسب فيهم ، أن أتخذ عندهم يدا يحمون قرابتي ، ولم أفعله ارتدادا عن ديني ولا رضى بالكفر بعد الاسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انه قد صدقكم ، فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : انه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع من شهد بدرا فقال : « اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم » · فأنزل الله تعالى – بعد هذه الحادثة : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ، وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ ··· » الآيات الى قوله تعالى : « فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ » · (12)

فلو لم يكن حاطب من البدريين لضربت عنقه ، ولصار في عداد المنافقين لأنه أخل بعنصر واحد من عناصر الأخوة وهو الموالاة ·

4 – المناصر :

تآخى المسلمون الأولون المناصرة فطبقوها وأخلصوا تطبيقها الى درجة أن الواحد منهم كان يقدم على الموت بلا تردد من أجل أن ينصر أخاه المسلم ، واليك الدليل :

(12) متفق عليه واللفظ للبخاري ·

روى ابن هشام عن عبد الله بن جعفر بن المسور بن مخرمة عن أبي عوانة أن امرأة من العرب قدمت بجلب (13) لها ، فباعته بسوق بني قينقاع ، وجلست الى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت ، فعمد الصائغ الى طرف ثوبها ، فعقده الى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا منها ، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديا ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على يهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع · فكان هؤلاء أول يهود نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم (14) · فحاصرهم النبي عليه الصلاة والسلام مدة من الزمن ، حتى نزلوا على حكمه ؛ فأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها ، فخرجوا الى اذرعات الشام ، وهلك أكثرهم فيها ·

ان المناصرة بين المسلمين شرط من شروط أخوتهم ، وأخوتهم شرط من شروط انتصارهم في الدنيا وفوزهم في الآخرة ·

فالأخوة بين المسلمين ليست علاقة سائبة أو شعارا استهلاكيا لتحقيق أغراض دنيوية تنتهي في زمن قصير كما حدث في الثورة الفرنسية سنة 1789 م حينما رفعت الشعار الثلاثي « الحرية ، المساواة ، الأخوة » · هناك فرق شاسع بين ما هو بشري وبين ما هو من عند رب البشر ·

فالأخوة في دين الله واضحة العقود ، بينة المعالم ، لا يقوم بحقها الا المسلمون وجوههم لله حقا · وأحسب أن ذلك هو سر ذكر الله سبحانه الصحبة سبعا وتسعين مرة في كتابه العزيز ، وذكر الأخوة ستا وتسعين مرة فحسب ؛ أي أنه جعل ذكر الصحبة يفوق ذكر الأخوة بواحدة ، مع أن الأخيرة أكثر أهمية وأخطر مكانة ·

(13) هو ما يجلب الى السوق للبيع ·
(14) سيرة ابن هشام : 2/47 ·

وفي غريب القرآن نجد أن المخاللة أعظم مرتبة من الأخوة ومع ذلك فقد ورد ذكرها في القرآن الكريم ست مرات فحسب (15) . ومما يدفعك الى التأمل هو أن الله تبارك وتعالى لم يذكر الصداقة في القرآن الكريم الا مرتين مع أنها أقل مرتبة من مرتبة المخاللة .

ولقد تكلم ابن تيمية عن « عقد الأخوة » ، وبين أن الحقوق التي ينشئها – اذا كانت من جنس ما أقره النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديثه لكل مؤمن على المؤمنين – فانما هي : « حقوق واجبة بنفس الايمان ، والتزامها بمنزلة التزام الصلاة والزكاة والصيام والحج ، والمعاهدة عليها كالمعاهدة على ما أوجب الله ورسوله وهذه ثابتة لكل مؤمن على كل مؤمن وان لم يحصل بينهما عقد مؤاخاة » . (16)

ان هذا العقد الأخوي يزيد الواجب الايماني ثبوتا ، وما نراه الا كبيعة سلمة بن الأكوع الثانية – رضي الله عنه – تؤكد بيعته الأولى حين كانتا في ساعة واحدة يوم الحديبية تحت الشجرة ، كما جاء عنه في صحيح البخاري في قوله : بايعنا النبي صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ، فقال لي : يا سلمة ، الا تبايع ؟ قلت : يا رسول الله ، قد بايعت في الأول . قال : وفي الثاني » . (17)

فكذلك المسلمون أوجب الاسلام على بعضهم البعض حقوقا ، ويتبايعون بعقد أخوة في الثاني ، زيادة خير ، وابتغاء توثق ، وعنصر تذكير ، لتنشأ الجماعة المؤتلفة المتماسكة المستحكمة . (18)

فما أروع تلك الصورة وما أسعد ذلك الواقع الذي يعانق فيه الأسود الأبيض ، ويصافح فيه المسلم الجزائري المسلم الفطاني ، ويحنو فيه الغني على الفقير والقادر على العاجز ، ويبتسم فيه

---

(15) معجم مفردات ألفاظ القرآن : الراغب الأصفهاني .
(16) مجموع فتاوى ابن تيمية 101/11 .
(17) صحيح البخاري 98/9 .
(18) الرقائق : محمد أحمد الراشد . ص : 67 .

الكبير للصغير ، ويستمع فيه الفقيه المتبحر الى مواعظ الطالب الجامعي المبتدىء .

وما أحسن قول عبيدة بن قيس العقيلي حين عبر عن هذه الأخوة واقفا في وجه كل من أراد فصل روابط الاسلام بين المسلمين فقال :

ألا أيها الساعي بعرفة بيننا ... توقف هداك الله سبل الأطايب
فاقسم أنا والبرير اخوة ... مماتا وما جد كريم المناصب
فنحن وهم ركن منيع واخوة ... على رغم أعداء لئام مناقب
فانا لبر ما بقي الناس ناصرا ... وبر لنا ركن منيع المناكب (19)

ان عقد المؤاخاة يؤكد الأخوة بين المؤمنين ، ولم يحصل بين الأئمة خلاف في شروطه الا في التوارث عند عدم وجود القرابة كما كان الأنصار والمهاجرون يتوارثون بالتآخي الذي أقره النبي صلى الله عليه وسلم بينهم أول مقدمه المدينة ، فقد قال أكثر الفقهاء بنسخ ذلك ، وأجازه أبو حنيفة وأحمد بن حنبل في احدى الروايتين عنه .

---

(19) تاريخ ابن خلدون .

حقوق الأخوة وواجباتها

أما وقد عرفنا فضل الأخوة ومنزلتها عند الله ودقة مقياسها وأثره في الدنيا والآخرة فما هي حقوقها وما هي واجباتها ؟

ان التحدث عن حقوق الأخوة لشيء يملأ النفس شعورا بتقصيرها ، ويحني الهامة خجلا من غفلة صاحبها ، ولو عرج على القلب لأبكاه لوضاعة منزلته بين القلوب المؤمنة ولكثرة ما يقع فيه من الزلات حيال اخوانه في الله الذين كان ينبغي عليه أن يسلمهم قياده ، ويبذل غاية الجهد في اسعادهم والتذلل اليهم ٠

واياك أيها الأخ المؤمن أن تأخذك العزة لقولي : « والتذلل اليهم » لأن التذلل للاخوان في الله صفة لا تنفك عن المؤمنين ، ولا تزال عالقة بأتباع سيد المرسلين الى يوم الدين ٠٠ أليس الله عز وجل هو القائل في محكم كتابه : « **أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ** » (1) انك اذ تتذلل لأخيك في الله لا تتذلل لعروقه وعظامه وانما تتذلل للايمان الذي يملأ قلبه وللعقيدة التي يحملها بين جنبيه ٠ ورحم الله من قال : « نحن ملوك بهذه العقيدة ، عبيد لها » ٠

ومن أحب العقيدة أحب أبناءها وكل ما له صلة بأبنائها ٠ فاجتهد في ذلك رحمك الله وغفر لك وأعانك على نفسك ٠ وسنوجز

---

(1) المائدة : 54 ٠

لك فيما يأتي حقوق الأخوة مستعينين على ذلك ببعض ما جاء في كتاب « الاحياء » وعدة كتب أخرى ٠

وليس هذا الذي سنسوقه لك بأماني وخيالات فقد جعل سادتنا السلف هذه المقل الرفيعة حقائق يراها الناس بأعينهم ويلمسونها بأيديهم ٠ انه لسمو يعجز الخيال المجنح ان يلحق به أو أن يرتقي رقيه ولكنه حقيقة قائمة في نفوس المؤمنين ؛ ولا يغير هذه الحقائق أن يكابر فيها الذين لم تعرف قلوبهم نور الايمان كما ان انكار الأعمى لنور الشمس لا يعني غروبها ٠ فمن كان له قلب فليسمع ومن لم يكن له قلب فليلتمس قلبه الضائع أولا ثم ليعد الينا ، فسيدهشه ما يرى وسينسى ما كان فيه وسيفنى في أسمى المعاني التي عرفتها البشرية من قبل والتي لن تعرف أنبل منها في ما هو مقبل من الأيام والدهور ٠

ما أشبه القلوب أيها الاخوة بأجهزة الاستقبال والارسال ، بعضها يرهف حسه فلا تفلت منه الموجة الهينة الرفيقة ، وبعضها يغلظ حسه فلا يكاد يحس بأقوى الموجات اندفاعا وأشدها جموحا ٠

☆ ☆ ☆

١ – حق أخيك في قلبك : اذا صلح ما في قلبك تجاه أخيك فقد صلحت جميع معاملاتك له ٠ ويمكن أن نحدد أهم المشاعر الأخوية فيما يلي :

I – غفران الهفوات وتأويلها : ان من حق الاخوان أن تغفر هفوتهم وتستر زلتهم لأن من رام بريئا من الهفوات سليما من الزلات رام أمرا مستحيلا واقترح وصفا معجزا ٠ وقد قالت الحكماء : « أي عالم لا يهفو وأي صارم لا ينبو وأي جواد لا يكبو ؟ ! » ٠

وقالوا : « من حاول صديقا يأمن زلته ويدوم اغتباطه به كان كضال الطريق الذي لا يزداد لنفسه إتعابا الا ازداد من غايته بعدا» ٠
وقيل لخالد بن صفوان : أي اخوانك أحب اليك ؟ قال : « من غفر زللي وقطع عللي وبلّغني أملي » ٠

وقال بعض الشعراء :

ما كدت أفحص عن أخي ثقة ... الا ندمت عواقب الفحص

وأنشد الشافعي رضي الله عنه :

أحب من الاخوان كل مواتي ... وكل غضيض الطرف عن عثراتي
يوافقني في كل أمر أريده ... ويحفظني حيا وبعد وفاتي
فمن لي بهذا ليت أني أصبته ... فقاسمته ما لي من الحسنات ؟
تصفحت اخواني وكان أقلهم ... على كثرة الاخوان أهل ثقاتي

وأنشد ثعلب :

اذا أنت لم تستقلل الأمر لم تجد ... بكفيك في ادباره متعلقا
اذا أنت لم تترك أخاك وزلة ... اذا زلها أوشكتما أن تفرقا

وحكى الأصمعي عن بعض الأعراب أنه قال : « تناس مساوىء الاخوان يدم لك ودهم » ٠ ووصى بعض الأدباء أخا له فقال : « كن للود حافظا وان لم تجد محافظا ، وللخل واصلا وان لم تجد مواصلا » ٠

وقال رجل من اياد ليزيد بن المهلب :

اذا لم تجاوز عن أخ عند زلة ... فلست غدا عن عثرتي متجاوزا
وكيف يرجيك البعيد لنفعه ... اذا كان عن مولاك خيرك عاجزا؟
ظلمت أخا كلفته فوق وسعه ... وهل كانت الأخلاق الا غرائز ؟

وقال أبو مسعود كاتب الرضي : كنا في مجلس الرضى فشكا رجل من أخيه فأنشد الرضى :

أعذر أخاك على ذنوبه ... واستر وغض على عيوبه
واصبر على بهت السفيـ ... ـه وللزمان على خطوبه
ودع الجواب تفضلا ... وكل الظلوم الى حسيبه
واعلم بأن الحلم عنـ ... ـد الغيظ أحسن من ركوبه

قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري : « اذا واخيت أحدا في هذا الزمان فلا تعاتبه على ما تكرهه ، فانك لا تأمن من أن ترى في جوابك ما هو شر من الأول » ، قال : فجربته فوجدته كذلك ٠

وأطالبك بالعفو عن أخيك لأنك تعلم قبل أن تتخذه أخا أن أخاك ليس معصوما عن الأخطاء والا لكان نبيا من أنبياء الله ٠ فلا بد له اذا من هنات ولا بد من سقطات ٠ وانما انكشفت لك هذه السقطات لقربك منه وطول معاشرتك له، ولعلك لو كنت بعيدا لما رأيت ما رأيت ٠ فلا بد لك من رؤية ما تكره في بعض الأحيان والصمت على ما ترى ما دمت تعلم أن أخاك من الصنف الذي تحسن معاشرته والا لما آخيته من قبل ٠

اذا كنت في كل الأمور معاتبا ... صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحدا أو صل أخاك فانه ... مقارف ذنب تارة ومجانبه

وقال شاعر آخر :

واغفر عوراء الكريم ادخاره ... وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

وقال آخر :

خذ من خليلك ما صفا ... ودع الذي فيه الكدر
فالعمر أقصر من معاتبة الـ ... ـخليل على الغير

وقد أمر الله عز وجل بالعفو عن الناس في كثير من الآيات ومنها قوله : « فَمَنْ عَفَا (2) وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » ٠

واستمع اليه وهو يطالب أبا بكر خاصة – وجميع المسلمين عامة – باجراء النفقة ثانية على قريبه الذي سعى بحديث ضده ليس له به علم : « وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ٠

---

(2) الشورى : 40 ٠

أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ؟ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (3) ، « الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » (4) ٠

وقد وصف الله عز وجل المؤمنين بقوله : « رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » وهل تكون رحيما ان لم تعف عن زلة أخيك ٠ ووصفهم أيضا بقوله : « أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » وكيف يكون ذليلا على المؤمنين من لم يعف عن زلاتهم ويصبر على هفواتهم ؟ !

وحكي عن بنت عبد الله بن مطيع أنها قالت لزوجها طلحة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري وكان أجود قريش في زمانه : « ما رأيت قوما ألأم من اخوانك » قال : مه ، ولم ذلك ؟ » قالت : « أراهم اذا أيسرت لزموك واذا أعسرت تركوك » ٠ قال : « هذا والله من كرمهم يأتوننا في حال القوة بناعليهم ويتركوننا في حال الضعف منا عنهم » أي يأتوننا عندما يروننا قادرين على اعانتهم ويتركوننا عند رؤيتهم ضعفنا عن ذلك ٠ فانظر كيف تأول بكرمه هذا التأويل حتى جعل قبيح فعلهم حسنا وظاهر غدرهم وفاء وهذا محض الكرم ولباب الفضل ، وبهذا يلزم ذوي الفضل أن يتأولوا الهفوات من اخوانهم ٠ وقد قال بعض الشعراء :

أحب ما بدت من صاحب لك زلة
فكن أنت محتالا لزلته عذرا

أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه
كأن به عن كل فاحشة وقرا

سليم دواعي الصدر لا باسط أذى
ولا مانع خيرا ولا قائل هجرا

---

(3) النور : 22 ٠
(4) آل عمران : 134 ٠

والداعي الى هذا التأويل شيئان :

★ **التغافل** : تغافل عن زلة أخيك تغافل الفطن لا تغافل المغفل لأنك اذا استعملت تغافل الفطن كنت عالما بمشاكل أخيك مما يساعدك في اسعافه بالحلول عن طريق المناصحة لا عن طريق العتاب أو المفارقة .

قال بعض الحكماء : « وجدت أكثر أمور الدنيا لا تجوز الا بالتغافل » . وقال شبيب بن شبية : « الأريب العاقل هو الفطن المتغافل » . وقال الطائي :

ليس الغبي بسيد في قومه — لكن سيد قومه المتغابي

وقال أبو العتاهية :

ان في صحة الاخاء من النا
س وفي خلة الوفاء لقله

فالبس الناس ما استطعت على النقـ
ـص والا لم تستقم لك خله

عش وحيدا ان كنت لا تقبل العذ
ر وان كنت لا تجاوز زله

من أب واحد وأم خلقنا
غير أنا في المال أولاد عله

★ **التآلف** : عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : « أعجز الناس من عجز عن اكتساب الاخوان ، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم » . قال بعض الحكماء : « من علامة الاقبال اصطناع الرجال » . وقيل لعبد الملك بن مروان : ما أفدت في ملكك هذا ؟ قال : مودة الرجال .

وروي عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأس العقل بعد الايمان

بالله تعالى : التودد الى الناس » (5) . وقال أكثم بن صيفي (6) : « من شدد نفر ، ومن تراخى تألف ، والشرف في التغافل » .

ومما يتبع هذا الفصل تألف الأعداء بما يثنيهم عن البغضاء ويعطفهم على المحبة وذلك قد يكون صنوف من البر فانه ما أحد يعدم عدوا ولا يفقد حاسدا وبحسب قدر النعمة تكثر الأعداء والحسدة كما قال البحتري :

ولن تستبين الدهر موضع نعمة — اذا أنت لم تدلل عليها بحاسد

وقال سليمان بن داوود عليهما السلام لابنه : « لا تستكثر أن يكون لك ألف صديق فالألف قليل ولا تستقل أن يكون لك عدو واحد فالواحد كثير » . فنظم ابن الرومي هذا المعنى فقال :

تكثر من الاخوان ما استطعت انهم
بطون اذا استنجدتهم وظهور

وليس كثيرا ألف خل وصاحب
وان عدوا واحدا لكثير

وقال بعض البلغاء : « من استصلح عدوه زاد في عدده ومن استفسد صديقه نقص من عدده » . وقال بعض الأدباء : « العجب

---

(5) رواه الطبراني في الأوسط ، والخطابي في تاريخ الطالبين ، وعنه أبو نعيم في الحلية .

(6) أكثم بن صيفي بن رباح التميمي : أشهر حكام العرب في الجاهلية . أدرك مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال لقومه : « أحملوني اليه ، فقالوا : لا والله ، وأنت سن من أسنان العرب ، قال : فليأته أحدكم فليسأله عن ربه ، وعما أمره به ، فأتى حبيش بن أكثم فقال : يا محمد بم بعثك ربك ؟ قال : « بعثني بأن أكسر الأصنام » ، قال : بم أمرك ؟ قال : « **ان الله يأمر بالعدل والاحسان** ... » الآية ، فانصرف حبيش الى أبيه ، فأخبره بكلام النبي صلى الله عليه وسلم وتلا عليه الآية ، فجعل يرددها ويقول : « ان هذا الرب كريم ، يأمر بمحاسن الأخلاق ، وينهى عن مساويها » .

ممن يطرح عاقلا كافيا لما يضره من عداوته ، ويصطنع عاجزا جاهلا لما يظهره من محبته وهو قادر على استصلاح من يعاديه بحسن صنائعه وأياديه . وانشد أحد الشعراء :

بلوت الناس قرنا بعد قرن	فلم أر غير ختال وقالي
وذقت مرارة الأشياء جمعا	فما طعم أمر من السؤال
ولم أر في الخطوب أشد هولا	وأصعب من معاداة الرجال

وقال القاضي التنوخي :

الق العدو بوجه لا قطوب به	يكاد يقطر من ماء البشاشات
فأحزم الناس من يلقى أعاديه	في جسم حقد وثوب من مودات
الرفق يمن وخير القول أصدقه	وكثرة المزح مفتاح العداوات

وأنشد الشافعي رضي الله تعالى عنه :

لما عفوت ولم أحقد على أحد	أرحت نفسي من هم العداوات
اني أحيي عدوي عند رؤيته	لأدفع الشر عني بالتحيات
وأظهر البشر للانسان أبغضه	كأنما قد حشى قلبي محبات
الناس داء ، دواء الناس قربهم	وفي اعتزالهم قطع المودات

فاستعاض الشافعي هنا عن اظهار العداوة بالتآلف واستدفع به اضرارها كالنار يستدفع بالماء احراقها ويستفاد به انضاجها . قال الشاعر :

واذا عجزت عن العدو فداره	وامزح له ان المزاح وفاق
فالنار بالماء الذي هو ضدها	تعطي النضاج وطبعها الاحراق

2 – ترك البغض والاستثقال : لا تبغض أخاك ان فعل كبيرة ولا تهجره فتعين الشيطان عليه . قيل لأبي الدرداء : ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا ؟ فقال : انما أبغض عمله ، والا فهو أخي .

قال تعالى : « عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً » (7) . وقال عليه السلام : « أحبب حبيبك هونا ما ، عسى أن يكون بغيظك يوما ما . وأبغض بغيظك هونا ما ، عسى أن يكون

(7) الممتحنة : 7 .

حبيبك يوما ما » (8) . وقال عمر رضي الله عنه : « لا يكن حبك كلفا ، ولا بغضك تلفا » وهو أن تحب تلف صاحبك مع هلاكه .

كان نعيمان بن عمرو النجاري الأنصاري رجلا صالحا ، وكان يصيب من الشراب !! فيجاء به الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقيم عليه الحد . ولعنه رجل مرة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تفعل انه يحب الله ورسوله » .

قد كان الحد له طهرة ، وكانت التوبة له مرجوة ، وكان عنده من محبة الله ورسوله ما يرجح بذلك النقص والبلية ، ولعن المعيّن لا يجوز .

أتقول : كيف كان يحب الله ورسوله ، ويشرب الخمر ؟ ! فنقول: قد برهن على صدق حبه لله ورسوله ، ببذله نفسه في تلك المشاهد العظيمة التي شهدها ، وكما يقول الشاعر :

يجود بالنفس ان ضن الجواد بها
والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وأي دليل أدل على صدق الحب من بذل النفس ؟ فكيف تبغض بعد هذا من يحب الله ورسوله ؟ !

ان من كان تغيّره رجوعا عن الله وظهور حكم سواء السابقة ، يجب بغضه وموافقة الحق فيه . أما من كان تغيره عثرة حدثت وفترة وقعت ، يُرَجَّى عَودُه فلا ينبغي أن يبغض ولكن يبغض عمله في الحالة الحاضرة ، ويلحظ بعين الود منتظرا له الفرج والعود الى أوطان الصلح ، فقد ورد : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما شتم القوم الرجل الذي أتى الفاحشة قال : « مه » وزجرهم بقوله : « لا تكونوا عونا للشيطان على أخيكم » . (9)

(8) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال الحافظ العراقي : رجاله ثقات رجال مسلم .
(9) رواه البخاري من حديث أبي هريرة .

كان أبو نر يقول : « اذا انقلب – الأخ – عما كان عليه ، أبغضه من حيث أحببته » وقال غيره : « لا يبغض الأخ بعد الصحبة ولكن يبغض عمله » قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم في عشيرته: « فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » (10) ولم يقل اني بريء منكم ، مراعاة لحق القرابة ولحمة النسب والصداقة لحمة كلحمة النسب كما قيل ٠

سئل حكيم مرة : أيهما أحب اليك ، أخوك أو صديقك ؟ فقال : « انما أحب أخي اذا كان صديقي » ٠

فاذا استثقلت أخاك المسلم لغير سبب فاعلم ان نفسك مريضة وأن قلبك عليل ولا بد من الدواء العاجل ٠ فاتهم نفسك وأزل ذلك من باطنك ، لأن انطواء الضمير على مثله للمصاحب وليجة في الصحبة ٠

قال أبو بكر الكتاني : صحبني رجل وكان على قلبي ثقيلا ، فوهبت له شيئا بنية أن يزول ثقله من قلبي ، فلم يزل ، فخلوت به يوما وقلت له : ضع رجلك على خدي ، فأبى ، فقلت له لا بد من ذلك ، ففعل ذلك فزال ما كنت أجده في باطني ٠

وفي ما تظهره من ود لأخيك راع الاعتدال بين الانقباض والانبساط فقد ورد عن الشافعي رحمه الله أنه قال : « الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم ، والانبساط اليهم مجلبة لقرناء السوء ، فكن بين المنقبض والمنبسط » ٠

3 – البقاء على الوفاء : ومعنى الوفاء الثبات على الحب وادامته الى الموت معه ، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه ٠ قال بعضهم : « قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره في حال الحياة » ٠ ولذلك ٠ روي أنه صلى الله عليه وسلم أكرم عجوزا أدخلت عليه

(10) (سورة : الشعراء ، الآية : 216) ٠

فقيل له في ذلك ، فقال : « انها كانت تأتينا أيام خديجة وان حسن العهد من الايمان » ٠ (11)

فمن الوفاء للأخ مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه والمتعلقين به ، حتى الكلب الذي على باب داره ينبغي أن يميز في القلب عن سائر الكلاب ٠

ان الشيطان لا يحسد متعاونين على بر ، كما يحسد متواخين في الله متحابين فيه ٠ قال الله تعالى : « وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ » (12) وقال مخبرا عن يوسف : « مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي » (13) ، فالشيطان يحاول قطع حبل الوفاء ٠

ومن الوفاء أن تبقى متواضعا مع أخيك مهما ارتفع شأنك ، واتسعت ولايتك ، وعظم جاهك ٠ قال بعض الحكماء : « اذا ولي أخوك ولاية فثبت على نصف مودته لك فهو كثير » ٠

ومن الوفاء أن لا توافق أخاك فيما خالف الحق فيه وانصح له ٠ قال الأحنف : « الاخاء جوهرة رقيقة ، ان لم تحرسها كانت معرضة للآفات ٠ فاحرسها بالكظم حتى تعتذر الى من ظلمك ، وبالرضى حتى لا تستكثر من نفسك الفضل ، ولا من أخيك التقصير » ٠

ومن الوفاء أن تجزع الجزع من مفارقة اخوانك ٠ قال الشاعر :

وجدت مصيبات الزمان جميعها ... سوى فرقة الأحباب هينة الخطب

وانشد الامام ابن عيينة هذا البيت وقال : « لقد عهدت أقواما فارقتهم منذ ثلاثين سنة ، ما يخيل الي أن حسرتهم ذهبت من قلبي» ٠

ومن الوفاء أن لا تصادق عدو صديقك ٠ قال الشافعي رحمه الله : « اذا أطاع صديقك عدوك فقد اشتركا في عداوتك » ٠

(11) رواه الحاكم من حديث عائشة وقال صحيح على شرط الشيخين وليس له علة ٠
(12) (سورة : الاسراء ، الآية : 53) ٠
(13) (سورة : يوسف ، الآية : 100) ٠

وها هو محمد بن حزم ـ أحد الأئمة الأعلام يرسم صورة غاية في السماحة والنبل ، فهو وفي غاية الوفاء لمن عـرف ولو لحظـة ، باق على الوفاء بالرغم من تبدل الزمان والمكان :

« لقد منحني الله عز وجل من الوفاء لكل من يمت الي بلقيـة واحدة ، ووهب لي من المحافظة لمن يتذمم مني ولو بمحادثته ساعة حظا أنا له شاكر وحامد ، ومنه مستمد ومستزيد ، وما مـن شيء أثقل علي من الغدر ، ولعمري ما سمعت نفسي قـط في الفكـرة في اضرار من بيني وبينه أقل ذمام ، وان عظمت جريرته ، وكثرت الي ذنوبه ، لقد دهمني من هذا غير قليل فما جزيت عـلى السـوءى الا بالحسنى والحمد لله على ذلك كثيرا ·

« دعني أخبرك أني جبلت على طبيعتين لا يهنيني معهما عيش أبدا ، واني لأبرم بحياتي باجتماعهما وأود التثبت من نفسي أحيانا لأفقد ما أنا به من النكد من أجلها وهما :

« وفاء لا يشوبه تلون ، قد استوت فيه الحضرة والمغيب والباطن والظاهر ، تولده الألفة التي لم تعزف بها نفسي عما دربته ولا يتطلع الى عدم من صحبته ، وعزة نفس لا تقر على الضيم ، مهمته لأقـل ما يرد عليها من تغير المعارف مؤثرة للمـوت عليـه ، واني لأجفى فأحتمل ، وأستعمل الأناة الطويلة والتلوم الذي لا يكاد يطيقه أحد ، فاذا أفرط الأمر وحميت نفسي تصبرت وفي القلب ما فيه ·

« ما نسيت ودا لي قط وان حنيني الى كل عهد تقدم لي ليغُصّني بالطعام ويشرقني بالماء ، وقد استراح من لم تكن هذه صفته ، ومـا مللت شيئا بعد معرفتي به وما رغبت في الاستبدال الى سبب مـن أسبابي مذ كنت ، لا أقول في الألاف والاخوان وحدهم ، ولكـن في كل ما يستعمل الانسان من ملبوس ومركوب ومطعوم » · (14)

(14) النص من كتاب : « الأخلاق والسير » ·

4 ـ ترك التكلف : لا تكلف أخاك ما يشق عليه ، ولا تستمـد منه من المال والجاه ، ولا تطالبه بالتواضع لك ، والتفقد لأحوالك ، والقيام بحقوقك ، بل لا تقصد بمحبته الا الله تعالى ، تقربـا اليـه بالقيام بحقوقه ، وتحمل مؤنته ، واستعانة به على دينك ·

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : « شر الأصدقاء من تكلف لك ، ومن أحوجك الى مداراة ، وألجـأك الى اعتـذار » · وقالت عائشة رضي الله عنها : « المؤمن أخو المؤمن ، لا يغتنمـه ولا يحتشمـه » ·

وقال أحد الحكماء : « انما تقاطـع النـاس بالتكليـف ، يزور أحدهم أخاه فيتكلف له ، فيقطعه ذلك عنه » · وكان جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما يقول : « أثقل اخواني علي : من يتكلف لي وأتحفظ منه · وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي » ·

قال بعضهم : اخواني كلهم خير مني · قيل : وكيف ذلك ؟ قال : كلهم يرى لي الفضل عليه ومن فضلني على نفسه فهو خير مني » ·

وقـــال آخـــر :

كم صديـــق عرفتـــه بصـــديق ... صار أحظى من الصديق العتيق

ورفيـــق رأيتـــه في طريـــق ... صار عندي هو الصديق الحقيقي

ومن تتمة الانبساط وترك التكلف أن تشاور أخاك في كـل ما تقصده ، وتقبل اشاراته فقد قال الله تعـالى : « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » (15) وينبغي أن لا تخفي عنه شيئا من أسرارك ·

ومن ترك التكلف ما رواه الترمذي في الشمائل من حديث علي أنه صلى الله عليه وسلم كان يعطي كل من جلس اليه نصيبه مـن وجهه فلا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه ممن جالسه ومن سأله حاجة لم يرده الا بها أو بميسور من القول ·

(15) (سورة : آل عمران ، الآية : 159) ·

5 – ملازمة الايثار : وهو أن تفضل أخاك على نفسك ·

والايثار يتطلب ترك الأثرة ، وهي اختصاص المرء نفسه بأحسن الشيء دون أخيه · فآثر أخاك بكل ما تقدر عليه من أمر الدين والدنيا ، لأن الايثار شعور في النفس ينعكس في سلوك ظاهري ·

والايثار يتطلب ترك الحسد ، قال الله تعالى في الأنصار : « **يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** » (16) ، فقوله تعالى : « ولا يجدون في صدرهم حاجة مما أوتوا » أي لا يحسدون اخوانهم على مالهم ، وهذان الوصفان بهما يكمل صفو المحبة ، أحدهما : انتزاع الحسد على شيء من أمر الدين والدنيا · والثاني: الايثار بالمقدور ·

ولبعضهم نظما :

تذلل لمن ان تذللت له ... يرى ذاك للفضل لا للبله
وجانب صداقة من لا يزال ... على الأصدقاء يرى الفضل له

ذكر المفسرون أن آيات سورة الانسان من قوله تعالى : « **إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ** » الى قوله « **وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا** » نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين وجارية كانت لهم تسمى فضة ، وقصة هذه الآيات : أن الحسن والحسين مرضا ، فنذر علي وفاطمة وفضة على شفاء الحسن والحسين صيام ثلاثة أيام فشفي الحسنان ·· فصام علي وفاطمة وفضة أداء لنذرهم ، ولم يكن عندهم شيء من الطعام يومذاك فاستقرض علي رضي الله عنه ثلاثة أصوع شعير ، فطحنت فاطمة للطعام صاعا منها ، وصنعت خبزا ، وصلى علي المغرب وقدمت الطعام ليأكلوا ، فطرق مسكين بابهم ، وطلب طعاما ، فأعطوه طعامهم ، ولم يتذوقوا الا الماء ·

وفي اليوم الثاني صاموا أيضا ، وطحنت فاطمة قسما من الشعير ، ثم صنعت منه خبزا ، وقدمته الى علي رضي الله عنه ،

(16) سورة : الحشر ، الآية : 9) ·

واذا بيتيم يطرق الباب ، ويطلب من أهل بيت النبوة أن يطعموه طعاما ، فأعطوه الطعام ·· أما هم فلم يتذوقوا شيئا غير الماء ·

وفي اليوم الثالث صاموا كذلك وطحنت فاطمة رضي الله عنها ما تبقى من شعير واختبزته وقدمته الى علي ·· واذا بأسير يطلب منهم طعاما ، فأعطوه له ، ولم يتذوقوا الا الماء ··

فلما كان اليوم الرابع ، وقضوا نذرهم جاء علي ومعه الحسن والحسين رضي الله عنهما وبهما ضعف شديد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى عليه الصلاة والسلام لما شاهد ما بهما من جوع وضعف ، فنزل جبريل عليه السلام بهذه السورة – سورة الانسان – ومن جملة آياتها الآية المشخصة للحادثة ذاتها ، وهي قوله تعالى : « **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا · إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا** » فهذا درس للايثار عظيم ·

وبلغ من ايثار فاطمة رضي الله عنها لأبيها عليه الصلاة والسلام أنها جاءت يوم الخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منهمك مع أصحابه في حفر الخندق ، لتحصين المدينة وحماية الاسلام ·· جاءت وهي تحمل كسرة خبز ، فرفعتها اليه وسألها فقالت : من قرص اختبزته لابنيّ ، جئتك منه بهذه الكسرة ·

وها هو أحد الشعراء المعاصرين يجعل الايثار أحد أركان بيعة لاخوانه حيث يقول :

أبداً أظل مع التقاة ، مع الدعاة العاملين
الناشرين لواء أحمد عاليا في العالمين
المنصفين المؤثرين على النفوس الآخرين
معهم اظل ، مع التقاة ، مع الدعاة المسلمين (17)

☆ ☆ ☆

ب – حق اخيك في نفسك : حق أخيك في نفسك هو أن تعينه على قضاء حوائجه في غير حرص على الدنيا ، وأ نتعينه على نوائب الدهر ، وأن تقوم بزيارته وخدمته ·

(17) صالح حيادي (مجلة التربية الاسلامية : 55/7) ·

1 – الاعانة على قضاء الحوائج : اعانة الاخوان على درجات ؛ أدناها أن تقضي له حوائجه في بشاشة وسرور اذا كان لك فضل من وقت بعد أن يكون قد سألك عن قضاء هذه الحوائج فعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : « ما اختلف رجل الى مجلسي ثلاثا من غير حاجة له الي ، فعلمت ما مكافاته من الدنيا» . وقال سعيد بن العاص : « لجليسي علي ثلاث : اذا دنا رحبت به ، واذا حدث اقبلت عليه ، واذا جلس أوسعت له » .

ومن الاعانة بالنفس أن تسأل عن حوائج أخيك في غير احراج له . ولقد كان في السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة ، يقوم بحاجتهم ، ويتردد كل يوم اليهم ، ويمونهم من ماله ، فكانوا لا يفقدون من أبيهم الا عينه . بل كانوا يرون منه ما لم يروا من أبيهم في حياته . وكان الواحد منهم يتردد الى باب دار أخيه ، ويسأل ويقول : هل لكم زيت ؟ هل لكم ملح ؟ هل لكم حاجة ؟ وكان يقوم بها من حيث لا يعرفه أخوه .

ومن الاعانة أن لا تحوج أخاك الى السؤال اطلاقا وان تكون حاجة أخيك مثل حاجتك.وما قصة عمر بن الخطاب حين سبقه الى خدمة العجوز أخوه أبو بكر عنا بخافية . ولذلكقال الشاعر :

وذي ندب دامي الأظل قسمته ... محافظة بيني وبين زميلي
وزاد رفعت الكف عنه عفافة ... لأوثر في زادي علي اكيلي

وقال آخر :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يستغن عنه ويذمم

وتأمل هذه الصورة الرائعة من التعاون بين المسلمين ؛ بينما النبي والناس في المسجد ينتظرون بلالا أن يأتي فيؤذن ، اذ أتى بلال فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما حسبك يا بلال ؟ فقال : اني اجتزت بفاطمة وهي تطحن ، واضعة الحسن عندها وهو يبكي فقلت لها : أيهما أحب اليك ، ان شئت كفيتك ابنك ، وان شئت كفيتك

الرحى ، فقالت : أنا أرفق بابني ، فأخذت الرحى فطحنت ، فذاك الذي حبسني . (18)

ومن أدنى درجات الاعانة بالنفس كذلك أن تنقذ أخاك مما لم به من أخطار شريطة أن لا تصاب أنت بمكروه ، وأعلاها أن تقدم قضاء حوائجه على قضاء حوائجك ، وأن تنقذه من الأخطار ولو كان في ذلك حتفك .

روي أن خليفة أمر بضرب رقاب ثلاثة من الصالحين ، فيهم أبو الحسين النوري . فتقدم أبو الحسين ليكون أول من تضرب عنقه . فعجب الخليفة لذلك وسأله عن سببه . فقال أبو الحسين رحمه الله : أحببت أن أوثر اخواني بالحياة في هذه اللحظات . فكان ذلك سببا في نجاتهم جميعا .

فاذا قضيت حاجة لأخيك فلا تطلب بها غير وجه الله أبدا . قضى ابن شبرمة حاجة كبيرة لبعض اخوانه . فجاءه بهدية ، فقال ابن شبرمة : ما هذا ؟ قال أخوه : لما أسديته الي ، فقال ابن شبرمة : « خذ مالك عافاك الله . اذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها فتوضأ للصلاة وكبر عليه أربع تكبيرات ، وعده في الموتى».

قال بعضهم : « اذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها ، فذكره ثانية فلعله أن يكون قد نسي ، فان لم يقضها فكبر عليه ، واقرأ هذه الآية : « وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ » (19) . وهذا عسى أن يحيي الله قلبه كما يحيي الموتى . وقال أحد الصالحين : « اني لأتسارع الى قضاء حوائج أعدائي ، مخافة أن أردهم فيستغنوا عني » هذا في الأعداء فكيف في الأصدقاء ؟ !

2 – الشفقة في غير افراط : اذا لم تشفق على أخيك كما تشفق على نفسك فلا خير فيك ، وقد قال الله تعالى : « رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » (20)

---

(18) «تنبيه الخواطر ونزهة النواظر» : لأبي الحسن ورام ين أبي فراس المالكي الأشتري .

(19) (سورة : الأنعام ، الآية : 36) .

(20) (سروة : الفتح ، الآية : 29) .

اشارة الى الشفقة والاكرام ، وعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك بقوله : « ان الله أواني في أرضه وهي القلوب ، فأحب الأواني الى الله ألينها وأرقها » (21) ألينها وأرقها على الاخوان .

وكان الحسن يقول : « اخواننا أحب الينا من أهلنا وأولادنا وان أهلنا يذكروننا بالدنيا واخواننا بالآخرة .

ومن تمام الشفقة أن تتنغص لفراق أخيك وأن تستوحش بانفرادك عنه . عندما أحست فاطمة رضي الله عنها بالأجل يدنو ، طلبت من أسماء أن تضع لها فراشا وسط البيت ، فاضطجعت في فراشها ، وهي مستقبلة القبلة ، ثم دعت أسماء وأم أيمن ، وطلبت احضار علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فحضر ، فقالت : « يا ابن العم ، انني لا أرى ما بي الا أنني لاحقة بأبي ساعة بعد ساعة ، وأنا أوصيك بأشياء في قلبي » قال لها علي : أوصيني بما أحببت يا بنت رسول الله ، فجلس عند رأسها ، وأخرج من كان في البيت ، ثم قالت : « يا ابن العم ، ما عهدتني كاذبة ولا خائنة ولا خالفتك منذ عاشرتني » ، فقال : معاذ الله ، أنت أعلم ، وأبر ، وأتقى ، وأكرم ، وأشد خوفا من الله من أن أوبخك بمخالفتي ، وقد عز علي مفارقتك وفقدك ، الا انه أمر لا بد منه ، والله لقد جددت علي مصيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد عظمت وفاتك وفقدك فانا لله وانا اليه راجعون من مصيبة ما أفجعها وآلمها وأحزنها ، هذه ، والله ، مصيبة لا عزاء عنها ، ورزية لا خلف لها ، ثم بكيا جميعا ساعة ، وأخذ على رأسها وضمها الى صدره ، ثم قال أوصيني بما شئت ، فانك تجدينني وفيا ، أمضي كلما أمرتني به ، وأختار أمرك على أمري ، ثم قالت : جزاك الله عني خير الجزاء ، وأوصته وصية بليغة أرادت أن تختم بها علاقة الحب والشفقة والرحمة بينها وبين علي ، فلم يملك بطل المعارك وقاهر الصناديد أمام هذه الكلمات الدافئة الحزينة ، الا أن ينفجر باكيا ، والا أن ينطلق حزينا ، والا أن يضمها

(21) قال الحافظ العراقي : رواه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني واسناده جيد .

الى صدره ، وهو يدري أن لا لقاء الا في ظلال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي لحظات الفراق ، وساعة الوداع لا يحضر في النفس شيء كحضور الأحبة وتصور الغياب ولذلك روي أن عليا رضي الله عنه حين أنزل فاطمة في قبرها هاجت به الأحزان ، وازدحمت في نفسه ، وعظم عليه الفراق ، كبر عليه الموقف ، وهو يرى دموع الحزن تتواثب من عيني الحسنين ، على قبر فاطمة ، فوقف على قبرها معبرا عما في نفسه من حب لها ، ووفاء لزوجيتها ، وحزن على فراقها ، ووفاء لأبيها صلى الله عليه وسلم .

ولكن احذر أيها الأخ الكريم أن يدفعك حرصك على نفس أخيك أن ترغبه في ترك الجهاد حتى لا يمسه الضر ، وتدبر قول الله عز وجل : « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** » (22) .

واسمع الى الله عز وجل وهو يقول في مجال التقريع والتأنيب: « **قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا** » (23) .

واعلم أيها الأخ أنك ان رضيت له التخلف عن ركب الجهاد فما نصحت له ولا قدمت اليه خيرا لأنك حجبت عنه أكرم منزلة يطمع فيها طامع ، منزلة الشهادة في سبيل الله . فاذا كنت حريصا على حياة أخيك فحبب له الشهادة وسبلها وشجعه على ارتياد حياضها : « **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** » (24) .

(22) آل عمران : 156 .
(23) الأحزاب : 18 .
(24) آل عمران : 169 .

واحذر أن يشتد بك الاشفاق فلا تستطع تحمل الفراق وتقـــول ما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ قام فقال : « ان رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفي ، وان رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما مات ، ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلي ثم رجع اليهم بعد أن قيل : قد مات · ووالله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله مات » · (25)

وليس من الشفقة أن تتخذ سلوكا فظا مع أخيك · غلب الغضب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرة فجعل يضرب غلاما لـــه بالسوط ، فلما رآه الرسول ذكره ورده الى الحقيقة التي نسيهـا في غضبه ، فكفر عن غفلته باعتاق غلامه · يقول ابن مسعـود : « كنت أضرب غلاما بالسوط ، سمعت صوتا من خلفي « اعلم يا أبا مسعود » فلم أفهم الصوت من الغضب ، فلما دنا مني اذا هـو رسول الله ، واذا هـو يقول : « اعـلم أبـا مسعود أن الله اقـدر عليك منك على هذا الغلام » · فسقط السوط من يدي من هيبتـه ، وقلت : يا رسول الله هو حر لوجه الله · فقال « أما لو لم تفعـل للفحتك النـار » ·

3 — النجدة عند الانحراف : لا تدع أخاك للاحداث تتحكم فيه وتنال منه ، بل عليك أن تبذل له من ذات يدك ، وأن تدفع عنه كـل أذى يصيبه ، أو شر يقع عليه ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمـه ، ولا يخذلـه ولا يحقـره ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم عـلى المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه » (26) وقال أيضا : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » · قيل يا رسول الله ، عرفنا كيف ننصـره

(25) « مختصرة سيرة ابن هشام » : محمد عفيف الزعبي ·
(26) رواه أصحاب السنن عن أبي هريرة ·

مظلوما ، فكيف ننصره ظالما ؟ قال : « تمنعه من الظلم ، فان ذلـك نصـره » · (27)

اذا انحرف أخوك وارتد عن دين الله فلا مودة تربطك وإيـاه وانما يكون هو أحق بالتزامه ودعوته الى الاسلام ؛ فتبين له نقطة زلله وتدعوه الى اصلاحها والرجوع الى ما كان عليـه · أمـا اذا حافظ على الايمان وانحرف في سلوكه فواجب عليك مودته واكثار النصح له عسى أن يتذكر أو يخشى، وهذا هو مذهب جماعة مـن الصحابة ومعهم أبو الدرداء الذي قال : « اذا تغير أخوك ، وحـال عما كان عليه ، فلا تدعه لأجل ذلك ، فان أخاك يعوج مرة ، ويستقيم أخـرى » ·

سأل عمر بن الخطاب بعض المسافرين عن أخ له كان قد آخـاه وخرج الى الشام، فقال : ما فعل أخي ؟ قالوا : ذلك أخو الشيطان · قال : مه · قالوا : أنه قارف الكبائر حتى وقع في الخمر · قـال لرجل منهم : اذا أردت الخروج فآذني ، فكتب عند خروجه اليـه : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ « حمٓ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ » (28) الآية ، ثم عاتبه تحت ذلك وعذله · فلما قرأ الكتاب بكى ، وقال صدق الله العظيم ونصح لي عمر · فتاب ورجع ·

وكذلك حكي عن أخوين من السلف ، انقلب أحدهما عن الاستقامة، فقيل لأخيه : ألا تقطعه وتهجره ؟ فقال : أحوج ما كان الي في هـذا الوقت لما وقع في عثرته أن آخذ بيده ، وأتلطف له في المعاتبة ، وأدعو له بالعود الى ما كان عليه ·

قال بعضهم : « لا تحدثوا الناس بزلة العالم ، فان العالم يزل الزلة ثم يتركهـا » ·

(27) رواه الشيخان من حديث جابر ·
(28) (سورة : غافر ، الآية : 1) ·

وروي في الاسرائيليات ، أن اخوين عابدين كانا في جبل ، نزل أحدهما ليشتري من المصر لحما بدرهم ، فرأى امرأة بغيا عند اللحام ، فرمقها وعشقها ، واجتذبها الى خلوة وواقعها ثم أقام عندها ثلاثا ، واستحيا أن يرجع الى أخيه حياء من جنايته ، فافتقده أخوه واهتم بشأنه ، فنزل الى المدينة ، فلم يزل يسأل عنه حتى دل عليه . فدخل عليه وهو جالس معها فاعتنقه وجعل يقبله ويلتزمه . وأنكر الآخر أنه يعرفه قط لفرط استحيائه منه . فقال : قم يا أخي فقد علمت شأنك وقصتك ، وما كنت قط أحب الي ولا أعز من ساعتك هذه . فلما رأى أن ذلك لم يسقطه من عينه ، قام فانصرف معه ، فهذه طريقة قوم من الصحابة رضوان الله عليهم ومنهم أبو الدرداء .

فلا تنس يا أخي ان هذا العصر عصر فسوق وفساد وخروج عن شرعة الرحمن ، والمغريات كثيرة بل هناك مخططات افسادية مضبوطة الأصول متشعبة الفروع ؛ فمن تيارات جنسية تعمل على نشر الفاحشة الى تيارات فكرية تعمل على تكوين ارتباطات زائفة الى كثير من التيارات التي لا يمكن حصرها . ورغم تعددها فانها متفقة كلها على مبدا واحد وهو محاربة الله وشرعه وعباده المؤمنين به الطائعين له . ومتفقة على وسيلة واحدة وهي تصخير الاعلام بحذافيره لهذه المهمة الخطيرة . فكيف تقاطع أخاك الذي انحرف ؟!

ربما سمعتك تقول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر المسلمين أن يقاطعوا الذين تخلفوا عن الجهاد في غزوة تبوك مثل كعب بن مالك بن أبي كعب ، ومرارة بن ربيع ، وهلال بن أمية ...

واني أوافقك ابتداء لأنه ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة تبوك دخل المدينة وبدأ بالمسجد ، فصلى فيه ركعتين ، ثم جلس للناس فجاءه المخلفون وطفقوا يعتذرون اليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا . فقبل منهم علانيتهم واستغفر لهم ، وأرجأ أمر كعب بن مالك وصاحبيه الى أن نزلت آيات بقبول توبتهم .

وقد روى كعب رضي الله عنه خبره في ذلك – في حديث طويل رواه البخاري ومسلم وجاء فيه قوله : كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلف عنه في تلك الغزاة .. وطفقت أغدو لكي أتجهز مع المسلمين ، فأرجع ولم أقض شيئا ، فأقول في نفسي : أنا قادر عليه (أي لن يعيقني شيء عن سرعة التجهز) فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد ولم أقض من جهازي شيئا . ولم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو (أي خرجوا وفاتوا) وهممت أن أرتحل فأدركهم – وليتني فعلت – فلم يقدر لي ذلك . فكنت اذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت فيهم ، أحزنني أني لا أرى الا رجلا مغموسا بنفاق أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء .. ولما بلغني أنه توجه قافلا حضرني همي ، فطفقت أتذكر الكذب ، وأقول بماذا سأخرج من سخطه غدا ؟ ! .. واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي ، ولما قيل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقبل ، زاح عني الباطل وأجمعت أن أصدقه ، فجئته ، فلما سلمت عليه تبسَّم تبسُّم المغضب ، ثم قال : تعال ، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت : بلى ، اني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا ، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضي به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه ، اني لأرجو فيه عفو الله . والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ! . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي الله فيك . فقمت ، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني يؤنبونني (أي يعتبون عليه انه لم يعتذر كالآخرين) فقلت لهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا : نعم ، رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت : من هما ؟ فقالوا : مرارة بن الربيع وهلال بن أمية . فذكروا لي رجلين صالحين شهدا بدرا لي فيهما

أسوة ٠٠ ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن
كلامنا أي الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا
لنا حتى تنكرت لي الأرض فما هي بالتي أعرفها فلبثنا على ذلك
خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ،
وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدَهم ٠ فكنت أخرج فأشهد الصلاة
مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول
الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة
فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا ؟ ثم أصلي
قريبا منه أسارقه النظر ، فاذا أقبلت على صلاتي أقبل الي ، واذا
التفت نحوه أعرض عني ٠ وبينما أنا أمشي بسوق المدينة اذا نبطي
من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من
يدلني على كعب ابن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له حتى اذا
جاءني دفع الي كتابا من ملك غسان ، فاذا فيه : « أما بعد فانه
قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله في دار هوان ولا
مضيعة ، فالحق بنا نواسِك » ، فقلت لما قرأتها وهذا أيضا من
البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرته بها (أي أحرقتها) ٠ حتى اذا
مضت أربعون ليلة من الخمسين اذا رسول رسول الله صلى الله
عليه وسلم يأتيني فقال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك
أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا ، بل
اعتزلها ولا تقربها ، وأرسل الى صاحبي بمثل ذلك ٠ فقلت
لامرأتي : الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا
الأمر ٠٠ فلبثت بعد ذلك عشر ليالي حتى كملت لنا خمسون ليلة
من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا ٠ فلما
صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من
بيوتنا ٠ فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله « قد ضاقت
على نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت » سمعت صوت صارخ
أوفى على جبل سلع بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر ٠ فخررت
ساجدا ، وعرفت أنه قد جاء فرج ، وآذن رسول الله صلى الله عليه

وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس
يبشروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشرون ٠٠ ولما جاءني الذي سمعت
صوته يبشرني ، نزعت له ثوبي فكسوته اياهما ببشراه ، والله
ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت الى
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلقاني الناس فوجا فوجا
يهنئونني بالتوبة ٠ ودخلت المسجد ، فاذا رسول الله صلى الله
عليه وسلم جالس حوله الناس فقام الي طلحة بن عبيد الله يهرول
حتى صافحني وهنأني والله ما قام الي رجل من المهاجرين غيره ولا
أنساها لطلحة ، قال كعب : فلما سلمت على رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور : أبشر بخير يوم مر
عليك منذ ولدتك أمك ٠ قال : قلت أمن عندك يا رسول الله أم من
عند الله ؟ قال : لا بل من عند الله ٠ فقلت : يا رسول الله ! ان من
توبتي أن أنخلع من مالي صدقة الى الله ورسوله ٠ قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك ٠ فقلت:
يا رسول الله ، انما نجاني الصدق ، وان من توبتي أن لا أحدث الا
صدقا ما بقيت ٠ وأنزل الله تعالى على رسوله : « **لقد تاب الله على
النبي والمهاجرين والأنصار** » (29) الى قوله تعالى « **وكونوا مع
الصادقين** » ٠ (30)

ويعلق على ذلك الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي فيقول :

« اعلم أن في حديث كعب الطويل الذي ذكرناه عبرا ودلالات
هامة نذكر منها ما يلي :

« أولا : مشروعية الهجر لسبب ديني ، فقد نهى النبي صلى الله
عليه وسلم المسلمين عن مكالمة كعب وصاحبيه طيلة تلك المدة ،
قال ابن القيم : وفيه دليل أيضا على أن رد السلام على من يستحق
الهجر ليس بواجب (31) ، اذ كان مما قاله كعب : فكنت أخرج

---

(29) التوبة : 117 ٠
(30) رواه البخاري ومسلم (باختصار) ٠
(31) زاد المعاد : ابن قيم الجوزية : ج 3 ، ص : 20 ٠

فاشهد الصلاة مع المسلمين .. وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا ؟ فلو كان رد السلام عليه واجبا لكان لا بد من اسماعه .

« ثانيا : وابتلاء آخر امتحن الله به كعبا رضي الله عنه ، ومن الجدير التأمل فيه لتعلم كيف ينبغي أن يكون ايمان المسلم بربه جل جلاله . فقد رأيت أن ملك غسان أرسل اليه معظما ومبجلا يدعوه الى ترك هؤلاء الذين آذوه وأعرضوا عنه ، واللحاق ببلاده ، ليجد عنده الاكرام والسعادة ،وكان قد بلغ الكرب اذ ذاك بكعب أشده ، ولكن هذا الابتلاء لم يكشف الا عن المزيد من ايمانه بربه وشدة اخلاصه ومحبته له .

« وكم من أقدام زلت ، وتزل اليوم ، في هذا المنزلق الذي وضع أمام كعب رضي الله عنه لابتلائه به واختباره ، فمر من فوقه عزيزا بايمانه قويا باسلامه ، لم يتأثر به ولا انزلق فيه » . (32)

وتكلم الشيخ المرشد في رسالته التي عنوانها « دعوتنا » عن ضرورة الوحدة وكراهية الفرقة فقال رحمه الله :

« هؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخالف بعضهم بعضا في الافتاء ، فهل أوقع ذلك اختلافا بينهم في القلوب ؟ وهل فرق وحدتهم أو مزق رابطتهم ؟ اللهم لا ، وما حديث صلاة العصر في بني قريظة ببعيد .

« (...) وثم أمر آخر جدير بالنظر ، ان الناس كانوا اذا اختلفوا رجعوا الى الخليفة فيقضي بينهم ، ويرفع حكمه الخلاف ، أما الآن فأين الخليفة ؟ واذا كان الأمر كذلك ، فأولى بالمسلمين أن يبحثوا عن القاضي ، ثم يعرضوا قضيتهم عليه ، فان اختلافهم من غير مرجع لا يردهم الا الى خلاف آخر » .

(32) فقه السيرة : الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي .

فلا تدع أخاك يضيع في زمن ضيعت فيه الخلافة ، وأصبح فيه المسلمون غثاء كغثاء السيل .

4 — الزيارة في غير تقليل ولا اكثار : زر أخاك لوجه الله ، فقد ورد في الحديث القدسي : « وجبت محبتي للذين يتلاقون في » (رواه الطبراني في الكبير عن عبادة بن الصامت) وقال الله تعالى أيضا في الحديث الآخر : « وجبت محبتي للمتحابين في ، والمتجالسين في ، والمتباذلين في ، والمتزاورين في » (رواه أحمد والحاكم والطبراني في الكبير وابن حبان البيهقي عن معاذ) .

وقال الحسن : « من شيع أخاه في الله ، بعث الله ملائكة من تحت عرشه يوم القيامة يشيعونه الى الجنة» . وقال أحد الصالحين : « تفقدوا اخوانكم بعد ثلاث ، فان كانوا مرضى فعودوهم ، أو مشاغيل فأعينوهم ، أو كانوا نسوا فذكروهم » .

وفي هذا السياق روي أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يلتفت يمينا وشمالا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله عن ذلك ، فقال : أحببت رجلا فأنا أطلبه ولا أراه . فقال : « اذا أحببت أحدا فاسأله عن اسمه واسم أبيه ومنزله وعشيرته » (33) . وقال الشعبي في الرجل يجالس الرجل ، فيقول أعرف وجهه ولا أعرف اسمه ؛ « تلك معرفة النوكى » . (34)

وروي عن أبي هريرة وابن عباس رضي الله تعالى عنهما انهما قالا : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من زار أخاه المسلم فله بكل خطوة عتق رقبة حتى يرجع ، ويحط عنه بها الف سيئة ، ويكتب له الف حسنة ، ويرفع له نور كنور العرش عند ربه » (رواه حارث ابن أبي أسامة) .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الا أخبركم برجالكم من أهل الجنة ؟ » قلنا :

(33) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي في شعب الايمان بسند ضعيف ، ورواه الترمذي وقال غريب .
(34) النوكى : مفردها الأنوك وهو الأحمق .

بلى يا رسول الله ٠ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « النبي في الجنة ، والصديق في الجنة ، والشهيد في الجنة ، والرجل يزور أخاه المسلم في ناحية المصر لا يزوره الا لله في الجنة » (رواه الحافظ أبو نعيم) ٠

فاذا زرت أخاك ووجدته في حاجة الى بذلك أو معونة فعليك ذلك ، اذ روي عن بريرة عن النبي عليه الصلاة والسلام انه قال : « ان في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله للمتحابين ، والمتزاورين ، والمتباذلين فيه » (رواه الطبراني) ٠

جاء في الحديث القدسي انه : « أوحى الله الى داود : يا داود، ان العبد ليأتي بالحسنة يوم القيامة فاحكمه بها الى الجنة ٠ قال داود : يا رب ومن هذا العبد ؟ قال : مؤمن يسعى لأخيه المؤمن في حاجته يحب قضاءها قضيت على يديه أو لم تقض » (رواه ابن عساكر والخطيب عن علي) ٠

أقصد التوسط في زيارة أخيك وغشيانه غير مقلل ولا مكثر ، فان تقليل الزيارة داعية الهجران وكثرتها سبب الملال ٠ قال لبيد :

توقف عن زيارة كل يوم ... اذا أكثرت ملك من تزور

وقال آخر :

أقلل زيارتك الصديق ولا تطل ... هجرانه فيلج في هجرانه
ان الصديق يلج في غشيانه ... لصديقه فيمل من غشيانه
حتى يراه بعد طول سروره ... بمكانه متثاقلا بمكانه
واذا توانى عن صيانة نفسه ... رجل تنقص واستخف بشأنه

ولندع الشافعي يحدثنا عن رحلته في طلب العلم لنستشف منها أدب الزائر والمزور :

« فارقت مكة وأنا ابن أربع عشرة سنة ، لا نبات بعارضي ، من الأبطح الى ذي طوى ٠ ودخلت المدينة في اليوم الثامن بعد صلاة العصر فأتيت مسجد رسول الله ، فرأيت مالك بن أنس مؤتزرا

ببردة متشحا بأخرى ، وهو يقول : حدثني نافع عن ابن عمر عن صاحب هذا القبر ـ أي رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ، فلما رأيت ذلك هبته الهيبة العظيمة ، وجلست حيث انتهى المجلس ، فأخذت عودا من الأرض فجعلت كلما أملى مالك حديثا كتبته بريقي على يدي ، ومالك ينظر الي من حيث لا أعلم ، حتى انفض المجلس وجلس مالك ينتظر العشاء المغرب ، ولم يرني انصرفت فيمن انصرف، فأشار الي بيده فدنوت منه ، فنظر الي ساعة ثم قال لي : أحرمي أنت ؟ قلت : وقريشي ٠ قال : كملت صفاتك ، فلم رأيتك سيء الأدب ٠ فقلت : وما الذي رأيت من سوء أدبي ٠ قال : رأيتك وأنا أملي الألفاظ لرسول الله ، وأنت تلعب بريقك في يدك ٠ قلت : عدم الورق ، وكنت أكتب ما تقول ٠ فجذب مالك يدي ، فقال : ما لي لا أرى عليها شيئا ٠ قلت : ان الريق لا يثبت على اليد ، ولكني وعيت جميع ما حدثت به ، منذ وقت جلست الى حين قطعت ٠ فعجب مالك من ذلك ، فقال : أعد علي ولو حديثا واحدا ، قلت : حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر ، وأشرت بيدي الى القبر كاشارته عن النبي حتى أعدت عليه خمسة وعشرين حديثا حدث بها من وقت جلس ، الى وقت قطع المجلس ٠

« وسقط القرص ، وصلى مالك المغرب وسألني النهوض معه فقمت غير ممتنع الى ما دعاني اليه ، فلما أتيت الدار أدخلني الغلام الى مخدع وقال لي : القبلة في هذا البيت هكذا ، وهذا اناء فيه ماء ، وهذا الخلاء من الدار ، فما لبثت غير بعيد حتى أقبل والغلام حامل طبقا فوضعه في يده ، وسلم على مالك ، ثم قال للعبد : أغسل علينا ، فوثب العبد الى الاناء ، وأراد أن يغسل علي أولا فصاح عليه مالك ، وقال : في أول الطعام لرب البيت وفي آخر الطعام للضيف ، وكشف مالك الطبق وكان فيه صفحتان في أحدهما لبن وفي الأخرى تمر ، فسمى وسميت ٠ وأتينا على جميع الطعام، وظن مالك انا لم نأخذ من الطعام الكفاية ، فقال لي : يا أبا عبد الله، هذا جهد من مُقِلٍّ ، اني فقير معدم ٠ فقلت : لا عذر على من أحسن

انما العذر على من أساء • فاقبل مالك يسألني عن أهل مكة ، حتى دنا العشاء الآخرة ، ثم قال : حكم المسافر أن يحمل نفسه بالاضطجاع • فنمت ليلتي ، فلما كان الثلث الأخير من الليل عند انفجار الصبح ، قرع مالك علي الباب فقال لي : الصلاة يرحمك الله ، فرأيته حاملا اناء فيه ماء ليسبغ علي ذلك ، فقال لي : لا يرعك ما رأيت مني فخدمة الضيف فرض ، فتجهزت للصلاة ، وصليت الفجر مع مالك في مسجد رسول الله ، والناس لا يعرف بعضهم بعضا ، وجلس كل واحد منا في مصلاه ، فسبح الله الى أن طلعت الشمس على رؤوس الجبال • فصلى كل امرىء منا ما قسم له ثم جلس في مجلسه بالأمس ، وناولني الموطأ أمليه وأقرؤه على الناس وهم يكتبون ، فاتيت على حفظه من أوله الى آخره من القراءة •

« واقمت ضيفا على مالك ثمانية أشهر ، فما علم أحد من الأنس الذي كان بيننا أينا الضيف • ولما ازمعت السفر عدت الى مالك فقلت له : قد خرجت من مكة في طلب العلم بعد استئذان العجوز – أي أمه – ، فأعود اليها أو أرحل وفي طلب العلم فائدة • قال : ألم تعلم أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع • فلما أردت الظعن زودني مالك » •

وان في هذه القصة لضربة قاسية لكل يد سوداء تحاول تشويه أخوة المسلمين وتفريق صفوفهم بافتعال الشقاقات •

☆ ☆ ☆

جـ – حق أخيك في لسانك : قد لا يحتاج أخوك الى مالك لأن الله أغناه من فضله ، وقد يتوفر له من يقوم له على حوائجه واعانته دون أن يلجأ اليك لتعينه أو تأخذ بيده ، ولكنه دائم الحاجة الى قلبك ولسانك ، فما فائدة مالك ونفسك ان كان هذا مصحوبا بقوارص الكلم ؟ وهذه حقوق أخيك في لسانك :

1 – ترك الخوض فيما يؤذيه : ان كثيرا من الأحاديث مردية لأنها توقعك في كلام لا يرضاه أخوك عن نفسه بله أن يرضاه لك •

★ استر عورة أخيك ولا تفشها للناس • قال عيسى عليه السلام للحواريين : كيف تصنعون اذا رأيتم اخاكم نائما وقد كشف

الريح ثوبه عنه ؟ قالوا : نستره ونغطيه • قال : بل تكشفون عورته • قالوا : سبحان الله ! من يفعل هذا ؟ فقال : أحدكم يسمع بالكلمة في أخيه ، فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها •

قيل لبعض الأدباء : كيف حفظك للسر ؟ قال : « أنا قبره » • وقيل : « صدور الأحرار قبور الأسرار » • وقالوا أيضا : « ان قلب الأحمق في فيه ، ولسان العاقل في قلبه » أي لا يستطيع الأحمق اخفاء ما في نفسه فيبديه من حيث لا يدري به • فمن هذا يجب مقاطعة الحمقى ، والتوقي عن صحبتهم •

وصاغ هذا المعنى أحد الشعراء فقال :

وعوراء قد قيلت فلم أستمع لها ... وما الكلم والعوراء لي بقبول
وما أنا للشيء الذي ليس نافعي ... ويغضب منه صاحبي بقؤول
وأعرض عن مولاي ان شئت سبني ... وما كل يوم حلمه بأصيل
ولم يلبث الجهال أن يتهضموا ... أخا الحلم ما لم يستعن بجهول
ولست بمبد للرجال سريرتي ... ولا أنا عن أسرارهم بسؤول
ولا أنا يوما للحديث سمعته ... الى هاهنا من هاهنا بنقول

وأراد الزيادة عليه آخر فقال :

وما السر في صدري كثاو بقبره
لأني أرى المقبور ينتظر النشرا
ولكنني أنساه حتى كأنني
بما كان منه لم أحط ساعة خبرا
ولو جاز كتم السر بيني وبينه
عن السر والأحشاء لم تعلم السرا

ولهذا أفشى بعضهم سرا الى أخيه ثم قال له : حفظت ؟ فقال : بل نسيت • وكان أبو سعيد الثوري يقول : اذا أردت أن تؤاخي رجلا فاغضبه ، ثم دس عليه من يسأله عنك وعن أسرارك ، فان قال خيرا وكتم سرك فاصحبه • وقيل لأبي يزيد : من تصحب من

الناس ؟ قال : « من يعلم منك ما يعلم الله ، ثم يستر عليك كما يستره الله » ٠

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انما يتجالس المتجالسان بالأمانة ولا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يكره » (35) ٠ وقال العباس لابنه عبد الله ، اني أرى هذا الرجل، يعني عمر رضي الله عنه ، يقدمك على الأشياخ ، فاحفظ عني خمسا : « لا تفشين له سرا ، ولا تغتابن عنده أحدا ، ولا تجرين عليه كذبا ، ولا تعصين له أمرا ، ولا يطلعن منك على خيانة » ، فقال الشعبي : كل كلمة من هذه الخمس خير من الف ٠

قال الامام أبو حامد الغزالي في « احياء علوم الدين » : وله أن ينكره – أي السر – وان كان كاذبا ، فليس الصدق واجبا في كل مقام ٠ فانه كما يجوز للرجل أن يخفي عيوب نفسه وأسراره وان احتاج الى الكذب ، فله أن يفعل ذلك في حق أخيه ، فان أخاه نازل منزلته ، وهما كشخص واحد لا يختلفان الا بالبدن ٠ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة » ٠ (36)

ولذلك قيل لأحدهم : كيف تحفظ السر ؟ قال : « أجحد المخبر، وأحلف للمستخبر » ٠ وقال آخر : « أستره وأستر أني أستره » ٠ وعبر عنه ابن المعتز فقال :

ومستودعي سرا تبوأت كتمه   فأودعته صدري فصار له قبرا

★ لا تغتب أخاك ؛ فالغيبة هي أن تذكر أخاك بما فيه مما هو يكرهه ، وأما ما ليس فيه فهو البهتان ٠ حكي أن أبا الليث البخاري خرج حاجا فجعل في جيبه درهمين وحلف وقال : ان اغتبت في طريق مكة ذاهبا أو جائيا فلله علي أن أصرف الدرهمين ، فرجع

---

(35) رواه ابن المبارك والحاكم وصححه ٠

(36) رواه الشيخان من حديث ابن عمر وابن ماجه من حديث ابن عباس ٠

الى منزله والدرهمان في جيبه ، فقيل له في ذلك فقال : « لأن أزني بامرأة مائة مرة أخف الي من أن أغتاب مرة واحدة » وهذا لأن الرجل يزني ثم يتوب فيتوب الله عليه وأما صاحب الغيبة فلا يغفر له حتى يغفر له صاحبه ٠

قال عبد الله بن المبارك لسفيان الثوري : « ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة ؛ ما سمعته يغتاب عدوا » ٠ قال : « هو أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهبها » ٠

وانظر حسن أدب الرجال في هذا المجال ٠ قال ابن المبارك : دخل أبو حنيفة على مالك بن أنس فرفعه ثم قال بعد خروجه : أتدرون من هذا ؟ قالوا : لا ٠ قال : « هذا النعمان ، لو قال هذه الأسطوانة من ذهب لخرجت كما قال » ٠ فلم يكتف مالك بترك عيوب أخيه ، بل قال في مغيبه ما يرفع من مكانته وهو غزارة العلم وحضور البديهة ٠

★ وكما يجب عليك السكوت بلسانك عن مساويه ، يجب عليك السكوت بقلبك وذلك بترك اساءة الظن ٠ فسوء الظن غيبة بالقلب، وهو منهي عنه أيضا ٠ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « ان الله قد حرم على المؤمن من المؤمن دمه وماله وأن يظن به ظن السوء » (37) ٠ وقال أيضا : « اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث » (38) ٠

★ وسوء الظن يدعو الى التجسس في تطلع الأخبار ، والتحسس بالمراقبة بالعين ٠ قال عليه الصلاة والسلام : « لا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا » (39) ٠

---

(37) رواه الحاكم في التاريخ ، وأبو علي النيسابوري موقوفا على ابن عباس ، وابن ماجه ، ومسلم عن أبي هريرة ٠

(38) متفق عليه من حديث أبي هريرة ٠

(39) متفق عليه من حديث أبي هريرة وهو بعض الحديث الذي قبله ٠

★ مما يؤذي أخاك المماراة ، فلا تدافع أخاك في كل ما يتكلم به وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم : « من ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة ، ومن ترك المراء وهو محق بني لـه بيت في أعلى الجنة » (40) مع أن تركه مبطلا واجب · اذا رددت على أخيك كلامه فقد نسبته الى الجهل والحمق ، أو الى الغفلة والسهو عن فهم الشيء على ما هو عليه · قال ابن عباس : « لا تمار سفيها فيؤذيك ، ولا حليما فيقليك » ·

فالمماراة تعني اظهار التمييز بمزيد العقل والفضل ، واحتقار المردود عليه باظهار جهله ، وهذا يشتمل على التكبر والاحتقار ، والايذاء والشتم بالحمق والجهل ، ولا معنى للمماراة الا هذا · فكيف يكون موافقا للأخوة والمصافاة · وانظر الى أي حد انتهى السلف في الحذر من المماراة ، وقالوا : « اذا قلت لأخيك قم ، فقال الى أين ؟ فلا تصحبه لأنه ينبغي أن يقوم ولا يسأل » وهـذه درجة رفيعة من درجات الاخاء · فاعلم أن قوام الأخوة بالموافقة في الكلام والفعل والشفقة · قال أبو عثمان الحيري : « موافقة الاخوان خير من الشفقة عليهم » ·

واعلم أن التقاطع يقع أولا بالآراء ، ثم بالأقوال ، ثم بالأبدان · والتقاطع بالآراء هو المماراة أو عدم موافقة الاخوان · وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله اخوانا · المسلم اخو المسلم؛ لا يظلمه ولا يحرمه ولا يخذله · بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم » (41) وأشد الاحتقار المماراة ·

فاصمت عن كل ما يكره أخوك شريطة عدم تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فلا تسخر منه ولا تلمزه ، ولا تكشف

(40)رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه ·

(41) رواه مسلم من حديث أبي هريرة وأوله متفق عليه من حديثه وحديث أنس ·

عن عيب وجدته فيه ، وانما تستر عيوبه ما وجدت الى ذلك من سبيل · قال الله تعالى : « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ، بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ · يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ ، إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ** » · (42)

2 ـ اعمال اللسان بما ينفعه في غيابه : ان الأخوة كما تقتضي السكوت عن المكاره تقتضي أيضا النطق بالمحاب · بل هو أخص بالأخوة · لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور ·

★ دافع عن أخيك في غيبته اذا تعرض أحد لعرضه بكلام صريح ، فاهمال تمزيق عرضه كاهمال تمزيق لحمه · فأخسس بأخ يراك والكلاب تفترسك ، وتمزق لحمك وهو ساكت ، وتمزيق الأعراض أشد على النفوس من تمزيق اللحوم · فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من امرىء يخذل امرءا مسلما في موضع تنتهك فيه حرمته ، وينتقص فيه من عرضه الا خذله الله في موضع يحب فيه نصرته ، وما من امرىء ينصر مسلما في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته الا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته » (رواه أبو داود من حديث جابر) ·

وعنه عليه الصلاة والسلام أيضا : « من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة » (رواه أبو داود من حديث أبي الدرداء) · وقال أيضا : « المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن أخو المؤمنين ، يكف عن ضيعته ويحوطه من ورائه » (رواه أبو داود عن أبي هريرة) · أي أن المؤمن يبصر أخاه بعيوبه ، ويحافظ على ماله ولو كان غائبا ، ويحوطه دفاعا عنه ·

(42) (سورة : الحجرات ، الآيتان : 11 و 12) ·

قال بعضهم : « ما ذكر أخ لي بغيب الا تصورته جالسا فقلت فيه ما يجب أن يسمعه لو حضر » . وقال آخر : « ما ذكر أخ لي الا تصورت نفسي في صورته ، فقلت فيه مثل ما أحب أن يقال في » وهذا من صدق الاسلام ، وهو أن لا يرى لأخيه الا ما يراه لنفسه .

ولهذا شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم الأخوين باليدين، تغسل احداهما الأخرى ، لينصر احدهما الآخر وينوب عنه . وقد نظر أبو الدرداء الى ثورين يحرثان في فدان ، فوقف أحدهما يحك جسمه ، فوقف الآخر . فبكى وقال : « هكـذا الاخـوان في الله ، يعملان لله ، فاذا وقف أحدهما وافقه الآخر » .

★ استغفر لأخيك وادع له بظهر الغيب فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الله للمسلمين ويستغفر لهم .

حكي أن أخوين ابتلي أحدهما بهوى ، فاظهر عليه أخاه فقال : اني ابتليت بهوى فان شئت أن لا تعقد على محبتي لله فافعل ، فقال : ما كنت لأحل عقد اخائك لأجل خطيئتك ، وعقد بينه وبين الله عقدا أن لا ياكل ولا يشرب حتى يعافيه الله تعالى مـن هـواه . وطوى أربعين يوما كلما يساله عن هواه ، يقول : ما زال ، فبعد الأربعين أخبره أن الهوى قد زال فاكل وشرب .

وادع لأخيك في حياته وبعد مماته ، بكل ما يحبه لنفسه ولأهله وكل ما يتعلق به . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا دعا الرجل لأخيه بظهر الغيب قال الملك : ولك بمثل ذلك » (43) . وفي الحديث : « دعوة الأخ لأخيه في الغيب مستجابة » . (44)

كان أبو يوسف صاحب أبي حنيفة يذكره ويقول : « اني لأدعو له قبل أبوي » ويقول : « تغمد الله أبا حنيفة برحمته ، وجـازاه خيرا ، فانه أطعمني الدنيا والآخرة اطعاما » .

(43) رواه مسلم من حديث أبي الدرداء .
(44) رواه مسلم والدارقطني في العلل من حديث أبي الدرداء .

وكان أبو الدرداء يقول : « اني لأدعو لسبعين من اخواني في سجودي ، أسميهم بأسمائهم » .

وقد أدرك مجدد هذا القرن ما للدعاء من أثر في ربط القلـوب وتاليفها فنصح كل مسلم على وجه هذه الأرض أن يدعو للمسلمين عند ساعة الغروب تماما من كل ليلة : فيتلو هذه الآية الكريمة في تدبر كامل : « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ، وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . (45)

ثم يتلو الدعاء المأثور بعد ذلك : « اللهم ان هذا اقبال ليلك ، وادبار نهارك ، وأصوات دعاتك فاغفر لي » .

ثم يستحضر صورة من يعرف من اخوانه في ذهنه ويستشعر الصلة الروحية بينه وبين من لم يعرفه منهم ، ثم يدعو لهم بمثـل هذا الدعاء : « اللهم انك تعلم أن هذه القلوب قد اجتمعت عـلى محبتك ، والتقت على طاعتك ، وتوحدت على دعوتـك ، وتعاهدت على نصرة شريعتك ، فوثق اللهم رابطتها وأدم ودها ، واهدهـا سبلها ، واملأها بنورك الذي لا يخبو ، واشرح صدورهـا بفيض الايمان بك ، وجميل التوكل عليك ، واحيها بمعرفتك ، وأمتها على الشهادة في سبيلك ، انك نعم المولى ونعم النصير ، اللهم آميـن ، وصل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

فلا تتخلف يا أخي عن ضم صوتك الى أصوات اخـوانك في مشارق الأرض ومغاربها عسى الله أن يوحد صفوفنا وينصرنا على أعدائنـا .

اتل هذا الدعاء بخشوع وتدبر وصدق . ولندع لبعضنـا في دنيانا هذه ، فان سبق أحدنا أخاه الى ربه دعا لـه واستغفـر .

(45) آل عمران : 26 .

قال الله تعالى : « وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (46) · وقال : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » · (47)

وانظر الى موسى وهو يدعو لنفسه ولأخيه نفس الدعاء بعد أن يتقدم اليه أخوه باعتذاراته في قوله تعالى : « قَالَ : ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ · قَالَ : رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » · (48)

وادع لأخيك ميتا لأنه ورد عن بعض السلف أنه قال : « الدعاء للأموات بمنزلة الهدايا للاحياء ، فيدخل الملك على الميت ومعه طبق من نور ، عليه منديل من نور ، فيقول : هذه هدية لك من عند أخيك فلان، من عند قريبك فلان، فيفرح بذلك كما يفرح الحي بالهدية» ·

ولذلك كان محمد بن يوسف الأصفهاني يقول : « وأين مثل الأخ الصالح ؟ أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون بما خلفت ، وهو منفرد بحزنك ، مهتم بما قدمت وما صرت اليه ، يدعو لك في ظلمة الليل، وأنت تحت أطباق الثرى » ·

أما اذا وقعت فرقة ومباينة فلا تذكر أخاك الا بخير · قيل : كان لبعضهم زوجة ، وكان يعلم منها ما يكره ، فكان يقال له استخبارا عن حالها فيقول : « لا ينبغي للرجل أن يقول في أهله الا خيرا » ، ففارقها وطلقها ، فاستخبر عن ذلك فقال : « امرأة بعدت عني وليست مني في شيء ، كيف أذكرها ؟ وهذا من التخلق بأخلاق الله تعالى اذ أنه سبحانه يظهر الجميل ويستر القبيح ، وندعوه فنقول : « يا ساتر العيوب » ·

(46) آل عمران : 170 ·
(47) الحشر : 10 ·
(48) الأعراف : 150 ، 151 ·

3 – تقليل العتاب مع المناصحة (*) : ان كثرة العتاب سبب للقطيعة ، واطراح جميعه دليل على قلة الاكتراث بأمر أخيك وقد قيل : « علة المعاداة قلة المبالاة » ، بل تتوسط حالتا تركه وعتابه ؛ فيسامح بالمتاركة ويستصلح بالمعاتبة ، فان المسامحة والاستصلاح اذا اجتمعا لم يلبث معهما نفور ولم يبق معهما وجد · قال بعض الحكماء : « لا تكثرن معاتبة اخوانك فيهون عليهم سخطك » · وقال منصور النمري :

أقلل عتاب من استربت بوده ... ليست تنال مودة بعتاب

وقال بشار بن برد :

اذا كنت في كل الأمور معاتبا ... صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
وان أنت لم تشرب مرارا على القذى ... ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه ؟
فعش واحدا أو صل أخاك فانه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه

قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري : « اذا واخيت أحدا في هذا الزمان فلا تعاتبه على ما تكرهه ، فانك لا تأمن من أن ترى في جوابك ما هو شر من الأول » · قال : فجربته فوجدته كذلك ·

وقال بعضهم : « الصبر على مضض الأخ خير من معاتبته ، والمعاتبة خير من القطيعة ، والقطيعة خير من الوقيعة » ·

★ انصح لأخيك فان النصيحة واجبة على كل مسلم لأخيه المسلم في كل حال وزمان ومكان · ولقد أعطي للنصيحة قدر عظيم في الاسلام حتى جعلت كأنها الدين كله للاعتناء بها ، فعن أبي رقية تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الدين النصيحة » · قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » (49) · وجاء

(49) رواه مسلم ·

في الخبر أيضا : « المؤمن مرآة المؤمن » (50) أي يرى ما لا يرى من نفسه فيستفيد المرء بأخيه معرفة عيوب نفسه ، ولو انفرد لم يستفد · كما يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته الظاهرة ·

نبه أخاك على عيوبه ، وقبح له القبيح وحسن له الحسن ، ولكن ينبغي أن يكون ذلك في سر لا يطلع عليه أحد · فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة ، وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة · قال الشافعي رضي الله عنه : « من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه » · وقيل لأحدهم : أتحب من يخبرك بعيوبك ؟ فقال : « ان نصحني فيما بيني وبينه فنعم ، وان قرعني بين الملأ فلا » · ومن قبل قيل : « النصيحة أمام الناس فضيحة » ·

ان من ينبهك على فعل مذموم تعاطيته ، أو صفة مذمومة اتصفت بها لتزكي نفسك عنها ، كان كمن ينبهك على حية أو عقرب تحت ذيلك ، وقد همت باهلاكك ، فان كنت تكره ذلك فما أشد حمقك ، لأن الصفات الذميمة عقارب وحيات تلدغ القلوب والأرواح ، وقد وصف الله تعالى الكاذبين ببغضهم للناصحين اذ قال : « **ولكن لا تحبون الناصحين** » (51) · فبادر الى البحث عن الناصح فقد قال الشاعر :

ذهب النصيح لربه ونبيه ... وامامه نصحا تحقق عزمه
فالصالحون على الذهاب تتابعوا ... فكأنهم عقد تناثر نظمه

اذا نصحت لأخيك فانتخب أسلوبا ملائما لذلك لأن التعريض خير من التصريح ، والمكاتبة خير من المشافهة ، والاحتمال خير من الكل ؛ فاذا احتاج الأمر الى مداراة فداره لكن لا تداهنه أبدا · والمداراة تشبه المداهنة ، والفرق بينهما أن المداراة ما أردت به اصلاح أخيك فداريته لرجاء صلاحه واحتملت منه ما تكره · والمداهنة : ما قصدت به شيئا من الهوى من حظ أو اقامة جاه ·

---

(50) رواه أبو داود من حديث أبي هريرة باسناد حسن ·
(51) (سورة : الأعراف ، الآية : 79) ·

قال الامام أبو حامد الغزالي : « ان أغضيت لسلامة دينك ، ولما ترى من اصلاح أخيك بالاغضاء فأنت مدار · وان أغضيت لحظ نفسك ، واجتلاب شهواتك ، وسلامة جاهك فأنت مداهن » وقال آخر : « لا تصحب مع الله الا بالموافقة ، ولا مع الخلق الا بالمناصحة ، ولا مع النفس الا بالمخالفة ، ولا مع الشيطان الا بالعداوة » ·

قال الشاعر :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم ... اني النذير فلا يغرركم أحد

وقال آخر :

وان امرء لم يصف لله قلبه ... لفي وحشة من كل نظرة ناظر
وان امرء لم يرتحل ببضاعة ... الى داره الأخرى فليس بتاجر

قال أحد الحكماء : « المؤمن يستر وينصح ، والفاجر يهتك ويعير » · ويقول حاتم : « اذا رأيت من أخيك عيبا ، فان كتمته عنه خنته ، وان قلته لغيره فقد اغتبته ، وان واجهته به فقد أوحشته » قيل له : وكيف نصنع ؟ قال : « تكني عنه وتجعله في جملة الحديث » ·

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : يستهدي أخطاءه من اخوانه ويقول : « رحم الله امرأ أهدى الى أخيه عيوبه » · وقال لسلمان مرة وقد قدم عليه : ما الذي بلغك عني مما تكرهه ؟ فاستعفى سلمان ، فألح عليه عمر ، فقال : « بلغني أن لك حلتين تلبس احداهما بالنهار والأخرى بالليل ، وبلغني أنك تجمع بين ادامين على مائدة واحدة ، فقال عمر رضي الله عنه : أما هذان فقد كفيتهما ، فهل بلغك غيرهما ؟ فقال : لا ·

فتأمل يا هداك الله وانصح لاخوانك ·

قال ابن حزم : « وحد النصيحة هو أن يسوء المرء ما ضر الآخر ساء ذلك الآخر أم سره · وأن يسره ما نفعه ، سر الآخر أم ساءه» ·

ويقول « : واجب على المرء ترداد النصح رضي المنصوح أو سخط · تأذى الناصح بذلك أو لم يتأذ · اذا نصحت فانصح سرا

لا جهرا أو بتعريض لا تصريح ، الا أن يفهم المنصوح تعريضك فلا بد من التصريح · ولا تنصح على شرط القبول منك ·.فان تعديت هذه الوجوه ، فأنت ظالم لا ناصح وطالب طاعة وملك لا مؤد حق ديانة وأخـوة » ·

ولهذا لا تقرع أخاك أثناء نصحك له ، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كان رجـلان في بني اسرائيل متواخيان ، وكان أحدهما مذنب والآخر مجتهد في العبادة · وكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول : اقصر ، فوجده يوما على ذنب ، فقال له : اقصر ، فقال : خلني وربي أبعثت علي رقيبا ؟ فقال : والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الله الجنة · فقبض روحهما ، فاجتمعا عند رب العالمين ، فقال لهذا المجتهد : أكنت بي عالما أو كنت على ما في يدي قادرا ؟ وقال للمذنب : اذهب فادخل الجنة برحمتي ، وقال للآخر : اذهبوا به الى النار » · (52)

★ تودد الى أخيك بقلبك ولسانك ، وتفقده في أحواله التي يحب أن يتفقد فيها ، كالسؤال عن صحته ومشاكله ، وواسه بلسانك حتى يثبت على صبره ، وشاركه في حب الاشياء التي يحبها وكره الأشياء التي يكرهها ما لم يكن في فعلك مخالفة للشرع · فمعنى الأخوة المساهمة في السراء والضراء · وتكلم بما يحب أخـوك الاستماع اليه شريطة ألا يجلب ذلك غرورا لنفسك أو أن ينحرف بك عن جادة الصدق الى جادة الكذب · قال علـي رضي الله عنـه : « من لم يحمد أخاه على حسن النية لم يحمده على حسن الصنيعة» ·

فان رأيت في أخيك حسنة أعجبتك كمؤمن ، فاذكرها له ، وحثه على المداومة على اتيانها · وان سمعت ثناء عليه فبلغه اياه مع الاحتراس من دخول الغرور الى نفسه ، ويمكن أن تعمم الثنـاء على عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وتصنيفه وجميع ما يفرح

(52) أخرجه أحمد وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه ·

به · وان وجدت فيه ميلا الى الأدب أو تعلقا بأحد كرام الرجـال فاسع أن تقدم له أجمل ما تعرف عنه ·

ومما يزيد الحب بينك وبين أخيك التعبير عن مشاعـر الود ، فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا أحب أحدكم أخـاه فليخبره » (53) ، فان عرف أنك تحبه أحبك بالطبع لا محالـة · فاذا عرفت أنه أيضا يحبك زاد حبك لا محالة · فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف ·

والهدية والاسم الجميل طريقان من طرق المحبة · فقد ورد عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « تهادوا تحابوا » (54) ، وقـال عمر رضي الله عنه : « ثلاث يصفين لك ود أخيك : أن تسلم عليه اذا لقيته أولا ، وتوسع له في المجالس ، وتدعوه بأحب أسمائـه اليـه » ·

☆ ☆ ☆

د ـ **حق اخيك في مالك** : الانسان ضعيف بنفسه قوي بغيره ، والمرء قليل بنفسه ، كثير باخوانه والدلو بغير الرشاء لا يستطيع اخراج الماء · قالت العرب : « ليس الدلو الا بالرشاء » وهو مثل يضرب ليكشف عن معنى قول الشاعر :

الناس للناس من بدو وحاضرة   بعض لبعض وان لم يشعروا خدم

والدلو هو الوعاء الذي يدلى في البئر أو الحوض ليخرج بـه الماء ، والرشاء : الحبل الذي يربط في الدلو ، فيمد حتى يصـل الدلو الى الماء ثم يجذب فيخرج الدلو ممتلئا · فكذلك حالك مـع أخيك أيها المسلم ·

أنفق من أموالك على اخوانك تكن مؤمنا · قال الله تعـالى في وصف المؤمنين : « وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » · (55)

(53) أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح ، والحاكم من حديث المقداد بن معدي كرب (العراقي) ·
(54) البيهقي من حديث أبي هريرة (العراقي) ·
(55) (سورة : الشورى ، الآية : 38) ·

اذا كان أخوك في حاجة الى مال فلا تحوجه الى السؤال .

قال صالح بن أحمد بن حنبل : دخلت على أبي أيام الواثق ، والله يعلم كيف حالنا ، فاذا تحت يده ورقة فيها : « يا أبا عبد الله ، بلغني ما أنت فيه من الضيق وقد وجهت اليك بأربعة آلاف درهم ، فلما رد أبي من صلاته قال : « تذهب بجوابه » ، فكتبت الى الرجل: « وصل كتابك ونحن في عافية ، أما الدين فلرجل لا يرهقنا ، وأما العيال فهم في نعمة الله » .

قال الحسن بن علي رضي الله عنهما : « اني لله سائل ، وفيه راغب ، وأنا أستحي أن أكون سائلا ، وأرد سائلا ، وأن الله عودني عادة : أن يفيض نعمه علي ، وعودته أن أفيض نعمه على الناس ، فأخشى ان قطعت العادة أن يمنعني العادة » .

قال الشاعر :

نحن أناس نوالنا خضل ... يرتع فيه الرجاء والأمل
تجود قبل السؤال أنفسنا ... خوفا على ماء وجه من يسل
لو علم البحر فضل نائلنا ... لغاض من بعد فيضه خجل

كان أحمد بن حنبل سمحا واسع الآفاق محبا للناس ، مقدرا للأخوة والصحبة . يقول : « يؤكل الطعام بثلاث : مع الاخوان بالسرور ، ومع الفقراء بالايثار ، ومع أبناء الدنيا بالمروءة . ولو أن الدنيا تقل حتى تكون مقدار لقمة ، ثم أخذها امرؤ مسلم فوضعها في فم أخيه المسلم ما كان مسرفا » .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه قال : أتى علينا زمان وما يرى أحدنا أنه أحق بالدينار والدرهم من أخيه المسلم ، ونحن اليوم الدينار والدرهم أحب الينا من أخينا المسلم ، وذلك اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا ضن الناس بالدينار والدرهم واتبعوا أذناب البقر ، وتركوا الجهاد في سبيل الله ، وتبايعوا بالغبن انزل الله عليهم ذلا فلم يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم » . (56)

---

(56) الأحاديث الصحيحة ، الألباني ، حديث 11 .

ودعنا نترك الشافعي يحدثنا عن رحلته في طلب العلم لنستشف منها كيف كان الخلف يتعاملون بينهم في المال ، قال رضي الله عنه : « وفي العراق لقيت محمد بن الحسن — وهو من أصحاب أبي حنيفة — ، فما بات حتى كساني خلعة بألف درهم » .

« (..) وعندما هممت بالسفر أمر غلامه أن يأتي بكل ما في خزائنه من بيضاء وحمراء ومن الورق فدفع الي ما كان فيه وهو ثلاثة آلاف درهم، وأقبلت أطوف العراق وأرض فارس وبلاد الأعاجم، والقى الرجال حتى كنت ابن احدى وعشرين سنة ، وسرت على ديار ربيعة ومصر ومنها الى حران فالرملة فالحجاز » .

« وصليت العصر بمسجد رسول الله ورأيت كرسيا من الحديد عليه مخدة من قباطي مصر وحوله أربعمائة دفتر أو يزيدون شيئا — أي طلاب العلم — . وأنا كذلك اذ رأيت مالك بن أنس قد دخل من باب النبي وقد فاح عطره في المسجد وحوله أربعمائة أو يزيدون فلما وصل قام اليه من كان قاعدا وجلس على الكرسي والقى مسألة في خراج العمل . فقمت قائما في سور الحلقة ، ورأيت انسانا فقلت له : قل الجواب كذا وكذا ، فبادر الجواب قبل فراغ مالك من السؤال . فاطرق عنه مالك ، واقبل على أصحابه فسألهم عن الجواب فخالفوه ، فقال لهم : أخطأتم وأصاب الرجل . فلما سال مرة أخرى قلت له الجواب فبادر به ، والسؤال الثالث ... فنادى مالك بأعلى صوته أن ادخل ، ليس هذا موضعك ، فدخل الرجل طاعة منه لمالك وجثا بين يديه ، قال له مالك : قرأت أو سمعت الموطا ؟ قال : لا . هل نظرت في مسائل ابن جريج ؟ قال : لا . هل لقيت جعفر الصادق ؟ قال : لا ، قال : فهذا العلم من أين لك ؟ قال : الى جانبي غلام شاب يقول لي : قل الجواب كذا .

« فالتفت مالك والتفت القوم بأعناقهم لالتفات مالك . قال مالك : قم ومر صاحبك بالدخول علينا ، فدخلت ، فاذا مالك بالموقع الذي كان فيه الرجل جالسا بين يديه ، فتأملني ساعة فقال لي : « أنت الشافعي ؟ » قلت : نعم ، فضمني الى صدره ونزل عن كرسيه

وقال ، اقعد فأتم هذا الكتاب الذي نحن فيه حتى أنصرف الى المنزل وأثـوب اليك ٠

« فالقيت أربعمائة مسألة في خراج العمل فما أجابني أحـد بجواب فاحتجت أن آتي بأربعمائة جواب ، وقلت الأول كذا، والثاني كذا ، وسقط القرص وصلينا العشاء والمغرب ، فضرب مالك بيده الي، فلما وصلنا المنزل رأيت بناء غير البناء الأول ، فبكيت ، فقال لي : مم بكاؤك ، كأنك خفت يا أبا عبد الله مما ترى أني بعت الآخـرة بالدنيـا ٠

« قلت : هو والله ذاك ، قال : فطب نفسا ، وقر عينا ٠ هذه هدايا خراسان وهدايا مصر تجيء من أقاصي الدنيا ٠ وقد كـان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويكره الصدقـة ٠ وأراني ثلاثمائة حلقة من رق خراسان وقباطي مصر وخمسة آلاف درهـم أخرج منها زكاتها كلما يحول عليها الحول ٠ وقال : لك نصفهـا هدية ، فأقمت ثلاثا ثم ارتحلت الى مكة ٠

« فلما وصلت الى الحرم خرجت العجوز يرحمها الله ونسوة معها فلقيتني وضمتني الى صدرها ، فلما هممت بالدخول ، قالت لي العجوز : الى أين عزمت ؟ قلت : الى المنزل ، قالت لي : هيهات، تخرج من مكة بالأمس فقيرا لا مال لك ثم تعود اليها مثريا مفتخرا علي ، اضرب قبابك في الأبطح وناد في العرب انك تشبع الجائع ، وتحمل المنقطع وتكسو العاري ، تربح ثناء الدنيا وثواب الآخرة ففعلت ما أمرت ، وسار بذلك الفعل الرجال الى آباط الابل ، وبلغ ذلك مالكا فكتب الي يستحثني على هذا الفعل ، ويعدني أنه يحمل الي في كل عام مثل ما حمل ، واقام مالك يحمل الي كل عام مثـل ما كان دفع الي أول مرة وظيفا احدى عشرة سنة ٠ فلما مات رحمه الله ضاق بي الحجاز وخرجت الى مصر فعوضني الله » ٠

لم يكن الشافعي يوما يخاف الفقر والإفلاس ، يقول : أفلست في عمري ثلاث افلاسات فكنت أبيع قليلي وكثيري حتى حلي ابنتي

وزوجتي ، ولم أرهن قط ٠ ولقد مات فقيرا معدما ولم يترك شيئـا يذكـر ٠

أما عطاء أبي حنيفة وبره فذلك أمر يفوق الوصف ، وخاصـة عنايته بأصحابه وتلاميذه ، فقد كانت موارده الضخمة جميعهـا ينفقها في شراء حوائج الأشياخ المحدثين وأقواتهم وكسوتهـم ٠ أما هو فكان يكتفي بالقليل فلا يزيد نفقته عن أربعة آلاف درهم في العام ، وكان لا يشتري لنفسه وعياله كسوة أو فاكهة أو غيرهمـا الا اشترى قبل ذلك لشيوخ العلماء مثل ذلك ، وما قبل أبو حنيفة لأحد من الأمراء هدية أو جائزة ٠

وكان وهو التاجر الثري يخرج عن أكثر ماله للفقراء وما عداه لا يراه حقا له ، وكان أصحابه يعجبون من صنيعـه ، ويقولـون : هذا الرجل (أي أبو حنيفة) وبيته عريان الا من البواري ، يـوزع الألوف ويعرض عن أسباب المجد ٠

قال لأبي يوسف وقد غاب عن حلقته فترة من الزمن : ما شغلك عنا ؟ قال : قلت الشغل بالمعاش وطاعة والدي ، فلما انصرف الناس دفع الي صرة وقال : استمتع بها ، فاذا فيها مائة درهم ، قال لي : الزم الحلقة فاذا فرغت أعلمني ، فلزمت الحلقة فلما مضت مـدة يسيرة دفع الي مائة أخرى ، ثم كان يتعهدني وما بخل قط ، ولا انجزته بنفاد شيء ٠

قال أبو يوسف : وكان يعولني وعيالي عشرين سنة ، واذا قلت له : ما رأيت أجود منك يقول : كيف لو رأيت حمادا وما رأيـت أجمع للخصال المحمودة منه ٠

تلك خلته مع تلاميذه جميعـا : أبي يوسف ومحمـد وزفـر والحسن ٠ لقد كان يحب تلاميذه وأصحابه حبا لا حد له حتى كان الذباب اذا وقع على أحد منهم يرى مشقة ذلك على نفسه ٠

ولم يكن يقبل عبارات الشكر حين توجه اليه ، بل كان يغتم لمن يشكره على شيء أعطاه اياه ٠ ويقول : اشكر الله تعالى فانما هو رزق ساقه الله اليك ٠

وكان يجمع الأرباح ليشتري بها حوائج المتعلمين يدفع اليهم الدنانير قائلا : انفقوا في حوائجكم ، ولا تحمدوا الا الله سبحانه وتعالى فانها أرباح بضائعكم مما يجريه الله لكم على يدي .

جاءه أحدهم الى مجلسه وكان رث الثياب ، فلما قام الناس قال له : ارفع المصلى وخذ ما تحته ، فرفع الرجل المصلى فكان تحته الف درهم ، قال : خذ هذه الدراهم فغير بها حالك . قال الرجل : لست أحتاج اليها وانا موسر .. ، قال أبو حنيفة : أما بلغك الحديث : « ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » غير حالك حتى لا يغتم به صديقك .

أما أحمد بن حنبل فلم تمنعه الفاقه من الايثار ؛ عطش في سجنه مرة فطلب من صاحب الشراب ماء ، فجيء بماء مثلج ، فامسك بالماء ونظر اليه وتركه دون شراب ، قال السجان : لماذا لا تشرب ؟ قال : أعندك شراب يكفيني ومن معي في السجن ؟ قال : لا . قال : كيف أشرب ومن معي في السجن لا يشربون .

جاء في الحلية أن أبابكر اشترى بلالا وهو مدفون بالحجارة بخمس أواق ذهبا ، فقالوا : لو أبيت الا أوقية لبعناكه ، قال : « لو أبيتم الا مائة أوقية لأخذته » . فمن حق أخيك عليك أن تعينه بمالك للخروج من المآزق .

واشترى الحسن بن علي رضي الله عنهما بستانا من الأنصار باربعمائة الف درهم ، ثم بلغه انهم احتاجوا الى الناس ، فرد البستان اليهم دون مقابل .

وروت كتب السيرة كذلك أنه مر على جماعة من الفقراء ، قد وضعوا على وجه الأرض كسيرات من الخبز ، كانوا قد التقطوها من الطريق ، وهم يأكلون منها ، فدعوه لمشاركتهم في أكلها، فأجاب دعوتهم قائلا : « ان الله لا يحب المتكبرين » . ولما فرغ من مشاركتهم، دعاهم لضيافته ، فأغدق عليهم المال وأطعمهم وكساهم .

ومن الأخوة أن تعطي مفتاح بيتك لأخيك فيأكل ما شاء ، لأنه أرفع للحرج وأدفع للشح ، قال الله تعالى : « **لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا** » . (57)

أخرج البزار بسند صحيح عن عائشة قالت : كان المسلمون يرغبون في النفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدفعون مفاتحهم الى زمناهم ويقولون لهم : لقد أحللنا لكم أن تاكلوا مما أحببتم ، وكانوا يقولون : انه لا يحل لنا ، انهم أذنوا عن غير طيب نفس ، فأنزل الله : « **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ** » الى قوله « **أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ** » . (58)

☆ ☆ ☆

هـ ★ حقوق المسلمين عليك :

ما دمت قد عرفت حقوق أخيك عليك بقي عليك أن تعرف حقوق عامة المسلمين عليك ، وبعد أن تكون قد قرأتها نقول لك ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد أصحابه : « عرفت فالزم » . (59) وهذه الواجبات هي :

1 ـ سلم على من تلقاه من المسلمين : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يسلم الراكب على الماشي ، والماشي على القاعد ، والقليل على الكثير » . (60)

---

(57) النور : 61 .
(58) أسباب النزول : السيوطي .
(59) الصحابي هو الحارث بن مالك الأنصاري . والحديث رواه الحافظ الطبراني .
(60) متفق عليه .

2 – شمت من عطس منهم : لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « اذا عطس أحدكم فليقل له أخوه يرحمك الله ، فاذا قال له يرحمك الله ، فليقل له : يهديكم الله ويصلح بالكم » . (61)

3 – اذا مرض أحد المسلمين فعده – بقدر مستطاعك – : لأنه ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عودوا المريض ، وأطعموا الجائع ، وفكوا العاني – الأسير » . (62)

4 – اذا مات مسلم فاشهد جنازته : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، واجابة الدعوة ، وتشميت العاطس » . (63)

5 – اذا أقسم عليك أحد منهم فبر قسمه : لقول النبي عليه الصلاة والسلام كما ورد عن البراء بن عازب : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : بعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وتشميت العاطس ، وابرار المقسم ، ... » . (64)

6 – أن تنصح لهم اذا استنصحوك في شيء من الأشياء : لأنه ورد عن رسول الله عليه الصلاة والسلام انه قال : « اذا استنصح أحدكم أخاه فلينصح له » . (65)

7 – أحب للمسلمين ما تحبه لنفسك ، واكره لهم ما تكرهه لها : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه» . (66)

---

(61) رواه البخاري .
(62) متفق عليه .
(63) متفق عليه .
(64) رواه البخاري .
(65) رواه البخاري .
(66) متفق عليه .

8 – انصر المسلمين ولا تخذلهم في أي موطن احتاجوا فيه الى نصرك وتأييدك : لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » ، وسئل عليه الصلاة والسلام عن كيفية نصره وهو ظالم ، فقال : تأخذ فوق يديه بمعنى تحجزه عن الظلم وتحول بينه وبين فعله فذلك نصرك له » . (67)

9 – لا تمسهم بسوء ولا تنلهم بمكروه : لأنه ورد عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه قال : « المؤمن من أمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم » . (68)

10 – تواضع لهم ولا تتكبر عليهم : فقد قال الله تعالى : « **وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ، وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا . إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** » . (69)

11 – لا تهجر أحدا من المسلمين اكثر من ثلاثة أيام : لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام » . (70)

12 – لا تغتابن أحدا منهم ، ولا تحتقره ، ولا تعبه ، ولا تسخر منه ، ولا تنبزه بلقب سوء ، ولا تنم عنه حديثا للافساد : لأن الله تعالى قال : « **يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ** » . (71)

---

(67) متفق عليه .
(68) أحمد والترمذي والحاكم (صحيح) .
(69) لقمان : 18 .
(70) متفق عليه .
(71) الحجرات : 12 .

13 – لا تسبن أحدا منهم بغير حق حيا كان أو ميتا : فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » . (72)

14 – لا تحسد المسلمين ، ولا تظنن بهم سوءا ، ولا تبغضهم ، ولا تتجسس عنهم لقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » (73) ولقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسسوا ، ولا تناجشوا ، وكونوا عباد الله اخوانا » . (74)

15 – لا تغشنهم ولا تخدعنهم : فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : « من حمل علينا السلاح ، ومن غشنا فليس منا » . (75)

16 – لا تغدر المسلمين ، ولا تخنهم ، ولا تكذبهم ، ولا تماطلهم في قضاء دينك : لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : اذا اؤتمن خان، واذا حدث كذب واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر » . (76)

17 – خالقهم بخلق حسن ؛ فابذل لهم المعروف ، وكف عنهم الأذى ، ولاقهم بوجه طلق ، واقبل منهم احسانهم ، واعف عن اساءاتهم ، ولا تكلفهم ما ليس عندهم : فقد قال الله تعالى : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » . (77)

---

(72) متفق عليه .
(73) الحجرات : 12 .
(74) رواه مسلم .
(75) رواه مسلم .
(76) متفق عليه .
(77) الأعراف : 199 .

18 – وقر الكبير من المسلمين وارحم صغيرهم ، لما روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان اذا قدم من سفر تلقاه الصبيان فيقف عليهم ثم يأمر بهم فيرفعون اليه فيجعل منهم بين يديه، ومن خلفه ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم رحمة منه عليه الصلاة والسلام بالصبيان . ولقوله صلى الله عليه وسلم : ليس منا من لم يوقر كبيرنا ، ويرحم صغيرنا » . (78)

19 – انصفهم من نفسك وعاملهم بما تحب أن تعامل به : لقوله عليه الصلاة والسلام : « لا يستكمل العبد الايمان حتى يكون فيه ثلاث خصال : الانفاق من الاقتار ، والانصاف من نفسه، وبذل السلام » . (79)

20 – أن تعيذهم اذا استعاذوا بالله ، وأن تعطيهم اذا سألوك بالله، وأن تكافئهم على معروفهم وأن تدعو لهم ، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من استعاذكم بالله فاعيذوه، ومن سألكم بالله فاعطوه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن صنع اليكم معروفا فكافئوه ، فان لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه » . (80)

هذه أهم حقوق المسلمين عليك وفي نفس الوقت هي حقوق لك عليهم فتعاون مع اخوانك على البر والتقوى ، واعلم أن هناك فرقا بين حقوق الأخوة الخاصة والأخوة العامة .

---

(78) أبو داود والترمذي وحسنه .
(79) البخاري .
(80) أبو داود في بابي الزكاة والآداب والنسائي في باب الزكاة أيضا ، ورواه أحمد ن حنبل .

تعال نتدبر في آيات الاختلاف والفرقة

ان ألف مليون مسلم بدأوا القرن الخامس عشر من تاريخهم في ظروف عاصفة ٠

أعداؤهم يعلنون حينا ويواربون أحيانا بنيتهم تجاه الاسلام وسواء صرحوا أو لمحوا فان أعمالهم تصرخ بما يبيتون !

انهم يريدون القضاء عليه وقد رسموا الخطط وبدأوا التنفيذ ٠

والليالي الحبالى تتمخض عن أحداث كئيبة ، فأطرافنا تنتقص يوما بعد يوم ، بل صميمنا مهدد بالضياع ، والاستعمار الثقافي ملح في محو شرائعنا وشراعنا ، يعينه كتاب مرتدون ، أو ساسة مبغضون لكتاب الله وسنة رسوله ٠

ان أمتنا الآن جزء كبير من العالم الثالث ، تخلفها الحضاري لا ريب فيه ، ومظاهر التقدم المجلوبة من هنا ومن هنا عارية قد تسترد ٠

انها ليست افرازا لكيانها الخاص ، ولا أثرا لنشاطها الأصيل ٠

ما الذي أوصلنا الى هذا الدرك ؟ ان التقدم والتأخر ليسا حظوظا عمياء ! ان ما نزل بنا هو نتائج لمقدمات طال عليها الأمد وعلل هدت قوانا جيلا بعد جيل ٠٠

وبعض الأجسام يصيبها في سن مبكرة مرض شديد ، ولكن عافية الشباب تهزمه ، فتكن الجرثومة متربصة الفرص السوانح لتثبت عندما تريد ، ملحقة بالجسم ما تشاء من عطب ...

وأمتنا الكبيرة تعرضت لأدواء وبيلة خلال عصورها الخوالي ، وقد قاوم كيانها الصلب هذه الأدواء ، وبدا للعين المجردة كانه سليم معافى ، ولكن الجراثيم الخانسة برزت من مكامنها خلال القرون الأخيرة ، فلما اصطدمت بنا القوة المعادية للاسلام فضحتنا المعارك في كل ميدان ، وسقط المسلمون بين المحيطين الأطلسي والهادي وبين أواسط أوربا وآسيا شمالا ، وجزائر اندونيسيا والفلبين والمحيط الهندي وأقطار ما تحت الصحراء الكبرى جنوبا ..

ان هذا الكيان الاسلامي تهاوى تحت ضربات المغيرين ، وأصبح بين عشية وضحاها أسيرا تدميه القيود ، ويرهقه الاذلال ..

لقد حدث هذا ، وكان لا بد أن يحدث ، لأن المسلمين فقدوا أسباب التمكين في الأرض – وأهمها وحدة صفهم وتماسكهم – فعصفت بهم الرياح الهوج ، ان الرياح مهما اشتدت لا تنقل الجبال، ولكنها تنقل كثبان الرمال ..

فتعال معي يا أخي يا من تريد عزة الاسلام لندرس بدقة وبصيرة أسرار ما أصابنا ، فان العافية لا تتيسر بدواء مرتجل .

ان أكبر مصائبنا اليوم هي أن المسلمين يعيشون طوائف متناكرة، تفصل بينها المسافة نفسها التي تفصل بين أتباع دين ودين آخر !!

هل رأيت أوغل في الطيش من هذا المسلك !

استمع الى رب العزة سبحانه وتعالى كيف يذكر في آية جامعة أسباب الخلاف بين الناس في التصورات والعقائد ، والموازين والقيم، لينتهي بتقرير الأصل الذي ينبغي أن يرجع اليه المختلفون ؛ والى الميزان الأخير الذي يحكم فيما هم فيه مختلفون ، فيقول :

« كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ؛ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ – وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ –

فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ؛ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ » .. (1)

ويحاول الأستاذ سيد قطب رحمه الله أن يعيش في ظلال هذه الآية ، فيقول :

« هذه هي القصة .. كان الناس أمة واحدة . على نهج واحد، وتصور واحد . وقد تكون هذه اشارة الى حالة المجموعة البشرية الأولى الصغيرة من أسرة آدم وحواء وذراريهم ، قبل اختلاف التصورات والاعتقادات . فالقرآن يقرر أن الناس من أصل واحد . وهم أبناء الأسرة الأولى : أسرة آدم وحواء . وقد شاء الله أن يجعل البشر جميعا نتاج أسرة واحدة صغيرة ، ليقرر مبدأ الأسرة في حياتهم ، وليجعلها هي اللبنة الأولى . وقد غبر عليهم عهد كانوا فيه في مستوى واحد واتجاه واحد وتصور واحد في نطاق الأسرة الأولى . حتى نمت وتعددت وكثر أفرادها ، وتفرقوا في المكان ، وتطورت معايشهم ؛ وبرزت فيهم الاستعدادات المكنونة المختلفة ، التي فطرهم الله عليها لحكمة يعلمها ، ويعلم ما وراءها من خير للحياة في التنوع في الاستعدادات والطاقات والاتجاهات .

« عندئذ اختلفت التصورات وتباينت وجهات النظر ، وتعددت المناهج ، وتنوعت المعتقدات .. وعندئذ بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ..

« وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ » ..

« وهنا تتبين تلك الحقيقة الكبرى .. ان من طبيعة الناس أن يختلفوا ؛ لأن هذا الاختلاف أصل من أصول خلقتهم ، يحقق حكمة عليا من استخلاف هذا الكائن في الأرض .. ان هذه الخلافة تحتاج الى وظائف متنوعة ، واستعدادات شتى من ألوان متعددة كي تتكامل جميعها وتتناسق ، وتؤدي دورها الكلي في الخلافة

---

(1) (سورة : البقرة . الآية : 213) .

والعمارة ، وفق التصميم الكلي المقدر في علم الله . فلا بد اذن من تنوع في المواهب يقابل تنوع تلك الوظائف ؛ ولا بد من اختلاف في الاستعدادات يقابل ذلك الاختلاف في الحاجات .. « **وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ - إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ - وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ** » ..

« هذا الاختلاف في الاستعدادات والوظائف ينشىء بدوره اختلافا في التصورات والاهتمامات والمناهج والطرائق .. ولكن الله يحب أن تبقى هذه الاختلافات المطلوبة الواقعة داخل اطار واسع عريض يسعها جميعا حين تصلح وتستقيم .. هذا الاطار هو اطار التصور الايماني الصحيح . الذي ينفسح حتى يضم جوانحه على شتى الاستعدادات وشتى المواهب وشتى الطاقات ، فلا يقتلها ولا يكبحها ؛ ولكن ينظمها وينسقها ويدفعها في طريق الصلاح .

« ومن ثم لم يكن بد أن يكون هناك ميزان ثابت يفيء اليه المختلفون وحكم عدل يرجع اليه المختصون ؛ وقول فصل ينتهي عنده الجدل ، ويثوب الجميع منه الى اليقين :

« **فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ** » .

« ولا بد أن نقف عند قوله تعالى « **بِالْحَقِّ** » .. فهو القول الفصل بأن الحق هو ما جاء به الكتاب ؛ وأن هذا الحق قد أنزل ليكون هو الحكم العدل ، والقول الفصل ، فيما عداه من أقوال الناس وتصوراتهم ومناهجهم وقيمهم وموازينهم .. لا حق غيره . ولا حكم معه . ولا قول بعده . وبغير هذا الحق الواحد الذي لا يتعدد ؛ وبغير تحكيمه في كل ما يختلف فيه الناس ، وبغير الانتهاء الى حكمه بلا مماحكة ولا اعتراض .. بغير هذا كله لا يستقيم أمر هذه الحياة ؛ ولا ينتهي الناس من الخلاف والفرقة ، ولا يقوم على الأرض السلام ، ولا يدخل الناس في السلم بحال .

« ولم يكن بد أن يكون هناك ميزان ثابت يفيء اليه الناس ، وأن يكون هناك قول فصل ينتهون اليه . ولم يكن بد كذلك أن يكون

هذا الميزان من صنع مصدر آخر غير المصدر الانساني ، وأن يكون هذا القول قول حاكم عدل لا يتأثر بالهوى الانساني ، ولا يتأثر بالقصور الانساني ، ولا يتأثر بالجهل الانساني !

« (...) ان الكتاب لم ينزل بالحق ليمحو فوارق الاستعدادات والمواهب والطرائق والوسائل . انما جاء ليحتكم الناس اليه .. واليه وحده .. حين يختلفون ..

« ومن شأن هذه الحقيقة أن تنشىء حقيقة أخرى تقوم على أساسها نظرة الاسلام التاريخية :

« ان الاسلام يضع « **الْكِتَابَ** » الذي أنزله الله « **بِالْحَقِّ** » ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه .. يضع هذا الكتاب قاعدة للحياة البشرية . ثم تمضي الحياة . فاما اتفقت مع هذه القاعدة ، وظلت قائمة عليها ، فهذا هو الحق . واما خرجت عنها وقامت على قواعد أخرى ، فهذا هو الباطل .. هذا هو الباطل ولو ارتضاه الناس جميعا . في فترة من فترات التاريخ . فالناس ليسوا هم الحكم في الحق والباطل . وليس الذي يقرره الناس هو الحق ، وليس الذي يقرره الناس هو الدين . ان نظرة الاسلام تقوم ابتداء على أساس أن فعل الناس لشيء ، وقولهم لشيء ، واقامة حياتهم على شيء .. لا تحيل هذا الشيء حقا اذا كان مخالفا للكتاب ؛ ولا تجعله أصلا من أصول الدين ، ولا تجعله التفسير الواقعي لهذا الدين ؛ ولا تبرره لأن أجيالا متعاقبة قامت عليه ..

« وهذه الحقيقة ذات أهمية كبرى في عزل أصول الدين عما يدخله عليها الناس ! وفي التاريخ الاسلامي مثلا وقع انحراف ، وظل ينمو وينمو .. فلا يقال : ان هذا الانحراف متى وقع وقامت عليه حياة الناس فهو اذن الصورة الواقعية للاسلام ! كلا ! ان الاسلام يظل بريئا من هذا الواقع التاريخي . ويظل هذا الذي وقع خطأ وانحرافا لا يصلح حجة ولا سابقة ؛ ومن واجب من يريد استئناف حياة اسلامية أن يلغيه ويبطله ، وأن يعود الى الكتاب الذي أنزله الله بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ..

« ولقد جاء الكتاب .. ومع ذلك كان الهوى يغلب الناس من هنا ومن هناك ؛ وكانت المطامع والرغائب والمخاوف والضلالات تبعد الناس عن قبول حكم الكتاب، والرجوع الى الحق الذي يردهم اليه :

« وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ .. بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ » .

« فالبغي بغي الحسد . وبغي الطمع . وبغي الحرص . وبغي الهوى .. هو الذي قاد الناس الى المضي في الاختلاف على أصل التصور والمنهج ؛ والمضي في التفرق واللجاج والعناد .

« وهذه حقيقة .. فما يختلف اثنان على أصل الحق الواضح في هذا الكتاب ، القوي الصادع المشرق المنير .. ما يختلف اثنان على هذا الأصل الا وفي نفس أحدهما بغي وهوى ، أو في نفسيهما جميعا .. فأما حين يكون هناك ايمان فلا بد من التقاء واتفاق :

« فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ » ..

« هداهم بما في نفوسهم من صفاء ، وبما في أرواحهم من تجرد ، وبما في قلوبهم من رغبة في الوصول الى الحق . وما أيسر الوصول حينئذ والاستقامة :

« وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ » .

« هو هذا الصراط الذي يكشف عنه ذلك الكتاب . وهو هذا المنهج الذي يقوم على الحق ويستقيم على الحق . ولا تتقاذفه الأهواء والشهوات ، ولا تتلاعب به الرغاب والنزوات ..

« والله يختار من عباده لهذا الصراط المستقيم من يشاء ، ممن يعلم منهم الاستعداد للهدى والاستقامة على الصراط ؛ أولئك يدخلون في السلم ، وأولئك هم الأعلون ، ولو حسب الذين لا يزنون بميزان الله أنهم محرومون ، ولو سخروا منهم كما يسخر الكافرون من المؤمنين » ! (2)

(2) في ظلال القرآن : سيد قطب (المجلد الأول) .

وهكذا تنتهي هذه التوجيهات التي تستهدف انشاء تصور ايماني كامل ناصع في قلوب الجماعة المسلمة التي كانت تعاني في واقعها مشقة الاختلاف بين المؤمنين وبين أعدائهم من المشركين وأهل الكتاب ، وما كان يجره هذا الخلاف من حروب ومتاعب وويلات ..

ان الاختلاف الذي يولد الضغائن ويثير في أبناء الأمة الواحدة حب الانتقام ، صفة من الصفات التي توفرت في الأمم التي أخذها الله أخذ عزيز مقتدر .

يقول الله سبحانه وتعالى : « إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ، وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ » . (3)

ان هذه أمتكم . أمة الأنبياء . أمة واحدة . تدين بعقيدة واحدة . وتنهج نهجا واحدا . هو الاتجاه الى الله دون سواه .

أمة واحدة في الأرض ، ورب واحد في السماء . لا اله غيره ولا معبود الا اياه .

أمة واحدة وفق سنة واحدة ، تشهد بالارادة الواحدة في الأرض والسماء .

« وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ » . (4)

ان أمة الرسول واحدة تقوم على عقيدة واحدة وملة واحدة ، أساسها التوحيد الذي تشهد به نواميس الوجود ؛ والذي دعت اليه الرسل منذ أولى الرسالات الى آخرها دون تبديل ولا تغيير في هذا الأصل الكبير .

انما كانت التفصيلات والزيادات في مناهج الحياة القائمة على عقيدة التوحيد ، بقدر استعداد كل أمة ، وتطور كل جيل ؛ وبقدر نمو مدارك البشرية ونمو تجاربها ، واستعدادها لأنماط من التكاليف ومن التشريعات ، وبقدر حاجاتها الجديدة التي نشأت

(3) (سورة : الأنبياء ، الآية : 92) .
(4) (سورة : الأنبياء ، الآية : 93) .

من التجارب ، ومن نمو الحياة ووسائلها وارتباطاتها جيلا بعد جيل ·

ومع وحدة أمة الرسل ، ووحدة القاعدة التي تقوم عليها الرسالات ·· فقد تقطع أتباعها أمرهم بينهم ، كأنما اقتطع كل منهم قطعة وذهب بها · وثار بينهم الجدل ، وكثر بينهم الخلاف ، وهاجت بينهم العداوة والبغضاء ·· وقع ذلك بين أتباع الرسول الواحد حتى ليقتل بعضهم بعضا باسم العقيدة · والعقيدة واحدة ، وأمة الرسل كلها واحدة ·

لقد تقطعوا أمرهم بينهم في الدنيا · ولكنهم جميعا سيرجعون الى الله ، في الآخرة : « **كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ** » فالمرجع اليه وحده ، وهو الذي يتولى حسابهم ويعلم ما كانوا عليه من هدى أو ضلال · (5)

وانظر الى قول الله سبحانه وتعالى وهو يكرر التحذير فيقول: « **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ · يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ · فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ : أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ؟ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ · وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** » · (6)

انه مشهد من المشاهد القرآنية الفائضة بالحركة والحيوية ·· فنحن في مشهد هول · هول لا يتمثل في ألفاظ ولا في أوصاف · ولكن يتمثل في آدميين أحياء · في وجوه وسمات ·· هذه وجوه قد أشرقت بالنور ، وفاضت بالبشر ، فابيضت من البشر والبشاشة ، وهذه وجوه كمدت من الحزن ، واغبرت من الغم ، واسودت من الكآبة ·· وليست مع هذا متروكة الى ما هي فيه · ولكنه اللذع بالتبكيت والتأنيب : « **أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ؟ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** ! » ··

---

(5) نفس المرجع : المجلد الرابع ·
(6) (آل عمران : 105 ، 106 ، 107) ·

« **وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** » ·

وهكذا ينبض المشهد بالحياة والحركة والحوار ·· على طريقة القرآن ·

وهكذا يستقر في ضمير الجماعة المسلمة معنى التحذير من الفرقة والاختلاف ومعنى النعمة الالهية الكريمة ·· بالايمان والائتلاف · (7)

وتأمل كيف جعل الله الاختلاف مؤجل العقاب ، وشر العقاب عند الله آجله :

« **وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا** » ·· وقد اقتضت مشيئة الله أن يمهلهم جميعا الى أجل يستوفونه ، وسبقت كلمته بذلك فنفذت لحكمة يريدها : « **وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** » · (8)

ويذكر الله سبحانه وتعالى مآل بني اسرائيل في لمحة سريعة فيقول : « **وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ · إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** » (9) ·· لقد طاب المقام فترة لبني اسرائيل بعد تجارب طويلة ، وتمتعوا بطيبات من الرزق حلال ، حتى فسقوا عن أمر الله فحرمت عليهم · واختلفوا بعد وفاق ، فكان اختلافهم في دينهم ودنياهم ، لا على جهل ولكن بعد أن جاءهم العلم ، وبسبب هذا العلم ، واستخدامه في التأويلات الباطلة ·

والسياق القرآني لا يطيل في عرض ما وقع بعد ذلك من بني اسرائيل ، ولا يفصل خلافهم بعدما جاءهم العلم · ولكن يطوي

---

(7) نفس المرجع : المجلد الأول ·
(8) يونس : 19 ·
(9) يونس 93 ·

هذه الصفحة ، ويكلها بما فيها لله في يوم القيامة : « إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » .

فيبقى للقصة جلالها ، ويظل للمشهد الأخير تأثيره ..

وهكذا ندرك لماذا يساق القصص القرآني ، وكيف يساق في كل موضع من مواضعه . فليس هو مجرد حكايات تروى ، ولكنه لمسات وايحاءات مقدرة تقديرا .

وهذا رب العزة سبحانه وتعالى يبين لنبيه صلى الله عليه وسلم المواقف التي يجب أن يقفها أمام الذين فرقوا دينهم فيقـول : « ان الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ . إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ، ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » . (10)

انه مفرق الطريق بين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودينه وشريعته ومنهجه كله وبين سائر الملل والنحل .. سواء من المشركين الذين كانت تمزقهم أوهام الجاهلية وتقاليدها وعاداتها وثاراتها ، شيعا وفرقا وقبائل وعشائر وبطونا . أو من اليهود والنصـارى ممن قسمتهم الخلافات المذهبية مللا ونحلا ومعسكرات ودولا . أو من غيرهم مما كان وما سيكون من مذاهب ونظريات وتصـورات ومعتقدات وأوضاع وأنظمة الى يوم الدين . (11)

ان الدين عند الله الاسلام .. ورسول الله صلى الله عليـه وسلم ليس في شيء ممن فرقوا الدين فلم يلتفتوا فيه على الاسلام .

وأمر هؤلاء الذين فرقوا دينهم شيعا ، وبريء منهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحكم من الله تعالى .. أمرهم بعد ذلك الى الله ، وهو محاسبهم على ما كانوا يفعون : « إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ، ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » .

ان الاختلاف المبالغ فيه يدفعك الى قطع ما أمـر اللـه بـه أن يوصل . ولا يفعل هذا الفعل الا الفاسقون كما قـال الله تعـالى :

(10) الأنعام : 159 .
(11) نفس المرجع : المجلد الثالث .

« وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ . الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ .. الآية» . (12)

والله أمر بصلات كثيرة .. أمر بصلة الرحم والقربى . وأمر بصلة الانسانية الكبرى . وأمر قبل هذا كله بصلة الأخوة الايمانية والعقيدة ، التي لا تقوم صلة ولا وشيجة الا معها .. واذا قطـع ما أمر الله به أن يوصل فقد تفككت العرى وانحلت الروابط ، ووقع الفساد في الأرض ، وعمت الفوضى .

وهذا تحذير آخر من الله سبحانه وتعالى للمنافقين والذين في قلوبهم مرض اذ يقول : « فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ؟ » (13) .. احذروا فانكم منتهون الى أن تعودوا الى الجاهلية التي كنتم فيها . تفسـدون في الأرض وتقطعـون الأرحام ، كما كان شأنكم قبل الاسلام .

وأنت الآخر ـ يا أخي ـ معني ـ بهذه الآية الكريمة لأن اشعالك نار الاختلاف ونفخك في مبالغتها يدعوك الى مقاطعة اخوانك ممن لهم صلة قرابة بك .

فبعد هذه اللفتة المفزعة المنذرة للذين في قلوبهم مرض يعـود السياق القرآني الى الحديث عنهم لو انتهوا الى هذا الذي حذرهم ايـاه :

« أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ، فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ » أولئـك الذين يظلون في مرضهم ونفاقهم حتى يتولوا عن هذا الأمر الـذي دخلوا فيه بظاهرهم ولم يصدقوا الله فيـه ، ولـم يستيقنـوه . « أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ » (14) .. وطردهم وحجبهم عن الهدى ، « فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ » (15) .. وهم لم يفقدوا السمع ، ولم

(12) البقرة : 26 ، 27 .
(13 ، 14 ، 15) سورة محمد : 22 ، 23 .

يفقدوا البصر ؛ ولكنهم عطلوا السمع وعطلوا البصر أو عطلوا قوة الادراك وراء السمع والبصر فلم يعد لهذه الحواس وظيفة لأنها لم تعد تؤدي هذه الوظيفة ٠

ويجعل الله عز وجل حلا لهذه المشكلة اذ يتساءل في استنكار: « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ » (16) وتدبر القرآن يزيل الغشاوة ، ويفتح النوافذ ، ويسكب النور ، ويحرك المشاعر ، ويستجيش القلوب ، ويخلص الضمير ٠ وينشيء للروح حياة تنبض بها وتشرق وتستنير ، « أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ؟ » (17) فهي تحول بينها وبين القرآن وبينها وبين النور ؟ فان استغلاق قلوبهم كاستغلاق الأقفال التي لا تسمح بالهواء والنور ! ٠ (18)

وهاك مثالا عمليا يقصه علينا القرآن الكريم :

لما كان موسى عليه السلام في ميقاة ربه وأخبره الله تبارك وتعالى انه قد فتن قومه من بعده وأضلهم السامري رجع موسى الى قومه غضبان أسفا ، فسمع منهم حجتهم التي تكشف عن مدى ما أصاب نفوسهم من تخلخل ، وأصاب تفكيرهم من فساد ٠ فالتفت الى أخيه وهو في فورة الغضب ، يأخذ بشعر رأسه وبلحيته في انفعال وثورة :

« قَالَ : يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِي ؟ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ؟ » ٠ (19)

يؤنبه على تركهم يعبدون العجل ، دون أن يبطل عبادته ، اتباعا لأمر موسى ــ عليه السلام ــ بالا يحدث أمرا بعده ، ولا يسمح باحداث أمر ٠ ويستنكر عليه عدم تنفيذه ، فهل كان ذلك عصيانا لأمره ؟

وما كان من موقف هارون فهو يطلع اخاه عليه ؛ محاولا أن يهدىء من غضبه ، باستجاشة عاطفة الرحم في نفسه : « قَالَ :

(16 ، 17) سورة محمد : 24 ٠
(18) نفس المرجع : المجلد السادس ٠
(19) سورة طه : 92 ٠

يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ٠ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ : فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي » ٠ (19)

وهكذا تجد هارون أهدأ أعصابا وأملك لانفعاله من موسى ، فهو يلمس في مشاعره نقطة حساسة ٠ ويجيء له من ناحية الرحم وهي أشد حساسية ، ويعرض له وجهة نظره في صورة الطاعة لأمره حسب تقديره ؛ وأنه خشي ان هو عالج الأمر بالعنف أن يتفرق بنو اسرائيل شيعا ، بعضها مع العجل ، وبعضها مع نصيحة هارون٠ وقد أمره بأن يحافظ على بني اسرائيل ولا يحدث فيهم أمرا ٠ فهي كذلك طاعة الأمر من ناحية أخرى ٠٠ (20)

ونعود الى الحقيقة الأولى ، حيث يبين لنا القرآن الكريم الجهة التي يرجع اليها عند كل اختلاف ٠ وهي هذا الوحي الذي جاء من عند الله يتضمن حكم الله كي لا يكون للهوى المتقلب أثر في الحياة بعد ذلك المنهج الالهي القويم :

« وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ٠ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ٠ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ٠ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » ٠٠ (21)

ان طريقة ايراد هذه الحقائق وتسلسلها وتجمعها في هذه الفقرة طريقة عجيبة ، تستحق التدبر ٠ فالترابط الخفي والظاهر بين أجزائها ترابط لطيف دقيق ٠

انه يرد كل اختلاف يقع بين الناس الى الله : « وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ » والله أنزل حكمه القاطع في هذا

(19 مكرر) طه : 93 ، 94 ٠
(20) نفس المرجع : المجلد الرابع ٠
(21) الشورى : 10 ، 11 ٠

القرآن ؛ وقال قوله الفصل في أمر الدنيا والآخرة ، وأقام للناس المنهج الذي اختاره لهم في حياتهم الفردية والجماعية ، وفي نظام حياتهم ومعاشهم وحكمهم وسياستهم ، وأخلاقهم وسلوكهم · وبين لهم هذا كله بيانا شافيا · وجعل هذا القرآن دستورا شاملا لحياة البشر ، أوسع من دساتير الحكم وأشمل · فاذا اختلفوا في أمر أو اتجاه فحكم الله فيه حاضر في هذا الوحي الذي أوحاه الى رسوله – صلى الله عليه وسلم – لتقوم الحياة على أساسه ·

ثم اذ يجعل حكمه فيما يختلفون فيه من شيء هو الحكم الواحد الفصل · يقيم هذا على حقيقة أن مقاليد السماوات والأرض كلها اليه بعد ما فطرها أول مرة ، وشرع لها ناموسها الذي يدبرها ·

ثم انه هو الذي يتولى أمر رزقهم قبضا وبسطا – فيما يتولى من مقاليد السماوات والأرض – ·· فهو رازقهم وكافلهم ومطعمهم وساقيهم · فلمن غيره يتجهون اذن ليحكم بينهم فيما يختلفون فيه ؟ وانما يتجه الناس الى الرازق الكافل المتصرف في الأرزاق · الذي يدبر هذا كله بعلم وتقدير ·· والذي يعلم كل شيء هو الذي يحكم وحكمه العدل ، وحكمه الفصل ·· (22)

فما أحوجنا الى ترك النزاع ونحن أمام أعداء كثيرين وقد قال الله تبارك وتعالى للجماعة المؤمنة: « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** » · (23)

فهذه عوامل النصر الحقيقية : الثبات عند لقاء العدو · والاتصال بالله بالذكر · والطاعة لله والرسول · وتجنب النزاع والشقاق · والصبر على تكاليف المعركة · والحذر من البطر والرئاء والبغي – في الآية التي بعدها – ·

---

(22) نفس المرجع : المجلد الخامس ·
(23) الأنفال : 45 ، 46 ·

ان طاعة الله ورسوله تجعل المؤمنين يدخلون المعركة مستسلمين لله ابتداء ؛ فتبطل أسباب النزاع التي أعقبت الأمر بالطاعة : « **وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** » ·· فما يتنازع الناس الا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه ؛ والا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار · فاذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول الرئيسي للنزاع بينهم – مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة – فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر ، انما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها ! وانما هو وضع « الذات » في كفة ، والحق في كفة ؛ وترجيح الذات على الحق ابتداء ! ·· ومن ثم هذا التعليم بطاعة الله ورسوله عند المعركة ·· انه من عمليات « الضبط » التي لا بد منها في المعركة ·· انها طاعة القيادة العليا فيها ، التي تنبثق منها طاعة الأمير الذي يقودها · وهي طاعة قلبية وعميقة لا مجرد الطاعة التنظيمية في الجيوش التي لا تجاهد لله ، ولا يقوم ولاؤها للقيادة على ولائها لله أصلا ·· والمسافة كبيرة وكبيرة ··

أما والأمر هكذا فحذار من التباغض فانها صفة من صفات بني اسرائيل الذين خرجوا عن طاعة ربهم ، قال الله تعالى : « **وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** » (24) فكل فرقة منهم تخالف الأخرى ·

وحذار من العداوة بينكم فانها صفة من صفات النصارى الذين نقضوا عهد ربهم ، ، اذ يقول عز وجل : « **وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** » (25) فأجل لهم الله العقاب وعجل لهم التفرق واختلاف الأهواء فكل فرقة تكفر أختها ·

---

(24) المائدة : 64 ·
(25) المائدة : 14 ·

وحذار من اشعال نار الفتنة فانها خطر ووبال ، ولن تكون الا في صالح الكافرين والمنافقين · يقول الله سبحانه وتعالى في معرض حديثه عن المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج للجهاد مع رسول الله : « **لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ، وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** » (26) ··

فالقلوب الحائرة تبث الخور والضعف في الصفوف ، والنفوس الخائنة خطر على الجيوش ، ولو خرج أولئك المنافقون ما زادوا المسلمين قوة بخروجهم بل لزادوهم اضطرابا وفوضى · ولأسرعوا بينهم بالوقيعة والفتنة والتفرقة والتخذيل · وفي المسلمين من يسمع لهم في ذلك الحين · ولكن الله الذي يرعى دعوته ويكلأ رجالها المخلصين ، كفى المؤمنين الفتنة ، فترك المنافقين المتخاذلين قاعدين: « **وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** » ··

والظالمون هنا معناهم « المشركون » فقد ضمهم كذلك الى زمرة المشركين !

وان ماضيهم ليشهد بدخل نفوسهم ، وسوء طويتهم ، فلقد وقفوا في وجه الرسول صلى الله عليه وسلم وبذلوا ما في طوقهم، حتى غلبوا على أمرهم فاستسلموا وفي القلب ما فيه : « **لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ** » · (27)

وكان ذلك عند مقدم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى المدينة ، قبل أن يظهره الله على أعدائه · ثم جاء الحق وانتصرت كلمة الله فحنوا لها رؤوسهم وهم كارهون ، وظلوا يتربصون الدوائر بالاسلام والمسلمين ·

والخلاصة التي أريد أن أقولها لك ـ يا أخي ـ هي أني حاولت أن أتدبر في كتاب الله قليلا وأن أرى معك كيف عالج الله سبحانه وتعالى مشكلة الاختلاف ؛ محاولا أن أستخرج الأصول التاريخية لهذه المسألة ، ثم أسبابها وأنواعها ، وكيفية وضع صمام الأمان عليها · فهل وعيت مقصودي ؟

---

(26) التوبة 47 ·
(27) التوبة : 48 ·

لا تختلفوا فتختلف قلوبكم

لو أن كل خلاف يقع بين الناس يشبه خلاف النحاة في اعراب كلمة ، أو خلاف أهل الحساب في حل مسألة لكانت الخلافات طرافة تستحق المشاهدة ، أو مسلاة تثير الاعجاب والتأمل ·

ذلك أن اختلاف العقول في تقويم حقيقة ، أو تقدير حكم ، لا خطر منه ·

سواء انتهى بحل حاسم أو بقي معلقا الى قيام الساعة ·

انما يستفحل الخلاف وتتسع هوته اذا علق الهوى بأحد أطرافه ، وترتب على رجحان احدى الكفتين نفع أو ضرر ·

هنا يحتدم الصراع ، ويغتلي الشقاق ، ويكون ظاهره الخصومة بين رأيين · والحقيقة أنها الخصومة بين أثرة وأثرة ·

وغالبا ما يضيع الحق ، أو يلوث في حمأة هذا الشقاق ·

والخلاف بين أصحاب الأديان ، أو بين أهل الدين الواحد ، قد يأخذ هذه السبيل الجائرة فينتهي بالفرق المتنازعة كلها الى شر مستطير ·

انني أعيد النظر أحيانا في خلافاتنا القديمة فيخيل الي أن شهوة الانقسام قد تسبق رغبة البحث والدراسة ، وأن رذائل الفراغ والترف العقلي هي التي تخلق موضوع الحديث ، وتشعب اتجاهه، مثل ما يفعل قعدة المجالس العاطلون في بعض الأندية السامرة ·

ان سلفنا الصالح من الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا كذلك ؛ فقد ضرب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا هريرة بدرته، لأنه حدث العامة بما رأي أمير المؤمنين أنه يعوقهم عن الانتاج والعمل الدائب .

ان الذين يختلقون أسباب الخلاف ثم يهيجون ريحها في صفوف هذه الأمة لا يدرون أي شر يصنعون ، ولا الى أي مدى يذهبون ؟؟

ولولا أن الله قيض للمسلمين في العصر الأخير من كره فرقتهم، ونظر الى عللها فوجدها تافهة ، لما انتهى هذا الخلاف دون فنائهم جميعا وضياع دينهم .

وعندي أن جل ضروب الخلاف التي شعبت أمتنا ترجع الى ضعف الخلق وحب الدنيا أكثر مما ترجع الى قوة العقل وحب الله.

فسوء الظن بالآخرين وتشهي الغلب عليهم ، وتضخيم الهفوات التي تقع منهم ، وتوليد آراء رديئة لم يقولوا بها من الآراء التي يذهبون اليها ، وتمنى بقائهم على الخطأ ، والغفلة عما يعقبه الانقسام الطفيف من مضاعفات جسيمة يجب تلافيها ، أو معرفة ذلك والذهاب مع العناد الى نهاية الشوط ... هذه جميعا رذائل اذا تفشت في جماعة فلن تقوم لها رسالة ، ولن ينجح لها قصد ، ولن يتماسك لها كيان ...

اتهم الشافعي أو غيره بحب آل البيت ونسب متهموه اليه بناء على ذلك – ، أنه ينكر امامة الشيخين بعد رسول الله . لم هذا التوليد ؟ والتظنن ؟ فكانت اجابة الرجل على ذلك أن قال :

يا راكبا قم بالمحصب من منى ... واهتف بقاعد خيفها والناهض!
ان كان رفضا حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أني رافضي !

ان الكتاب الذين لا يكترثون لجمع كلمة المسلمين ، أو الذين يرسلون مقالاتهم على عواهنها تثير الحفائظ ، وتحرك السخائم . يرتكبون في حق دينهم جرما هائلا .

وان تجرّع خطأ – صغر أو كبر – اتقاء خطيئة ثقيلة أصبح شيئا لا مفر منه !

فالقلم في هذا الزمان أخطر الآفات ، وعلى حملة الأقلام أكبر الاثم في خلق الضغائن والحقود بين الأفراد والجماعات والشعوب، وهم المسئولون أمام الله عن سوق الناس الى المجازر البشرية .

ان في بني آدم حيوانية مقهورة تطلب الغذاء من الأقاويل والأراجيف ، ولذلك يصفقون لمن يجترح المآثم باسم الغيرة على عمار الكون ، مع أنهم يعرفون أن بيته خراب .. !!! وهناك من أقطاب السياسة الدولية من يضرب الأمم بعضها ببعض في خطبة أو مقالة وهو معقول بعقال الشراب .

فاستئصالا لجراثيم الفرقة حارب الاسلام مظاهر الشذوذ ، وشدد النكير على أصحابها وبلغ منها حدا يثير الدهشة .

فهذا مصل ذهب الى المسجد قياما بحق الله . ووقف في الصف ليركع ويسجد ابتغاء مرضاته .

لكنه مذهول عما حوله محصور في حدود أفكاره ومشاعره الخاصة ، فهو يتحرك من تلقاء نفسه غير مرتبط بالنداء الذي يضبط نظام الجماعة .

هذا المصلي الخارج على صورة التجمع لا يشفع له أنه في عبادة ولا يقبل في شذوذه عذر ! وبم يوصف عمله ؟ ان انفلاته من قيد الجماعة يشير الى بقايا حيوانية فيه ، ورفضه الانقياد في الركوع والرفع منه ، وايثار متابعة هواه الخاص ، يدلان على نفس تستمرىء الفوضى وتستسيغ الشغب ، فهي في المسجد أو في المجتمع العام محذورة النزوات .

ولذلك يقول رسول الله : « الذي يخفض ويرفع قبل الامام انما ناصيته بيد شيطان » . (1)

(1) « فانما ناصيته بيد الشيطان » الطبراني في باب النداء .

نعم هي بيد شيطان ، وان كان صاحبها يصفّ قدميه في عبادة .

فان قيمة الطاعة ليست في صورة الجسد الحاني .

وانما هي قبل كل شيء في حقيقة القلب المنيب ، وفي النفس المتوجهة الى الله ترجو رضاه وتخشى غضبه .

وما أقل المصلين الذين يتعلمون من صلاتهم الحفاظ على كرامة رسالتهم وجماعتهم ، والابقاء على كيان دينهم وأمتهم .

فلا تستغربن أن يذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعنيف الشاذين ومثيري الفوضى الى حد قوله : « أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الامام أن يحول الله رأسه رأس كلب » .

وفي رواية أخرى « أما يخشى أحد اذا رفع رأسه من ركوع أو سجود قبل الامام أن يجعل رأسه رأس حمار ، أو يجعل الله صورته صورة حمار » !! (2)

ان هذه الحملة النبوية ليست على غلطة رجل في موقفه ، بل هي على بلادة رجل في تصرفه بلادة يبست في نفسه حتى ان روح الجماعة لم تستطع اذابتها .

وهذا التحجر الخلقي في بعض الأفراد مصيبة اجتماعية لا تهادن ولا يعترف بها مصلح .

وذاك سر الترهيب الوارد في السنة ...

ان المحافظة على روح الجماعة وصورتها قربة عظيمة ،

وفي سبيلها لا حرج من التضحية ببعض التعاليم !

ولينظر المسلمون الى ما روي في الصحيح أن فريضة القيام في الصلاة تسقط عن المأموم اذا صلى الامام قاعدا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انما جعل الامام ليؤتم به ، فلا تختلفوا عليه ! فاذا كبر فكبروا ، واذا ركع فاركعوا ، واذا قال :

(2) متفق عليه .

سمع الله لمن حمده ، فقولوا : اللهم ربنا لك الحمد . واذا سجد فاسجدوا واذا صلى قاعدا صلوا قعودا أجمعون » . (3)

فمنعا للاختلاف أسقط ركن القيام عن المقتدين ، وهم أصحاء قادرون على الاتيان به .

ذلك أن محو شارات الفرقة أدنى الى مرضاة الله من رعاية أوامر أخرى . كذلك هدى رسول الله ... !!!

واذا كنا ـ سدا للذريعة ـ نقبل الضرر الخفيف اتقاء ضرر أشد ، فان المحافظة على وحدة الأمة فريضة عليا تطوى في سبيل تأمينها أمور كثيرة .

ولأضرب أمثلة تحدد المراد ..

ان اختلاف العقول في فهم نص ما ، أو تصحيح أثر ما لا حرج فيه ، ولا قيد عليه ، ما دام في حدود القواعد العلمية المحترمة . على أن هذا الخلاف يجب أن يطوى طيا في الحياة العملية ، فلا يتجاوز قاعات البحث وفصول الدراسة .

فاذا اضطربت أقوال الأئمة : أهناك قنوت في صلاة الفجر أم لا . وما مكانه ان صح وجوده ؟؟ فليختلفوا في ذلك ما شاءوا وليقتنع كل بما يرى .

لكن عند الذهاب الى المسجد واقام الصلاة لا يجوز أن تظهر فيه الا صورة واحدة يقبل الجميع عليها وينسون آراءهم بازائها مهما كانت في نظرهم صحيحة .

فان صحتها لن تبلغ مبلغ ركن القيام الذي أهدر حتى تسود روح الجماعة وصورتها في بيوت الله .

وليس المهم أن يسود الرأي الراجح قدر ما يهمنا التقاء الجمهور عند رأي ما .

(3) كذلك يرى بعض العلماء ، وأغلب الفقهاء يرى أن ركن القيام باق على المقتدين الأصحاء .

فكما أن حكم القاضي يرفع الخلاف فكذلك فعل الامام يجب أن يرفعه · ولا ينبغي الشغب عليه من أي معارض ·

وطالب الثواب ان كان مجتهدا أو مقلدا يجب أن يعلم بأن ثواب الله على تجميع الشمل ، وصيانة الأمة أربى عنده وأرجى من التعصب لمذهب ما ·

وقد روي أن ابن مسعود نقد اتمام عثمان للصلاة أيام منى وذكر أن ذلك مخالف لسنة رسول الله والشيخين بعده · فقد كانوا يقصرون صلاتهم ، ويتابعهم الحجيج في ذلك ·

واحتج عثمان بأن الموسم يحضره جماهير الأعراب الذين يحتاجون الى معرفة دينهم ، فلو قصر بهم لظنوا الصلاة كذلك أبدا ·

ورفض ابن مسعود هذه الحجة ·

ومع ذلك فقد أتم الصلاة وراء عثمان كراهية للخلاف ·· !!

وضاق أبو قتادة من مسلك خالد بن الوليد مع مالك بن نويرة وزوجته ، فانسحب من الجيش عائدا الى المدينة ليشكو قائده الى الخليفة الأول أبي بكر ·

فأمره أبو بكر أن يلحق بالجيش ، وأن ينتظم مع سائر الجند تحت امرة خالد !

فاذا رابه أمر أبلغ عنه وهو في نطاق المعسكر المتماسك ·

وتلك هي سياسة الجيوش في الأمم قاطبة ··

وحكوا أن الشافعي لما ذهب الى العراق لم يقنت في الفجر – على خلاف ما يرى – بل قنت في الوتر، احتراما لرأي أبي حنيفة ·

وهذا هو أدب الاسلام ، يعرفه حق المعرفة امام جليل نبيل كالشافعي ··

فهل عرف التلامذة والمقلدون هذا ؟ كلا ، لقد قسموا الأمة الواحدة أمما شتى · وأمسى المؤلف في كثير من العلوم يقول عن نفسه : فلان المالكي مذهبا ، الأشعري عقيدة ، الخلوتي طريقة ، الشامي نسبة ·

لقد كانت طريقنا الى ديننا سهلة قريبة ، فجرنا الخلاف المذهبي والتعصب الطائفي الى عدة مزالق لا يؤمن فيها العثار ، ولا ترجى معها السلامة ·· فصرنا الى هذه الفرقة المشتتة التي تمشت في حياتنا المادية والمعنوية حتى يكاد المسلم ينكر أخاه أو يتنكر له ·· وتلك حال جديرة بالرثاء أو البكاء :

كنا أناسا على دين ، فغيرنا ... طول الجدال، وخلط الجد باللعب

ان « شيطان » الفرقة يعمل للأهداف نفسها التي يعمل لها « شيطان » الخمر والميسر ، هذه الأهداف التي ذكرها الله عز وجل في قوله : « إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ » · (4)

فان تمزق الأمة أشلاء متناثرة يميت الشعور العام فيها ، ويمنع تيار الاحساس الواحد من أن يأخذ دورته في شتى أجزائها ·

ذاك لو أن الجسم بانت عنه بعض أعضائه ، فكيف اذا تربص بعضها بالبعض الآخر وتمنى له المهالك ؟

ان الفرقة وبال جسيم ، وعندما يقع بأس الأمة بينها وتفشو الخصومات في كيانها ، فهي أمة تنتحر قبل أن ينال منها عدوها ··

ومهما قيل في أسباب الفرقة وبواعثها فان ذكر العصبية – للرأي او للطائفة – كثيرا ما يسبق ذكر الله ، بل كثيرا ما ينتهي بالذهول عنه ·

وللعصبية المذهبية والطائفية ضراوة أنكى من ضراوة الخمر ·· الا أن هذه تغطي العقل · أما تلك فتغطي الضمير ، ثم تسخر العقل

(4) المائدة : 91 ·

والبدن لارضاء الأثرة ، ومسايرة الحقد والغلب ، وطلب الانتصار بأية وسيلة ..

ولعل قول رسول الله : « ان البغضاء هي الحالقة » (5) أي : التي تحلق الايمان والفضيلة والأخوة · لعله يشير الى هذه النتائج القاتمة ..

والاختلاف في الرأي طبيعة بشرية لا يمكن مصادرتها ·

ولكي تبرد الحرارة التي قد تصحب هذا الخلاف ، خصوصا في شؤون الدين ، يجب أن توفر هذه العناصر :

سعة المعرفة ،

اخلاص النية لله ،

والاعتبار بأحداث التاريخ في انتقال الأمم · (6)

وانك لتلمح هذه الصفات فيمن اختارهم النبي صلى الله عليه وسلم للدعوة الى الله ، فعن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم [لما] بعث معاذا وابا موسى الأشعري الى اليمن قال [لهما] : « يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا (7) ولا تختلفا » · (8)

ومصيبتنا هي أن النافخين في نار الخلاف والفرقة عصابة من العامة والدهماء الذين لا يفقهون من الدين شيئا ، أو من مرضى القلوب وعميان البصيرة من المشتغلين بالعلم الشرعي ، وقد روي عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرءوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم (9) فاذا اختلفتم فقوموا عنه » · (10)

---

(5) أحمد بن حنبل في مسنده ·
(6) ظلام من الغرب : محمد الغزالي (بتصرف) ·
(7) تطاوعا : تحابا ·
(8) رواه البخاري ·
(9) ائتلفت قلوبكم : اجتمعت عليه ·
(10) رواه البخاري ·

ان الفتنة في الأغلب تحيط بصاحبها وتنعكس على البادىء بها فلا تنكشف الا وهو بها مصروع كما قال الله تعالى : « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » · (11)

وقد ورد في الأثر : « الفتنة نائمة فمن أيقظها صار طعاما لها » · وقال جعفر بن محمد : « الفتنة حصاد للظالمين » · وقال بعض الحكماء : « صاحب الفتنة أقرب شيء أجلا ، وأسوأ شيء عملا » · وقال بعض الشعراء :

وكنت كعنز السوء قامت لحتفها   الى مدية تحت الثرى تستثيرها

ولقد حذر من الفرقة جمع من العارفين بعواقبها ، فعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ان الله تعالى يرضى (12) لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا ؛ يرضى لكم : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم · ويكره لكم : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، واضاعة المال » وكل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الألفة ·

والعرب تقول : « من قل ذل » · وقال قيس بن عاصم :

ان القداح اذا اجتمعن فرامها   بالكسر ذو حنق وبطش أيد
عزت فلم تكسر وان هي بددت   فالوهن والتكسير للمتبدد

لقد حذر الله المؤمنين من تذكر تراث الجاهلية واحن الضلالة ويطمئنهم باذهاب اختلافاتهم وتبايناتهم اذا هم أسلموا وساروا على نهجه ، يقول تبارك وتعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا » (13) يعني حبا ·

يقول أبو الحسن الماوردي :

« قد يختلف أهل الدين على مذاهب شتى وآراء مختلفة ، فيحدث بين المختلفين فيه من العداوة والتباين مثل ما يحدث بين

---

(11) فاطر : 43 ·
(12) ان الله يرضى لكم : رواه مسلم عن أبي هريرة ·
(13) مريم : 96 ·

المختلفين في الأديان ؛ وعلة ذلك أن الدين والاجتماع على العقد الواحد فيه لما كان أقوى أسباب الألفة كان الاختلاف فيه من أقوى أسباب الفرقة . واذا تكافأ أهل الأديان المختلفة والمذاهب المتباينة ولم يكن أحد الفريقين أعلى يدا وأكثر عددا كانت العداوة بينهم أقوى ، والاحن فيهم أعظم لأنه ينضم الى عداوة الاختلاف تحاسد الأكفاء وتنافس النظراء » . (14)

ومن الفقه الذي يغفل عنه بعض المتدينين : معرفة مراتب الأحكام الشرعية ، وانها ليست في درجة واحدة من حيث ثبوتها ، وبالتالي من حيث جواز الاختلاف فيها .

فهناك الأحكام المعلومة من الدين بالضرورة ، بحيث يستوي في العلم بها الخاص والعام ، وهي التي يكفر من انكرها بغير خلاف ، لما في انكارها من تكذيب صريح لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

أما الاختلاف في الأحكام الفرعية العملية والظنية ، لا ضرر فيه ولا خطر منه ، اذا كان مبنيا على اجتهاد شرعي صحيح ، وهو رحمة بالأمة ، ومرونة في الشريعة ، وسعة في الفقه ، وقد اختلف فيها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم باحسان ، فما ضرهم ذلك شيئا ، وما نال من أخوتهم ووحدتهم كثيرا ولا قليلا

بل هناك في داخل المذهب الواحد من المذاهب المتبوعة نجد العديد من الأقوال ، أو الروايات أو الوجوه ، أو الطرق ، أو اختلاف التصحيحات والترجيحات فيما بينها لدى علماء المذهب .

ذلك لأن أسباب الخلاف قائمة في طبيعة البشر ، وطبيعة الحياة، وطبيعة اللغة ، وطبيعة التكليف ، فمن أراد أن يزيل الخلاف بالكلية فانما يكلف الناس والحياة واللغة والشرائع ضد طبائعها ، والله سبحانه وتعالى يقول : « وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا » . (15)

---

(14) أدب الدنيا والدين : لأبي الحسن الماوردي .
(15) البقرة : 148 .

ولا أريد أن أحصر الاختلاف في الجانب الفقهي وانما أردت أن أجعل هذا الكلام مقدمة لحل عملي يكون لنا نبراسا نحتذيه .

يقول الدكتور يوسف القرضاوي :

« لم أجد في دعاة الاسلام ومصلحيه في هذا العصر من فهم قضية الخلاف وأدبه وفقهه كما فهمها أحد الائمة المجددين ، وربى عليها أبناء مدرسته .

«فرغم حرضه أشد الحرض على وحدة الصف الاسلامي ، ومحاولاته الجادة والواعية لتوحيد كلمة المسلمين ، وجمعهم على الحد الأدنى من الأصول والمفاهيم الاسلامية ، وفي ذلك وضع « أصوله العشرين » المعروفة ، رغم ذلك كان يؤمن بأن الخلاف في فروع الدين وأحكامه العملية الجزئية ، لا مفر منه ، ولا يمكن تجنبه، وقد عرض لذلك في أكثر من رسالة من رسائل دعوته ، فأجاد وأفاد .

« ومن المواقف العملية التي تروى عنه — وربما رويت عن علماء آخرين أيضا — مما له دلالة بليغة في موضوعنا : أنه ذهب لزيارة احدى القرى لالقاء محاضرة هناك ، وكان ذلك في رمضان ، وقد انقسم أهل القرية الى فريقين يختصمان حول صلاة التراويح، أهي عشرون ركعة كما صليت في عهد عمر ، وتوارثها الناس على مر القرون بعد ذلك ، أم هي ثماني ركعات فقط ، كما ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان لا يزيد على ذلك في رمضان ولا غيره ؟ رأيان تعصب لكل منهما فريق من أهل البلدة حتى كادا يقتتلان وكل يدعي أنه على الحق والسنة ، وأن الآخر على خطأ وبدعة ، فلما عرفوا أن الشيخ قادم اليهم ، رضوا أن يحتكموا اليه فيما اختلفوا فيه ، وكل فئة تحسب انه سيحكم لها ضد الأخرى .

« ولكن الأستاذ الامام رحمه الله اتجه بهم وجهة أخرى

قال : ما حكم صلاة التراويح ؟

قالوا : سنة ، يثاب من فعلها ، ولا يعاقب من تركها .

قال : وما حكم الأخوة بين المسلمين ؟

قالوا : فريضة دينية ، ودعامة من دعائم الايمان

قال : وهل يجوز في شرع الله أن نضيع فريضة للمحافظة على سنة ؟

« انكم لو أبقيتم على أخوتكم ووحدتكم ، وانصرفتم الى بيوتكم، ليصلي كل منكم في بيته ما ترجح له واطمأن الى دليله : ثماني ركعات أو عشرين لكان خيرا من أن تختصموا وتقتتلوا » . (16)

وهاك مثالا آخر من حياة الرجل نفسه لكن مع أشخاص آخرين يخالفون اخوانهم في بعض أمور العقيدة والفكر ، فلننظر كيف يحل الخلاف :

يقول الأستاذ سعيد رمضان :

« ان أنس لا أنس موقفه ـ رضوان الله عليه ـ في أمسية مشهودة ، وقد احتشد أمامه قرابة أربعين ألفا من فئات الناس ، بينهم جمهرة من أتباع عدة طرق صوفية ، درج بعضهم على النفرة مع طابع الحركة المتحمسة ، كأنهم يرونه يجافي معنى العبادة : على ما لقنوه وتحدد مفهومهم به . فاذا به ـ بعد استرسال روحي خالج غائر النفوس في صفاء ويسر ـ يقول لمستمعيه فجأة في اشراقة كأنها السحر : « ألا تعجبون معي من اخوتنا العُبَّاد الذين لا ينقطعون من تلاوة دعاء الشيخ أبي الحسن الشاذلي في حزب البر ، ويرددون من ذلك دائما : « ... اللهم ارزقنا الموتة المطهرة ... » ؟ . ماذا تراهم يستحضرون في معنى الموتة المطهرة ؟ !! الا ان أطهر موتة يحبها الله هي هذه ... » . ورفع يده فمر بها على رقبته اشارة الى قطع الرقاب في سبيل الله عز وجل .. فكأنما والله مست الناس كلهم كهرباء ، واستعلن أمامهم مشهد الفداء والذبح رأي العين ... فسالت دموع !!! وثارت عواطف !! وتعالت هتافات !! »

---

(16) الصحوة الاسلامية بين الجحود والتطرف : الدكتور يوسف القرضاوي (بتصرف) .

فلم يكتف باشعارهم أنهم اخوة بل بين لهم أن أخوتهم فريضة وضرورة ، وهذا من خلال تبيين المصير المشترك والأهداف الواحدة .

اننا بسعة المعرفة ، وصدق الاخلاص ، وحسن الافادة من الماضي ، نقدر على وصل ما انقطع من حبالنا وأمجادنا .

ونستأنف المسير نحو الغاية النبيلة التي هدانا الله لها .

ومعنا كتاب حفظته العناية العليا وحبته الخلود .

وسنة توافر لها من ضمانات التوثيق ما لم يعهد في تاريخ بشر .

وما دمنا نؤمن بمحمد وكتابه فما يجوز أن نتعادى على شيء بعده .

فكل شيء بعد هذا اليقين قليل .

وقد نختلف ، بل سوف نختلف حتما في أمور شتى ، لكن هذا الخلاف المفترض لا يفصل بين أخوين .

ولا يعكر مستقبل أمة ذاقت من غصص الفرقة الأمرين ..

فلنعمل فيما اتفقنا فيه .

وليعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه .

وأحسب أننا لو اجتمعنا على هذا لما بقي لدينا وقت للخلاف على الفرعيات ، ولو اختلفنا عليها ما بقي لدينا وقت لتحويل الخلاف الى حرب باردة أو ساخنة .. !!

ماذا بعد الاختلاف والفرقة من شرور ؟

المسلمون اليوم يعيشون فرقة قاتلة ، أضف الى ذلك ما لقيه ويلقاه العالم الاسلامي شرقا وغربا وشمالا وجنوبا من هجمة شرسة على أوطانه ، ومقدساته ، وما يشن على الأمة الاسلامية من حرب لا تخبو نارها : علنية حينا ، وخفية أحيانا ، حرب اتفقت عليها كل القوى غير المسلمة : يهودية وصليبية وشيوعية ووثنية ، حتى انها لتختلف فيما بينها كل الاختلاف ، ثم نراها تتفق كل الاتفاق اذا هبت ريح الاسلام في أي صورة من الصور .

وهل يسع مسلما يؤمن بالأخوة الاسلامية ، ويعتز بالانتماء الى خير أمة أخرجت للناس ، ويؤمن بأن المسلمين ـ وان اختلفت أوطانهم وألسنتهم ـ أمة واحدة ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، وأن من لم يهتم لأمر المسلمين فليس منهم ـ أن يرى مآسي أمته في كل مكان ويرى اخوانه في العقيدة معرضين للابادة المادية بالتقتيل والتنكيل ، أو الابادة المعنوية بالتنصير أو الالحاد ، أو على الأقل التجهيل والتضليل ، ثم يصبح ويمسي قرير العين ، ضاحكا ملء سنه ، نائما ملء جفنه ؟ فأين أخوة الايمان ، ورابطة الاسلام ؟

ان أنباء الصباح والظهيرة والمساء ، تحمل الى المسلم الغيور كل يوم عن اخوانه في فلسطين ، أو في لبنان ، أو في أفغانستان ، أو في الفيليبين ، أو في ارتيريا أو الصومال أو قبرص أو الهند ، أو

غيرها من البلاد التي يعيش فيها المسلمون أقلية مضطهدة ، أو أكثرية مقهورة ، ما يزلزل قلبه زلزالا شديدا ، وما يعصر قلبه من الألم عصرا ، وما يكوي كبده بالأسى والحسرة كي النار أو هو أشد ايلاما · كيف لا ودم المسلمين اضحى أرخص دماء أهل الأرض ؟ !

انني أصرخ ملء فمي ومن كل قلبي : ائتلفوا ولا تختلفوا · ان العوامل مواتية لوحدة العمل والتعاون بين جميع المسلمين برغم الفواصل والدول المتعددة المفتعلة التي خلفها الاستعمار ، ودان بها أرباب المصالح ؛ واذا لم تصدقني فاليك بأهم العوامل :

1 — اختلافنا يخدم مصالح عدونا :

فقديما تناحر السنة والشيعة على الحكم ، لمن يكون ؟

وظلوا يختلفون في تمييز زعمائهم ، وشرح حق كل منهم في الانفراد بالحكم ·· الى أن سقطوا جميعا ·

وها هو قد صار في يد « الخواجة » ، ولم يخلص لفريق منهما ·· !!

وتعصبوا تعصبا داميا لبعض الأحكام الفقهية ·

فها هي ذي الأحكام قد صارت بغير ما انزل الله في الأصول وفي الفروع جميعا ·· !! فهلا وعينا شؤم الخلاف بعد هذه النتائج المخزية ؟ ·

وقديما اختلف « الحسن البصري » و « واصل بن عطاء » في فاعل الكبيرة هل يخلد في النار أم لا ؟ لكل مذهب ·

ولم يكن على الحاكم الأموي يومئذ من حرج أن يدع هذا الجدل يمتد وينشغل العامة بالخوض فيه !!!

وقد ذكر المؤرخون : أن الشاه « اسماعيل الصفوي » نكل بجماهير غفيرة من أهل السنة ، نكاية في سلاطين الترك ، لا حماية لأهل البيت ، وأنه أحب دعم ملكه الخاص ، لا اقامة دين ولا حراسة حقوق ·

وقد تنازع آباؤنا — عفا الله عنهم — وطال هذا التنازع على أمور بعضها تافه وبعضها هام ، بعضها في شؤون الدين وبعضها في شؤون الدنيا ·

وبدأ هذا النزاع ، كما يبدأ أي داء ، هينا لا يخشى خطره ولا تدرى مغبته ·

واليوم يكتب أمام المسلم في لبنان أنه « سني » أو « شيعي » بوصف أن السنية طائفة تغاير الشيعة ، وأن الصلة بين الفريقين كالصلة بين أحدهما وبين المارون أو الدروز !! ··

وبهذا الاعتبار عد النصارى في لبنان أكبر الطوائف ، وجعل منهم رئيس الدولة ، مع أن المسلمين أكبر عددا وأربى نسبة ·

هل رأيت أوغل في الحمق من هذا المسلك ؟

قال الأستاذ « أحمد أمين » عن العداء بين الدولة العثمانية والدولة الايرانية :

« يريد العثمانيون الأولون أن يمدوا سلطانهم على الفرس ويأبى الفرس الا ن يحتفظوا باستقلالهم فيئول ذلك الى البغض الذي بلغ مداه في عهد السلطان سليم الأول حتى كان من اضطهاده للشيعة في مملكته أن قتل وسجن ما يقرب من أربعين ألفا » ·

وقد سقطت الدولة الاسلامية كلها أيام التتار لهول الانقسام الذي أحفظ الشيعة على السنة ، واستبيحت به دماء الفريقين ، ثم استسهل بعده أن يحكم المسلمين جميعا قوم وثنيون !!

هل هذا اللدد المر بين رجال يؤمنون جميعا بكتاب واحد ونبي واحد يمكن أن يوصف بأن مبعثه الاخلاص للاسلام ، والنصح لأمته ، وابتغاء مثوبة الله ؟ (1)

أما وقد رأيت بالبرهان التاريخي أن الفرقة أسقطت الدولة الاسلامية في أيدي أعدائها فانظر ما قاله أحد علماء الأسلام وهو

---

(1) ظلام من الغرب : محمد الغزالي ·

الشيخ العلامة محمد الغزالي : « ان كل مسلك يجعل المجتمع الاسلامي أضعف من نظيره الشيوعي أو اليهودي أو الصليبي يعد خيانة أو ارتدادا ·· وكل تفريط مدني أو عسكري في خدمة الاسلام فهو عصيان لخوف العقبى ·· » (2)

2 ـ اختلافنا يؤلف بين أعدائنا :

فقد كان السلطان العثماني « سليم الأول » يستطيع أن يسدي للمسلمين يدا جلى وأن يبقي علم الاسلام مرفوعا على ربوع الأندلس الى اليوم ، لو أنه وجه نشاطه الى امداد بني الأحمر بالمال والرجال وأعان على ابقاء دولتهم ، تقاتل عدوها ، وترد سيل الصليبية الطافح عن اجتياح حدودها ·

لكن السلطان المولع بالفتح والتوسع ، أغار على مصر وساق جيوشه لاسقاط حكومتها ، وأشبع شهوته في جعلها امارة ملحقة بملكه العريض ·

ذلك كله في الوقت الذي يتمكن فيه الاسبان من سحق المقاومة الاسلامية في الأندلس ، ثم يبدأون عملهم الهائل في طرد وتنصير خمسة ملايين مسلم ·

أين ذهبت عصبية الاسلام وأخوته ؟

انها ذابت في حريق الأثرة ··

قال الأستاذ « محمد حسين » أستاذ الأدب العربي بجامعة الاسكندرية يصف سياسة الانجليز في مصر وغيرها من أجزاء الوطن الاسلامي الكبير :

« كان للانجليز هدف واحد هو اضعاف العصبية الدينية ، وتمزيق أوصال المسلمين في مستعمراتهم حتى يستطيعوا أن يواجهوهم واحدا واحدا ·

---

(2) ص : 23 من كتاب : « مشكلات في طريق الحياة الاسلامية » : محمد الغزالي ·

« فالمصريون أحفاد الفراعنة ، واللبنانيون أحفاد الفينيقيين ، والعراقيون أحفاد الأشوريون ، والحجازيون أحفاد العرب وأحق الناس بالقيام على خلافة الاسلام » ·

والمؤلم أن هذه الشراك وقع فيها الألوف ، وانطلى محالها على الكثير · فتحولت الأجيال الناشئة الى المجرى الذي شقه لها الاستعمار ، ووهت أواصرها بالدين وهديه ·· !!

ولا تستبعد فكرة اتحاد أعدائنا علينا ـ خاصة ونحن مسلمون ـ فبالأمس القريب اتفق الروس والأمريكان على المصالح المتبادلة ، ومن قبل اجتمعت الجيوش الشيوعية والرأسمالية تحت راية واحدة للقضاء على هتلر قبل أن يبتلع الاثنين ·

يجب أن ينسى المسلمون المتنافرون الماضي بكل ما فيه من فرقة ، ويعملوا مخلصين يدا واحدة لخير الاسلام ومصلحته ، ويستحيل أن يقوم للاسلام عمود ، ويخضر له عود ما دام المسلمون أشتاتا متفرقين ·

فهلا وعيت من التاريخ عبرة يا أخي ؟

3 ـ تآلفنا شرط من شروط النصر :

لا ينصر الله الحق لمجرد أنه حق ، بل ينصره بأهله ورجاله المؤمنين المترابطين المتآخين على كلمة الله ، كما قال تعالى لرسوله : « هُوَ ٱلَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ » · (3)

حسبك الله ، فهو كافيك ، وهو الذي أيدك بنصره أول مرة ، وأيدك بالمؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ؛ وجعل منهم قوة موحدة ، بعد أن كانت قلوبهم شتى ، وعداواتهم جاهرة وبأسهم بينهم شديدا · سواء كان المقصود هم الأوس والخزرج ـ وهم الأنصار ـ فقد كان بينهم في الجاهلية من الثارات والدماء والمنازعات مع ما يستحيل معه الالتئام فضلا على هذا الاخاء الذي لم

---

(3) الأنفال : 62 ، 63 ·

تعرف له الأرض نظيرا ولا شبيها ٠٠ أى كان المقصود هم المهاجرون،
وهم كانوا كالأنصار في الجاهلية ٠٠ أو كان الجميع مقصودين ،
فقد كانت هذه هي حالة عرب الجزيرة جميعا !

ولقد وقعت المجزرة التي لا يقدر عليها الا الله ؛ والتي لا تصنعها
الا هذه العقيدة ، فاستحالت هذه القلوب النافرة ، وهذه الطباع
الشموس ، الى هذه الكتلة المتراصة المتآخية الذلول بعضها لبعض ،
المحب بعضها لبعض ، المتآلف بعضها مع بعض ، بهذا المستوى
الذي لم يعرفه التاريخ ؛ والذي تتمثل فيه حياة الجنة وسمتها
البارزة ـ أو يمهد لحياة الجنة وسمتها البارزة ـ « **وَنَزَعْنَا مَا فِي**
صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ » ٠ (4)

ان هذه العقيدة عجيبة فعلا ٠ انها حين تخالط القلوب ،
تستحيل الى مزاج من الحب والألفة ومودات القلوب ، التي تلين
جاسيها ، وترقق حواشيها ، وتندي جفافها ، وتربط بينها برباط
وثيق عميق رفيق ٠ فاذا نظرة العين ، ولمسة اليد ، ونطق الجارحة،
وخفقة القلب ، ترانيم من التعارف والتعاطف ، والولاء والتناصر،
والسماحة والهوادة ، لا يعرف سرها الا من ألف بين هذه القلوب!
ولا تعرف مذاقها الا هذه القلوب !

وهذه العقيدة تهتف للبشرية بنداء الحب في الله ؛ وتوقع
على أوتارها ألحان الخلوص له والالتقاء عليه ، فاذا استجابت
وقعت تلك المعجزة التي لا يدري سرها الا الله ، ولا يقدر عليها
الا الله ٠

يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ان المسلم اذا
لقي أخاه المسلم ، ، فأخذ بيده تحاتت عنها ذنوبهما كما تتحات
الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف والا غفر لهما
ذنوبهما ولو كانت مثل زبد البحار » ٠٠ (روا ه الطبراني) ٠

(4) الحجر : 47 ٠

وتتوارد أقوال الرسول تترى في هذا الباب ؛ وتشهد أعماله
بأصالة هذا العنصر في رسالته عليه الصلاة والسلام ، كما تشهد
الأمة التي بناها على الحب أنها لم تكن مجرد كلمات مجنحة ، ولا
مجرد أعمال مثالية فردية ؛ انما كانت واقعا شامخا قام على هذا
الأساس الثابت ، باذن الله ، الذي لا يقدر على تأليف القلوب هكذا
سواه ٠ (5)

☆ ☆ ☆

الحق أن المسلم يحس باستحياء وهو يرى أهله الذين تجري
في عروقهم دماء عقيدة واحدة قد مزقتهم الليالي الكوالح ٠

فاذا هم متناكرون مستوحشون ، لا ايلاف بينهم ولا ايناس ٠٠٠

فهل لا يزال توحيد كلمتنا نحن المسلمين عسيرا يا أخي ؟

انها حاجة ماسة ، بل اكسير حياة ٠

(5) في ظلال القرآن : سيد قطب (المجلد الثالث) ٠

أصلحوا ذات بينكم والا فانها الحالقة

لقد حض الشارع الحكيم على الاصلاح بين الناس ، وحث على تقريب القلوب ، وتنقيتها مما علق بها من أدران الفساد ، وعوامل الشقاق ودواعي الفرقة ·

أمر الشارع بذلك لعلمه أن الناس في حاجة مستمرة بعضهم الى بعض فما من انسان كائن من كان الا وفيه حاجة الى الناس ، والناس في حاجة اليه ، فهم في هذه الدار قد فرض عليهم أن يتجاوروا وأن يتقاربوا وأن يتقارضوا ، أحبوا أم كرهوا ما من ذلك بد ·

فتعال معي يا أخي لنستحضر الملامح الواقعية للجماعة المسلمة في أول وقعة كبيرة بعد قيام الدولة المسلمة في المدينة وكيف رسم الله سبحانه وتعالى لنا الطريق لاصلاح ذات بيننا اذ يقول : « **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ · قُلِ : الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ · الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ · أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** » ·· (1)

---

(1) الأنفال : 1 ، 2 ، 3 ، 4

قال ابن كثير في التفسير : روى أبو داود والنسائي وابن جرير وابن مردويه – واللفظ له – وابن حبان والحاكم من طرق عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا » . فتسارع في ذلك شبان القوم ، وبقي الشيوخ تحت الرايات . فلما كانت المغانم جاءوا يطلبون الذي جعل لهم ، فقال الشيوخ : لا تستأثروا علينا ، فانا كنا ردءا لكم ، لو انكشفتم لفئتم الينا . فتنازعوا ، فأنزل الله تعالى : « **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ** » ... الى قوله : « **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** » .. وقال الثوري ، عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « من قتل قتيلا فله كذا وكذا ، ومن اتى بأسير فله كذا وكذا » .. فجاء أبو اليسير بأسيرين ، فقال : يا رسول الله – صلى الله عليك – انت وعدتنا . فقام سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله ، انك لو أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء، وانه لم يمنعنا من هذا زهادة في الأجر ، ولا جبن عن العدو ، وانما قمنا هذا المقام محافظة عليك مخافة ان يأتوك من ورائك . فتشاجروا، ونزل القرآن : « **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ : الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ** » ... قال : ونزل القرآن : « **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ** » (2) ... الى آخر الآية ...

وروى الامام أحمد قال : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا أبو اسحق الشيباني ، عن محمد بن عبيد الله الثقفي . عن سعد بن أبي وقاص، قال : لما كان يوم بدر ، وقتل أخي عمير ، قتلت سعيد بن العاص ، وأخذت سيفه . وكان يسمى ذا الكثيفة . فاتيت به النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : « اذهب فاطرحه في القبض » قال : فرجعت وبي ما لا يعلمه الا الله من قتل أخي وأخذ سلبي . قال : فما

(2) الأنفال : 41 .

جاوزت الا يسيرا حتى نزلت سورة الأنفال ، فقال لي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « اذهب فخذ سلبك » .

فهذه الروايات تصور لنا الجو الذي نزلت فيه آيات الأنفال ... ولقد يدهش الانسان حين يرى أهل بدر يتكلمون في الغنائم ؛ وهم اما من المهاجرين السابقين الذين تركوا وراءهم كل شيء ، وهاجروا الى الله بعقيدتهم ، لا يلوون على شيء من أعراض هذه الحياة الدنيا ؛ واما من الأنصار الذين آووا المهاجرين ، وشاركوهم ديارهم وأموالهم ، لا يبخلون بشيء من أعراض هذه الحياة الدنيا أو كما قال فيهم ربهم : « **يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** » (3) .. ولكننا نجد بعض التفسير لهذه الظاهرة في الروايات نفسها . لقد كانت الأنفال مرتبطة في الوقت ذاته بحسن البلاء في المعركة ؛ وكانت بذلك شهادة على حسن البلاء ، وكان الناس يومئذ حريصين على هذه الشهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم – ومن الله سبحانه وتعالى ، في أول وقعة يشفي فيها صدورهم من المشركين ! .. ولقد غطى هذا الحرص وغلب على أمر آخر نسيه من تكلموا في الأنفال حتى ذكرهم الله سبحانه وتعالى به ، وردهم اليه .. ذلك هو ضرورة السماحة فيما بينهم في التعامل ، والصلاح بين قلوبهم في المشاعر ؛ حتى أحسوا ذلك في مثل ما قاله عبادة بن الصامت – رضي الله عنه – : « فينا – أصحاب بدر – نزلت حين اختلفنا في النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا ، فجعله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. » .

« **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ . قُلِ : الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** » ..

(3) الحشر : 9 .

لقد كان الهتاف لهذه القلوب التي تنازعت على الأنفال ، هو الهتاف بتقوى الله .. وسبحان خالق القلوب العليم بأسرار القلوب .. انه لا يرد القلب البشري عن الشعور بأعراض الحياة الدنيا ، والنزاع عليها – وان كان هذا النزاع متلبسا هنا بمعنى الشهادة بحسن البلاء – الا استجاشة الشعور بتقوى الله وخوفه وتلمس رضاه في الدنيا والأخرى .. ان قلبا يتعلق بالله ، يخشى غضبه ويتلمس رضاه ، لا يملك أن يتخلص من ثقلة الأعراض ، ولا يملك أن يرف شاعرا بالانطلاق :

ان التقوى زمام هذه القلوب الذي يمكن أن تقاد منه طائعة ذلولة في يسر وفي هوادة .. وبهذا الزمام يقود القرآن هذه القلوب الى اصلاح ذات بينها :

« فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ » ..

وبهذا الزمام يقودها الى طاعة الله ورسوله :

« وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ » .

وأول الطاعة هنا طاعته في حكمه الذي قضاه في الأنفال . فقد خرجت من أن تكون لأحد من الغزاة على الاطلاق ، وارتدت ملكيتها ابتداء لله ورسوله ، فانتهى حق التصرف فيها الى الله والرسول . فما على الذين آمنوا الا أن يستسلموا فيها لحكم الله وقسم رسول الله ؛ طيبة قلوبهم ، راضية نفوسهم ؛ والا أن يصلحوا علائقهم ومشاعرهم ، ويصفوا قلوبهم بعضهم لبعضهم ، ذلك :

« إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » ..

فلا بد للايمان من صورة عملية واقعية . يتجلى فيها ، ليثبت وجوده ، ويترجم عن حقيقته . وكما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « ليس الايمان بالتمني ، ولا بالتحلي ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل » (4) . ومن ثم يرد مثل هذا

(4) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس .

التعقيب كثيرا في القرآن لتقرير هذا المعنى الذي يقرره قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولتعريف الايمان وتحديده ؛ واخراجه من أن يكون كلمة تقال باللسان ، أو تمنيا لا واقعية له في عالم العمل والواقع .

ثم يعقب بتقرير صفات الايمان « الحق » كما يريده رب هذا الدين ؛ ليحدد لهم ما يعنيه قوله تعالى : « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .. فها هو ذا الايمان الذي يريده منهم رب هذا الدين :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » ..

كان السلف يعرفون من هذه الآيات أن من لم يجد في نفسه وعمله هذه الصفات لم يجد الايمان ، ولم يكن مؤمنا أصلا .. جاء في تفسير ابن كثير : قال علي بن طلحة عن ابن عباس ، في قوله : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » قال : « المنافقون: لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون ، ولا يصلون اذا غابوا (أي عن أعين الناس) ولا يؤدون زكاة أموالهم . فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين . ثم وصف الله المؤمنين فقال : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » فأدوا فرائضه . «وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا » يقول : زادتهم تصديقا : « وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » يقول : لا يرجون غيره .

« الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » .

تلك هي الصفات التي حدد الله بها – في هذا المقام – الايمان . وهي تشمل الاعتقاد في وحدانية الله ؛ والاستجابة الوجدانية لذكره؛ والتأثر القلبي بآياته ؛ والتوكل عليه وحده ؛ واقامة الصلاة له ، والانفاق من بعض رزقه ..

وهي لا تمثل تفصيلات الايمان ـ كما وردت في النصوص الأخرى ـ انما هي تواجه حالة واقعة .. حالة الخلاف على الأنفال وفساد ذات البين من جرائها .. فتتذكر من صفات المؤمنين ما يواجه هذه الحالة . وهي في الوقت ذاته تعين صفات من فقدها جملة لم يجد حقيقة الايمان فعلا . بغض النظر عما اذا كانت تستقصي شروط الايمان أو لا تستقصيها .

وعلى نفس القاعدة يجيء التعقيب الأخير :

« أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَمَغْفِرَةٌ ، وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » ..

فهذه الصفات انما يجدها في نفسه وفي عمله المؤمن الحق . فمن لم يجدها جملة لم يجد صفة الايمان . وهي في الوقت ذاته تواجه الحالة التي تنزلت فيها الآيات .. ومن ثم تواجه الحرص على الشهادة بحسن البلاء ، بأن هؤلاء الذين يجدون هذه الصفات « لهم درجات عند ربهم » .. وتواجه ما وقع في ذات البين من سوء أخلاق ـ كما قال عبادة بن الصامت ـ بأن الذين يجدون هذه الصفات لهم عند ربهم « **مَغْفِرَةٌ** » .. وتواجه ما وقع من نزاع على الأنفال بأن الذين يجدون هذه الصفات لهم عند ربهم « **رِزْقٌ كَرِيمٌ** » .. فتغطي الحالة كلها ، كل ما لابسها من مشاعر ومواقف . وتقرر في الوقت ذاته حقيقة موضوعية ؛ وهي أن هذه صفات المؤمنين ، من فقدها جملة لم يجد حقيقة الايمان . (5)

والاصلاح بين الناس خير كله ، قال الله تعالى : « **لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** » . (6)

---

(5) في ظلال القرآن : سيد قطب (من المجلد الثالث بايجاز) ..
(6) النساء : 114 .

وعلى الذي يتولى جمع الكلمة أن يكون عادلا في أحكامه اذا ما حكم لقوله تعالى : « **ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** » . (7)

ان التاريخ (وهو أبو العبر) يحدثنا أن الأمة تستطيع أن تصل الى أوج درجات الرفعة وأن تأتي بالعجائب اذا تفرغت من شأن نفسها وتخلصت من السخائم فيما بينها وتطهرت من أغلال الحقد والبغضاء والشحناء .

وفي حوادث الماضي والحاضر ما يغنينا عن ضرب الأمثال وعن ترديد الأقوال ، لهذا كله جعل الشارع الحكيم الاصلاح عملا محببا الى الله يوجب الثناء والثواب في العاجل الآجل وأوجب على المسلمين أن يسارعوا في لم الشمل ورأب الصدع وجمع الشتات .

أما الاصلاح بين الطوائف المتخاصمة أمر حتم ولو لم يتم ذلك الا بالعنف محافظة على الكيان العام للجماعة ، وابقاء لعلاقات المودة والاخاء . يقول الله تعالى :

« وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا . فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ . فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا . إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » .. (8)

وهذه قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك ، تحت النزوات والاندفاعات . تأتي تعقيبا على تبين خبر الفاسق ، وعدم العجلة والاندفاع وراء الحمية والحماسة ، قبل التثبت والاستيقان .

وسواء كان نزول هذه الآية بسبب حادث معين كما ذكرت الروايات ، أم كان تشريعا لتلافي مثل هذه الحالة ، فهو يمثل قاعدة

---

(7) النساء : 58 .
(8) الحجرات : 9 ، 10 .

عامة محكمة لصيانة الجماعة الاسلامية من التفكك والتفرق . ثم لاقرار الحق والعدل والصلاح . والارتكان في هذا كله الى تقوى الله ورجاء رحمته باقرار العدل والصلاح .

والقرآن قد واجه – أو هو يفترض – امكان وقوع القتال بين طائفتين من المؤمنين . ويستبقي لكلتا الطائفتين وصف الايمان مع اقتتالهما ، ومع احتمال أن احداهما قد تكون باغية على الأخرى، بل مع احتمال أن تكون كلتاهما باغية في جانب من الجوانب .

وهو يكلف الذين آمنوا – من غير الطائفتين المتقاتلتين طبعا – أن يقوموا بالاصلاح بين المتقاتلين . فاذا بغت احداهما فلم تقبل الرجوع الى الحق – ومثله أن تبغيا معا برفض الصلح أو رفض قبول حكم الله في المسائل المتنازع عليها – فعلى المؤمنين أن يقاتلوا البغاة اذن ، وأن يظلوا يقاتلونهم حتى يرجعوا الى أمر الله . وأمر الله هو وضع الخصومة بين المؤمنين ، وقبول حكم الله فيما اختلفوا فيه ، وأدى الى الخصام والقتال . فاذا تم قبول البغاة لحكم الله ، قام المؤمنون بالاصلاح القائم على العدل الدقيق طاعة الله وطلبا لرضاه .. « إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ » ..

ويعقب على هذه الدعوة وهذا الحكم باستجاشة قلوب الذين آمنوا واستحياء الرابطة الوثيقة بينهم ، والتي جمعتهم بعد تفرق ، وألفت بينهم بعد خصام ؛ وتذكيرهم بتقوى الله ، والتلويح لهم برحمته التي تنال بتقواه :

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ، فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ، وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » ..

ومما يترتب على هذه الأخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة ، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يرد الى الأصل فور وقوعه ؛ وأن يستباح في سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة من اخوانهم ليردوهم الى الصف ، وليزيلوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة . وهو اجراء صارم وحازم كذلك .

ومن مقتضيات هذه القاعدة كذلك ألا يجهز على جريح في معارك التحكيم هذه ، وألا يقتل أسير ، وألا يتعقب مدبر ترك المعركة، وألقى السلاح ، ولا تؤخذ أموال البغاة غنيمة . لأن الغرض من قتالهم ليس هو القضاء عليهم ، وانما هو ردهم الى الصف ، وضمهم الى لواء الأخوة الاسلامية .

والأصل في نظام الأمة المسلمة أن يكون للمسلمين في أنحاء الأرض امامة واحدة ، وأنه اذا بويع لامام ، وجب قتل الثاني ، واعتباره ومن معه فئة باغية يقاتلها المؤمنون مع الامام . وعلى هذا الأصل قام الامام علي – رضي الله عنه – بقتال البغاة في وقعة الجمل وفي وقعة صفين ؛ وقام معه بقتالهم أجلاء الصحابة رضوان الله عليهم . وقد تخلف بعضهم عن المعركة منهم سعد ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وابن عمر – رضي الله عنهم – اما لأنهم لم يتبينوا وجهة الحق في الموقف في حينه فاعتبروها فتنة . واما لأنهم كما يقول الامام الجصاص : « ربما رأوا الامام مكتفيا بمن معه مستغنيا عنهم بأصحابه فاستجازوا القعود عنه لذلك » .. والاحتمال الأول أرجح ، تدل عليه بعض أقوالهم المروية . كما يدل عليه ما روي عن ابن عمر – رضي الله عنه – في ندمه فيما بعد على أنه لم يقاتل مع الامام .

ومع قيام هذا الأصل في النص القرآني يمكن اعماله في جميع الحالات – بما في ذلك الحالات الاستثنائية التي يقوم فيها امامان أو أكثر في أقطار متفرقة متباعدة من بلاد المسلمين ، وهي حالة ضرورة واستثناء من القاعدة – فواجب المسلمين أن يحاربوا البغاة مع الامام الواحد ، اذا خرج هؤلاء البغاة عليه . أو اذا بغت طائفة على طائفة في امامته دون خروج عليه . وواجب المسلمين كذلك أن يقاتلوا البغاة اذا تمثلوا في احدى الامامات المتعددة في حالات التعدد الاستثنائية ، بتجمعهم ضد الفئة الباغية حتى تفيء الى أمر الله . وهكذا يعمل النص القرآني في جميع الظروف والأحوال .

وواضح أن هذا النظام ، نظام التحكيم وقتال الفئة الباغية حتى تفيء الى أمر الله ، نظام له السبق من حيث الزمن على كل محاولات البشرية في هذا الطريق · وله الكمال والبراءة من العيب والنقص الواضحين في كل محاولات البشرية البائسة القاصرة التي حاولتها في كل تجاربها الكسيحة ! وله بعد هذا وذاك صفة النظافة والأمانة والعدل المطلق ، لأن الاحتكام فيه الى أمر الله الذي لا يشوبه غرض ولا هوى ، ولا يتعلق به نقص أو قصور ·· ولكن البشرية البائسة تطلع وتعرج ، وتكبو وتتعثر · وأمامها الطريق الواضح الممهد المستقيم ! (9)

ومع هذا فحذار – يا أخي – من السقوط في هاوية التحاكم الى الطاغوت وقد قال الله سبحانه : « **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا** » · (10)

جاء في أسباب نزول هذه الآية ما يلي :

أخرج ابن أبي حاتم والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال : كان أبو برزة الأسلمي كاهنا يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه ، فتنافر اليه ناس من المسلمين فأنزل الله : « **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا** » الى قوله « **إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا** » ·

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة أو سعيد عن ابن عباس قال : كان الجلاس بن الصامت ، ومتعب بن قشير ، ورافع بن زيد ، وبشر يدعون الاسلام فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين في خصومة كانت بينهم الى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فدعوهم الى الكهان حكام الجاهلية فأنزل الله فيهم « **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ** » الآية ·

(9) نفس المرجع : المجلد السادس ·
(10) النساء : 60 ·

وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال : كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة ، فقال اليهودي أحاكمك الى أهل دينك أو قال النبي لأنه قد علم أنه لا يأخذ الرشوة في الحكم ، فاختلفا واتفقا على أن يأتيا كاهنا في جهينة ، فنزلت · (11)

فحذار من التحاكم الى الطاغوت يا أخي بعد أن أنقذنا الله من الجاهلية ·

وبعد أن جلنا هذه الجولة السريعة في الآيات التي طرقت موضوع اصلاح ذات البين ، تعال معي نستوفِ الباب حقه من جانب السنة النبوية لنستخرج منها المواعظ والأحكام ،

فالاصلاح بين المتخاصمين يعادل عملا مرضيا وتجارة رابحة مع الله :

روي عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي أيوب : ألا أدلك على تجارة ؟ قال : بلى · قال : « صل بين الناس اذا تفاسدوا وقرب بينهم اذا تباعدوا » (12)

والتقريب بين المتباعدين من أفضل الصدقات :

روى الطبراني والأصبهاني عن أبي أيوب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أدلك على صدقة يحب الله موضعها ؟ » قال : قلت بأبي أنت وأمي ، قال : « تصلح بين الناس ، فانها صدقة يحب الله موضعها » ·

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الصدقة اصلاح ذات البين » · (13)

(11) أسباب النزول : جلال الدين السيوطي ·
(12) رواه البزار والطبراني ·
(13) رواه الطبراني والبزار ، وفي اسناده عبد الرحمن بن زياد ابن أنعم ، وحديثه هذا حسن ·

ومن وصل بين متنافرين آتاه الله أجرا عظيما :

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس : يعدل بين الاثنين صدقة ... »

ومن جمع بين متقاطعين كان عمله أفضل من صلاة :

روى الأصبهاني عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما عمل شيء أفضل من الصلاة ، واصلاح ذات البين ، وخلق جائر بين المسلمين » .

بل هذا العمل أفضل من عدة قربات مجتمعة :

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ » قالوا : بلى . قال : « اصلاح ذات البين ، فان فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين» (14) والمقصود من قوله تحلق الدين أي تزيل كل خير وهداية ، وتجعل المتنافر بعيدا عن آداب الاسلام جاحدا فضله منكرا تعاليمه .

فعلى المسلمين أن يسارعوا الى اصلاح ذات البين ، وتقوية الروابط اذا تعرضت لوهن أو ضعف .

وكن سباقا في هذا الميدان يا أخي لأنه لا يقل أهمية عن أهمية المسارعة الى الصلاة أو الاجتهاد في الصيام وغيرهما من العبادات .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه أنس رضي الله عنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس اذ ضحك حتى بدت ثناياه . فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ما الذي أضحكك ؟ قال : « رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة ، فقال أحدهما : يا رب خذ لي مظلمتي من هذا . فقال

---

(14) رواه داود والترمذي وابن حبان في صحيحه ، وقال الترمذي : حديث صحيح .

الله تعالى : رد على أخيك مظلمته . فقال : يا رب لم يبق لي من حسناتي شيء . فقال الله تعالى للطالب : كيف تصنع بأخيك ولم يبق له من حسناته شيء ؟ قال : يا رب فليحمل عني من أوزاري » ثم فاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء فقال : « أن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس فيه الى أن يحمل عنهم من أوزارهم » . قال : « فيقول الله تعالى أي للمتظلم : ارفع بصرك فانظر في الجنان . فقال : يا رب أرى مدائن من فضة وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ ، لأي نبي هذا أو لأي صديق أو لأي شهيد ؟ قال الله تعالى : هذا لمن أعطى الثمن . قال : يا رب ، ومن يملك ذلك ؟ قال :أنت تملكه . قال : بماذا يا رب ؟ قال : بعفوك عن أخيك . قال : يا رب، قد عفوت عنه . فيقول الله تعالى : خذ بيد أخيك فأدخله الجنة» ثم قال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فان الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة » . (15)

ولم يرخص الاسلام في الكذب الا في مثل هذه الظروف . تأليفا للقلوب ، وتوحيدا للصفوف . وترخص الشارع في ذلك مع أنه كبيرة ولكنه صغيرة بل مباح اذا كان في سبيل الاصلاح :

فعن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لم يكذب من نمى بين اثنين ليصلح » ، وفي رواية : « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نمى خيرا » . (16)

وروى أبو داود عن أم كلثوم بنت عقبة قالت : ما سمعت رسول الله يرخص في شيء من الكذب الا في ثلاث : كان يقول :

---

(15) الخرائطي في مكارم الأخلاق والحاكم وقال صحيح الاسناد وكذا أبو يعلى الموصلي خرجه بطول وضعفه البخاري وابن حبان .. (العراقي) .

(16) متفق عليه .

« لا أعده كاذبا الرجل يصلح بين الناس ، يقول القول ولا يريد به الا الاصلاح · والرجل يقول في الحرب · والرجل يحدث امرأته، والمرأة تحدث زوجها » ·

وهذا يدل على وجوب الاصلاح بين الناس ، لأن ترك الكذب واجب ، ولا يسقط الواجب الا بواجب آكد منه ·

وهاك فضل الاصلاح بين الناس من حكمه صلى الله عليه وسلم :

أولا : كسب الصدقات الجمة ·

ثانيا : نيل الدرجات السامية والنعيم المقيم « يعدل بين الاثنين » ·

ثالثا : الاكتساب بمحامد الطاعات وسمو آداب المصلح « اصلاح ذات البن » ·

رابعا : يعد المصلح ماهرا صادق القول عذبه مهما أطنب في المدح « من نمى ليصلح » ·

خامسا : الاصلاح أفضل الانفاق وتجارة رابحة وأعمال صالحة « أدلك على تجارة » ·

سادسا : الاصلاح أفعال جليلة يكسوها القبول والغفران : ويحيط بها اجلال الرحمن ورضوانه « أدلك على عمل يرضاه الله ورسوله » ·

سابعا : المصلح يثيبه الله جل وعلا ويمده بالرعاية والصيانة ويجيب طلباته وينصره « أصلح الله أمره » ·

ثامنا : المساعي المشكورة ، ازالة خصام الطرفين : ودليل سمو نفس الساعي للصلح وتقدم آماله المثمرة المنجحة عند الله وعند الناس وله بأقواله حسنات عدد حروفها « بكل كلمة عتق رقبة » ·

تاسعا : الصلح جالب المودة ومعمر وباعث الأمن والطمأنينة ومزيل كل شقاق ·

عاشرا : أعد صلى الله عليه وسلم ثوابا جزيلا يزيد عن ثواب الصلاة والصيام والزكاة للباذلين جهدهم المضحين براحتهم وأموالهم في رأب الصدع وجمع الشتات ، واصلاح فساد القلوب وازالة ما في النفوس من ضغينة وحقد ، والعمل على احكام روابط الألفة والاخاء واطفاء نار العداوة والفتن ·

الحادي عشر : يبين صلى الله عليه وسلم نذير التشاحن « الحالقة » أي الخصلة الماحية لكل ثواب ، القاطعة لكل صلة ، الذاهبة بخيري الدنيا والآخرة ، ليتباعد المسلمون عن التنافر ·

لا ترقى المجد المؤثـ — ـل والعلا الا بكدك
واشمل خلالك بالمكا — رم كي يفوح شميم وردك
فاداب معاشرة النبيـ — ـل تجده منتظما بعقدك
انفح برفدك من جفا — ك تكرما وارحب بوفدك
لا تصرمن من الصديـ — ـق ولو قلاك حبال ودك
فاحفظ لنفسك قدرها — واحذر تجاوز رسم حدك
واعطف على ذل الحقيـ — ـر اذا ارتقيت سرير مجدك
ما ان يزيدك هيبة — بين الورى تصعير خدك
كلا ولا تزري شما — ئلك الحسان بلين صدك
بالحلم تبلغ غاية الشـ — ـرف الرفيع برغم ضدك
واجهد نهاك ببذل علـ — ـمك وامزح التقوى بجهدك
لا رث ثوبك يزدريـ — ـك ولا يزينك وشي بردك
ان التفاضل بالفضا — ئل لا ببرفك أو علوك

وقال شاعر آخر :

لا تفرحن بسقطات الرجال ولا — تهزأ بغيرك واحذر صولة الدول
فخير مال الفتى مال يصون به — عرضا وينفقه في صالح العمل
والق الأحبة والاخوان ان قطعوا — حبل الوداد بحبل منك متصل

واعلم يا أخي – وفقني الله واياك للعمل الصالح – أنه لا بد للمصلح من الأمور التالية :

أولا : أن يعدل بين المتخاصمين والاخلاص باعثه على الاصلاح .

ثانيا : أن توجد له مكانة سامية في قلوب المتنافرين .

ثالثا : أن ينضم الى المظلوم اذا أبى الظالم الصلح . وثمرات ذلك المرجوة :

أولا : احلال الألفة مكان الفرقة .

ثانيا : استئصال داء النزاع قبل أن يستفحل .

ثالثا : حقن الدماء التي تراق بين الطوائف المتنازعة .

رابعا : توفير الأموال التي تنفق للمحامين بالحق وبالباطل ، وتوفير الرسوم والنفقات الأخرى الباهضة .

خامسا : تجنب انكار الحقائق التي تجر اليه الخصومات وترك شهادة الزور التي تنفق سوقها في دور القضاء .

سادسا : تجنب المشاجرات والاعتداء على الحقوق الذي قلما يسلم منها خصمان .

سابعا : تفرغ النفوس للمصالح بدل جدها وانهماكها في الكيد للخصوم .

ثامنا : رحمة الله لعباده وأجره العظيم للمصلحين والمتصالحين .

فسارع يا أخي الى الاصلاح بين أخويك وليكن الاخلاص دربك والشوق مركبك عسى أن تفوز الفوز العظيم .

وفي الأخير لا تنس يا أخي أن تخصني بشيء من دعائك ، قل اللهم اذا جمعت الأولين والآخرين لليوم الذي لا ريب فيه فاسبل جميل سترك على عبدك المذنب جمال الأحمر وأدخله بمحض منك وفضلك في عبادك المغفورين ، وامنحه شربة هنيئة من حوض نبيك محمد صلى الله عليه وسلم يوم يقف عليه مشرق الوجه باسم المحيا يستقبل أصحابه الذين عرفهم واخوانه الذين لم يرهم واشتاق اليهم، ولا تجعله من المطرودين أو المحرومين .

عهد يسألك الله عنه يا أخي المسلم أيا كنت ، أن تدعو لأخيك عند ختمك لهذا الكتاب ، فما أحوجني – لو تعلم – الى دعاء خالص من أخ لي في ظهر الغيب .

وأحمد الله تعالى وأشكره على توفيقه لتتميم هذا الكتاب ، وأتضرع اليه سبحانه وتعالى أن يرزقني حسن التمسك بسنة حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وأسأله سبحانه أن يتجاوز بالصفح عما قد أكون تلبست به في هذا الكتاب من زلات وأخطاء وأن يجعل شفيعي في ذلك سلامة القصد وبذل الجهد ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

★

الفهـــــرس



1403 هـ ـ 1983 م

• هـذا الكتـــاب •

دعوة الاسلام قامت منـذ البداية على أساسين ؛ الاخوة والسلام .

فاما الاخوة فى الدين ، فكانت خطابا من اللـه تعالى الى المؤمنين خاصة لقطع الوشائج الجاهلية التى ارتبطوا بها قبـل أسلامهم ويقيموا علاقاتهم ـ فى ظل الاسلام ـ على أساس من الاخوة القرآنية : حقنا للدماء ، وصيانة للاعراض ، وحفظا للاموال « ان دماءكم وأموالكم واعراضكم عليكم حرام ... »

واما الدعوة الى الاسلام فكانت خطابا من اللـه تعـالى الى الناس عامة للدخول فى « السلم كافة » بدخولهم فى الاسلام كافة ..

وهذا الكتاب يعالج مسألة الاخوة فى الدين كما عرضها القرآن ، وظهرت تطبيقاتها فى ذلك الجيل القرآنى الفريد الذى رفـع الامم جميعا الى سامق لانه حمل اليهم رسالة كانت دعوة الى الاخوة فتآلفوا فلما اختلفوا ذهبت ريحهم .

ـ الناشر ـ

15 د.ج.

جمال الأحمر

تآلفوا ولا تخالفوا

الطبعة الأولى
1403 هـ – 1983 م

نشر
دار البعث
للطباعة والنشر
قسنطينة الجزائر

جمال الأحمر
تآلفوا ولا تخالفوا
دار البعث

• هذا الكتاب •

دعوة الاسلام قامت منذ البداية على أساسين ؛ الاخوة والسلام .

فاما الاخوة فى الدين ، فكانت خطابا من الله تعالى الى المؤمنين خاصة لقطع الوشائج الجاهلية التى ارتبطوا بها قبل اسلامهم ويقيموا علاقاتهم – فى ظل الاسلام – على أساس من الاخوة القرآنية : حقنا للدماء ، وصيانة للاعراض ، وحفظا للاموال « ان دماءكم وأموالكم واعراضكم عليكم حرام ... »

واما الدعوة الى الاسلام فكانت خطابا من الله تعالى الى الناس عامة للدخول فى « السلم كافة » بدخولهم فى الاسلام كافة ...

وهذا الكتاب يعالج مسألة الاخوة فى الدين كما عرضها القرآن ، وظهرت تطبيقاتها فى ذلك الجيل القرآنى الفريد الذى رفع الامم جميعا الى سامق لانه حمل اليهم رسالة كانت دعوة الى الاخوة فتآلفوا فلما اختلفوا ذهبت ريحهم .

– الناشر –

15 د.ج.